الحضارة الإسلامية

تأليف
دكتور
عطية القوصي
أستاذ التاريخ الاسلامى المساعد
كلية الآداب جامعة القاهرة

القاهرة
١٩٨٥

الناشر
دار الثقافة العربية
٢ شارع المبتديان بالسيدة زينب - القاهرة



مقدمة

الحضارة الاسلامية ثمرة طيبة أفرزها الحكم الاسلامى لعالم العصور الوسطى فى دولة اسلامية عظيمة امتدت أطرافها وتجاوزت ابعادها وشملت معظم عالم تلك العصور . ولم تأت هذه الحضارة « التى صنعها الانسان المسلم » من فراغ ولكنها حضارة استوعبت ما قبلها من حضارات وأخذت منها ما هو نافع لها ونبذت ما هو دون ذلك ، وأكملت هى المسيرة صانعة مبدعة ، خلاقة ، ودافعة المسيرة الانسانية الحضارية خطوات واسعة الى الأمام . ولقد اضاءت هذه الحضارة لعالم العصور الوسطى منارات العلم وأخذت بيد ابنائه وهدتهم الى مجالات التقدم والرقى فى كل ما ينفع دنياهم واخراهم فيما يتصل بحياتهم المادية والروحية . وبددت هذه الحضارة بنورها واشراقاتها دياجير الظلام التى رانت على عقول أبناء اوربا فى تلك العصور ، التى اطلق مؤرخوهم عليها اسم « العصور المظلمة » وأيقظتهم من سباتهم العميق . وحين أفاق ابناء الغرب فى العصر الحديث تفتحت اعينهم على هذه الحضارة المبدعة ، ووجدوا فيها الملاذ لنفوسهم الحيرى والارتواء لعقولهم ومداركهم العطشى فنهلوا منها حتى الثمالة . ولكن ، بعد ان ارتووا وبعد ان اخذوا فى التحضر ، تنكروا ، للاسف ، لهذه الحضارة الخلاقة ونسوا أفضالها عليهم ، وراحوا فوق ذلك يجرحونها ويتقاولون عليها الأقاويل وينسبون يقظتهم لغير تلك الحضارة الرائدة . ولكن ، أيضا ، برغم قول هؤلاء الجاحدين ، فقد انبرى البررة من أبناء الغرب يدافعون عن حضارة الاسلام ويقرون بفضلها الكبير على حضارتهم الحديثة فى ندواتهم ، وفى جامعاتهم ، وفى مؤلفاتهم ، فأثبت بذلك أولئك النفر ، بالفعل ، انهم متحضرون .

وما أحوجنا ، نحن ابناء هذه الحضارة ، اليوم لدراستها ، وما اشد حاجتنا الى التعرف على اصولها ومقوماتها ، والى التنقيب عن مكامن منابعها التى طمرتها الأيام والسنون . وليس ذلك من أجل ان نتباهى بماض اندثر ، فقد تباهينا بما فيه الكفاية ، ولكن كى نعمل على استعادة ماضينا المجيد ،

وكى نتيقظ لما بجرى من حولنا فى هذه الحياة ونأخذ دورنا الرائد فيها . والعالم الاسلامى فى حاجة الى مراجعة تاريخه لمعرفة نفسه والعثور على جوهره الحقيقى فى مثل هذا الصراع الثقافى والسياسى الذى يواجهه لاثبات ذاته . فلم يعد العالم اليوم ، يتحمل أولئك الكسالى الذين يتطلعون لغيرهم العاملين ، ولم يعد يطيق أولئك الذين يعيشون عالة على كد وكـــدح غيرهم من الكادحين . فلقد طغت المادة وجفت العواطف فى هذا العصر ، ولم يعـــد هناك مكان على هذه الأرض الا لمن يعمل ولم يعد البقاء فيها الا نلاصلح . فعلينا ان نعمل ، ولنقرأ هذه الصفحات اتكن لنا حافزا على العمل ، ولنتـــذكر ونتدبر ، ولنعد لاسلامنا كى تعود لنا حضارتنا فتكون لنا طوق النجاة فى عالم لا يرحم « ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » صدق الله العظيم .

عطيـــة القـــوصى

الفصـــل الأول

مفهوم الحضارة العــام
ومفهوم الحضارة الاســلامية

مفهوم الحضارة العام ومفهوم الحضارة الاسلامية :

مفهـــوم الحضـــارة العـــام :

اذا تساءلنا عن معنى كلمة حضارة ، واستنطقنا اللغة ، لوجدنا انها تعنى ، فى العربية ، الاقامة فى الحضر ، اى فى المدن والقرى بخلاف البداوة ، وهى الاقامة المتنقلة فى بادية الصحراء ، وسميت بذلك لأن اهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التى كانت لهم بها قرار .

ولقد تحدث العلامة « ابن خلدون »(1) عن الحضارة وذكر انها : « طور طبيعى ، أو جيل من اجيال طبيعية فى حياة المجتمعات المختلفة وكذلك البداوة » ، واضاف بأن « البداوة اقدم والبدو اصل الحضر » ، « والبداوة والحضارة طوران طبيعيان من اطوار المجتمعات البشرية ، والحضارة آخر هذه الاطوار وغاية العمران » . وقد استعمل ابن خلدون صيغة « التمدن » بمعنى الحضارة أو التحضر وسكنى المدن .

وفى اللغات الأوربية ، يستخدمون لفظتين رئيستين للدلالة على معنى الحضارة ، وهما كلمتى : culture, civilisation

وكلمة culture التى تعنى الآن « ثقافة » مأخوذة من اصل لاتينى بمعنى « يحرث » أو « ينمى » ، وجاءت منه كلمة : agriculture بمعنى « زراعة » . وابتداء من القرن الثامن عشر صارت هذه الكلمة culture تطلق على المكاسب العقلية والادبية والذوقية التى نعبر عنها بالعربية بكلمة « ثقافة » ، ولا يزال معناها كذلك فى اللغات الأوربية ، اضافة الى انها صارت تعبر الآن عند الأوربيين عن مجموع عناصر الحياة واشكالها ومظاهرها المختلفة فى مجتمع من المجتمعات .

اما كلمة civilisation ، فلقد اشتقت ايضا من اصل لاتينى وهى مأخوذة من كلمة civis بمعنى المواطن فى المدينة ، والمدنى ساكن

---

(1) ابن خلدون : المقدمة ، طبعة القاهرة ١٣٨٦ هـ ، ص ١٠٧ .

المدينة ثم تطور مضمون هذه الكلمة فصارت تعنى ، شأنها شأن مرادفتها culture عملية اكتساب الصفات الاجتماعية المحمودة ، ثم تطورت وصارت تعنى حالة الرقى والتقدم عند الأفراد وفى المجتمعات ، ثم صارت تعنى « الحضارة » بصورة مطلقة . وصارت هذه الكلمة أكثر استعمالا من كلمة Culture لأنها باتت تعبر عن الروح العميقة للمجتمع ، فى الوقت الذى صارت فيه الثانية تعبر عن مظاهر التقدم الآلى والتكنولوجى(٢) .

هذا عن التفسير اللغوى لكلمة حضارة ، اما المفهوم العام للحضارة فيتلخص فى أنها « ثمرة كل جهد يقوم به الانسان او المجتمع لتحسين ظروف حياته سواء كانت هذه الثمرة مادية او معنوية » . كذلك عرف علماء الحضارة انها حياة كل مجتمع متمثلة فيما يفرزه هذا المجتمع من نظم ومؤسسات وقوانين ومكاسب وانجازات مادية وروحية . واضاف هؤلاء العلماء بأن الحضارة ظاهرة انسانية عامة اختص الله تعالى بها الانسان دون سائر الكائنات . ولذلك قالوا ان جميع الجنس البشرى متحضر ، وان كل شعب له حضارته ويأتى الفرق فقط فى المستويات ، وانه من الخطأ ان نقول مجتمع متحضر ومجتمع غير متحضر وشخص متحضر وشخص غير متحضر فالجميع متحضرون .

والحضارة تنشأ فى مجتمع ، والمجتمع قوامه الأفراد الذين يرتبطون ببعضهم داخله وينظمون حياتهم ويعملون على حمايتها وتقدمها وازدهارها ومظاهر حضارة أى مجتمع تتمثل فيما يفرزه هذا المجتمع من منجزات تؤدى الى تقدمه وهى تأخذ مظهرين رئيسين : وهما المظهر المادى والمظهر الروحى اللذين يصعب الفصل بينهما لتداخلهما وتشابكهما مع بعضهما البعض .

ومن الخطأ قياس الحضارات على أساس ما لدى اهليها من ادوات مادية او فنية او آلات ، وما وصلوا اليه من مستوى عال فى العلوم والفنون ، لأن المخترعات والمبتكرات والكماليات كثيرا ما تكون اعباء على الانسان

---

(٢) عفت الشرقاوى : فى فلسفة الحضارة الاسلامية ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ١٥ .

وقودا عليه تحد من حريته وتحرمه من العيش السعيد . ويكون القيـاس الحقيقى فى معرفة مدى تحقيق علو المستويين المادى والروحى معا(٣) .

وهناك ظروف مواتية واخرى غير مواتية لقيام الحضارات وتطورها ، فهناك حضارات كثيرة قامت ثم وقفت مكانها دون ان تتقدم لأن الظـروف لم تسمح لها بالتقدم الا بالقدر اليسير ، لظروف خارجة عنها قد تكون طبيعية أو سياسية او اقتصادية ، وذلك حال بعض الجماعات التى تعيش فى غابات افريقية واستراليا وامريكا اللاتينية . وحتى الحضـارات المتقـدمة تمر بأطوار ثلاثة : هى طور النمو ، ثم طور الازدهار ، ثم طور التـدهور والاندثار ، والمثال على ذلك تدهور الحضارة الرومانية .

والحضارات عندما تنهار لا تزول فى الحقيقة تماما ، وانما تتحلل كما تتحلل أوراق الشجر وتهضمها الأرض لكى تبنى بها نباتا جديدا ، فاذا بدا لنا ان حضارة قد بادت فلنتذكر ان الحضارات لا تفنى وانما هى تتحلل ويرثهـا غيرها من الأمم ويظل الأمر كذلك حتى نهاية الحياة(٤) .

مفهـوم الحضـارة الاسـلامية :

يطلق بعض المؤرخين على هذه الحضارة اسم الحضارة الاسـلامية بينما يصر البعض الآخر على اطلاق اسم الحضارة العربية عليها فبأيهـا نأخـذ ؟

ويرى المتحمسون لوصفها فقط بالعربية ، أنهـم بنوا حجتهـم على اعتبارين اساسيين ، اولهما ، ان العربية هى اللغة الأساسية لتلك الحضارة، والرباط القوى الذى ساعد على تحقيق وحدة فكرية بين اهلها . وثانيهما : ان العرب كانوا حجر الزاوية فى بناء هذه الحضارة واللبنة الأولى فيها . ويدافع اصحاب هذا الرأى عن رأيهم قائلين :

---

(٣) حسين مؤنس : الحضارة ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٧٨ ، ص ٥٥ .

(٤) حسين مؤنس : نفس المصدر السابق ، ص ٢٧٣ .

حقا ان شعوبا أخرى كالفرس والترك والبربر اسهمت فى هذا البناء الحضارى الضخم ، بل ان بعضا من ابرز علماء هذه الحضارة ، كابن سينا والفارابى ، والطبرى وغيرهم ، لم تجر فى عروقهم دماء عربية ، ولكن علينا أن نقر بأن هؤلاء جميعهم قد استعربوا ، واكتسبوا مكانتهم السامية فى ظل الحكم العربى وفى رحاب دولة مترامية اقامها العرب .

كذلك قال هؤلاء ان هذه الحضارة سجلت وحفظت باللغة العربيــة لغة القرآن الكريم ، حتى الشعوب التى احتفظت بلغتها ، رغم خضوعهــا للحكم العربى واعتناقها الاسلام ، اتخذت اللغة العربية أداة العلم والثقافة . وقد ساعد انتشار اللغة العربية فى البلاد التى فتحها العرب على التقريب بين الفاتحين وأهالى البلاد المفتوحة واوجد رباطا قويا ربط بين جميع اهالى هذه الدولة الواسعة التى امتدت من المحيط الى الخليج .

أما المتحمسون لوصف هذه الحضارة بالاسلامية دون العربية ، فحجتهم فى ذلك ان هذه الحضارة لم تكن فقط من صنع العرب ، وان شــعوبا كثيرة غير عربية قد ساهمت بنصيب كبير فيها . واطلاق صفة العربية على هذه الحضارة ، فى رأيهم ، يثير حفيظة غير العرب ويحرك فيهم نعرة العصــبية القومية والشعوبية العنصرية التى حاربها الاسلام وعمــل على القضــاء عليهــــا .

ويقول المدافعون عن هذا الرأى أن الاسلام قد شــكل رباطا قويا بين قلوب الفاتحين العرب من ناحية واهالى البلاد المفتوحة من ناحية اخرى ، وان الشريعة الاسلامية صارت هى الرابط الموحد لشعوب هذه الدولة التى استظلت بظل الاسلام ورفرفت على أرضها رايته . ذلك لأن الاسلام لم يكن مطلقا مجرد عقيدة وشعائر تؤدى فحسب ، وانما هو تخطيط مثالى للفــرد والمجتمع وللامة ، ومنهاج قويم للفكر والسلوك ، ودستور أسمى للانسانية فى أجل صورها بكل ما تنشده من كرامة وعدالة اجتماعية واخاء وحب وخلق قويم . ولقد اصطبغت هذه الحضارة فى نشأتها بصبغة اســلامية مثاليــة واضحة ظهرت فى وحدة شعوبها وفى تفكير اعلامها وفى منهاج حكمها .

وبرغم أن الوحدة السياسية للدولة الاسلامية لم تستمر طويلا ، الا أن الوحدة الدينية ظلت قائمة بين شعوب هذه الدولة ، ذلك لأن الانقســـام

السياسى ، الذى انتهت اليه الدولة الاسلامية الكبرى ، لم يكن يعنى كثيرا لدى المواطن المسلم الذى كانت البلاد الاسلامية كلها وطنــه حيثمـــا توجه والمسلمون اخوة له حيث قصد(٥) . وفى ضوء هذه الحقيقة اخذت الأفكار والآراء والمذاهب العقلية تنتقل من مشرق العالم الاســـلامى الى مغـــربه وبالعكس ، وسهل تنقل العلماء وطلاب العلم والرحالة بين الشرق والغرب ، كذلك تنقل الكتب والمخطوطات وسط العالم الاسلامى الذى ساده جو من الوحدة الروحية التى لم يشهد التاريخ لها مثيل .

ونحن ، مع احترامنا لراى القائلين بالتسمية العربية لهذه الحضارة ، نميل الى تسميتها بالاسلامية، ذلك لانها فى نظرنا ، تسمية أشمل واعم ، وان العرب وان كان لهم فضل انشاء الدولة ، فان للاســـلام الفضـــل فى انتصار العرب وتفوقهم ونقلهم من طور البداوة الى طور الحضارة ومن دياجير الشرك الى نـــور الايمـــان .

وبتسمية الحضارة بالاسلامية نكون قد انصفنا جميع الشعوب التى ساهمت فى هذه الحضارة وسارت تحت راية الاسلام الذى أظل هـــــذه الحضارة بظله وامدها بما يوحد رؤيتها التاريخية لذاتها الحضارية ويشـــكل تكوينها الوجدانى التكوين الخاص المميز .

---

(٥) عفت الشرقاوى : فى فلسفة الحضارة الاسلامية ، ص ٢٥ .

الفصل الثانى

نظم الحضــارة الاســلامية

١ ــ النظــام السياسى
٢ ــ النظــام الادارى
٣ ــ النظــام القضائى
٤ ــ النظــام المــالى
٥ ــ النظــام الحربى

نشـــأة النظم الاســـلامية

جاء الاسلام بدعوة دين ودعوة دولة ودعوة حياة اجتماعية وسياسية واقتصادية وفكرية ، ووضع اسس العقيدة التى يجب أن يؤمن بها أتباعه ، ورسم حدود المعاملات بمختلف أنواعها التى تساعد على اقامة مجتمع اسلامى متميـــز .

وانتشر الاسلام كدين وظهر الاسلام كدولة ، وامتدت هـــذه الدولة لتشمل اجزاء كبيرة من العالم القديم ، وقامت الامبراطورية الاسلامية الكبرى التى امتدت من حدود الصين شرقا الى المحيط الأطلسى غربا .

وانتقل الاسلام كدين دون أن يرافقه حكم العرب المسلمين الى اقطار اخرى متباعدة كاندونيسيا والصين والفلبين واجزاء من افريقية .

وامتزج تحت الحكم العربى الاسلامى افراد شعوب كثيرة اختلفت لغاتها وعاداتها وتقاليدها ولكنها جميعا استظلت بلواء دولة الاسلام .

ولقد وضعت الدولة الاسلامية لها نظما تعتبر أساس حضـــارتها ، ومظهرا بارزا من مظاهر تلك الحضارة ، شملت هذه النظم السيادة والادارة والاقتصاد والاجتماع ، وكل ما يتصل بأمور هـــذه الـــدولة ويحقـــق آمال شـــــعوبها .

وتتمثل هـــذه النظـــم فى :

١ ــ النظام السياسى ، ٢ ــ النظام الادارى

٣ ــ النظام القضائى ، ٤ ــ النظام المالى

٥ ــ النظام الحربى

١ — النظــام الســياسى

تطور نظام الحكم فى الاسلام :

نظام الحكم فى عهد الرسول : حين هاجر الرسول الى المدينة اصبح الرئيس الأعلى لحكومة يثرب ، وقد نزلت عليه سور التشريع المختلفة وهو فى يثرب ، وكانت هذه الآيات تساعده على ايجاد دستور حكومى عام منتظم . وكان المسلمون يرجعون الى الرسول لحل جميع مشاكلهم . وهكذا جمع الرسول السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ، وكان يحكم بوحى الله واجتهاده ، فيما لم ينزل به وحى واستشارته لأصحابه .

والحكم فى الاسلام يقضى بأن الله هو مالك الملك والرسول هو مندوبه على الأرض ، والقرآن هو دستوره حتى يكون مواطنا صالحا لهذه الدولة .

ومعنى دخول المرء فى الاسلام ان يتبع القوانين والشرائع التى أرسلها الله ذلك الملك الأعلى بواسطة مندوبه وواسطة دستوره دون اعتراض سواء فهم العلة والمصلحة فيها او لم يفهمها . ومن لا يقر لله بالحكم المطلق وبأن قانونه فوق كل رأى من آراء الأشخاص والجماعات ، ويأبى ان يتجرد من حق ذاته فى الاذعان لأوامر الله فلا مجال له فى هذه الدولة .

كانت آيات التشريع تنزل حسب تطور جماعة المسلمين . وهذا سبب وجود(١) آيات النسخ فى القرآن (ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها أو مثلها)(٢) .

---

(١) منها ما ورد فى كتاب الله تعالى بشأن تحريم الخمر ، وقد ورد فى ذلك أربع آيات منها ما يقتضى الاباحة ومنها ما يقتضى الكراهة والتحريم ، فأول ما نزل فيها بمكة فى سورة النحل آية ٦٧ قوله عز وجل : (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا) فكان المسلمون يشربونها يومئذ وهى حلال لهم . ثم انزل الله عز وجل فى سورة البقرة (٢١٩) بالمدينة : (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للنـاس واثمهما أكبر من نفعهما) فتركها قوم للاثم الكبير وشربها قوم للمنافع . الى أن كانت حادثة سكر عبد الرحمن بن عوف واصحابه واضطراب صـلاتهم

=

وقد تعرض التشريع الجديد الذى اصبح اساسا لنظام الحكم الاسلامى الى جميع ما يصدر عن الانسان من اعمال سواء من عبادات او امور مدنية او جنائية او تنظيم للاسرة او امور سياسية وحربية ، لأن الاسلام نظام متكامل يشمل كل ما يهم الانسان وينفعه فى دنياه وآخرته .

وقام الرسول بوظيفة رئيس الحكومة المدنى بتعيينه كتاب الوحى ، وارساله الصحابة لتفقيه القبائل ، وامامة المسلمين فى الصلاة ، وجباية الزكاة ، وارسال الكتب الى الملوك والأمراء ، وقيادته الجيوش فى الحروب ، وتعيينه القواد ، ورسم خطط القتال ، الى غير ذلك من الأمور الدنيوية ، الى جانب قيامه برسالته الاساسية وهى الدعوة الدينية ونشر رسالة الاسلام فى الآفاق .

نظام الحكم بعد الرسول :

فوجىء المسلمون بوفاة الرسول واختلفوا فى أمر من يستحق ان يخلفه من بعده فى قيادة المسلمين . ومن هنا نشأت المشكلة السياسية فى الدولة الاسلامية والتى عرفت بالخلافة(٣) .

ولقد سمى من خلف الرسول فى تنفيذ الأحكام الشرعية « خليفة » ، فقيل خليفة رسول الله ، ويطلق الشيعة على الخليفة لقب (امام) تشبيها

= فانزل عز وجل (النساء ٤٣) : (يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) فحرم السكر فى اوقات الصلاة . ثم نزلت آية التحريم) فى شهر ربيع الأول سنة ٤ هـ) بقوله تعالى : (انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون ...) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٤ ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٢) البقرة : ١٠٦ .

(٣) توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ضحى الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول السنة الحادية عشرة للهجرة .

بامام الصلاة فى اتباعه والاقتداء به ، ولذا يسمون الخلافة الامامة الكبرى(٤) .

وذهب السلف الى أن (الخلافة) او الامامة ، هى اساس كل حكم فى الاسلام وجروا فى تعريف الخلافة على أنها رياسة فى امور الدين والدنيا نيابة عن رسول الله ، وان منزلة الخليفة من الأمة منزلة رسول الله من المؤمنين ، له عليهم الولاية العامة والطاعة التامة ، وله حق القيام على دينهم، فيقيم فيهم حدوده وينفذ شرائعه ، وله حق القيام على شئون دنياهم ، أيضا بيده وحده زمام الأمة فكل ولاية مستمدة منه وكل خطة دينية او دنيوية متفرعة عن منصبه فهو الحاكم الروحى والحاكم الزمنى .

الخلافة عند الأحزاب الاسلامية :

لم يشر القرآن الكريم الى نظام الحكم الذى يتبعه المسلمون بعد وفاة الرسول(٥) . وبعد وفاة الرسول تولى الخلافة اربع خلفاء وكانت طريقة توليتهم انتخابية شورية ، لكن الخلافة فى العصرين الأموى والعباسى تحولت الى ملكية وراثية .

وكانت تتم الخليفة البيعة من كافة المسلمين على أنه رئيسهم ينظر فى امورهمويتولى ادارة زمامهم . وكانت البيعة تؤخذ فى المسجد (مسجد المدينة ؛ من وجوه أهلها ثم يرسل الخبر الى الأمصار فيوافقون على ذلك ويبايعون ولاتهم باسم الخليفة .

ولما استقر الأمر لمعاوية أوجد فكرة ولاية العهد وبايع الناس ابنه يزيدا فى حياة معاوية ثم جددوا له البيعة بعد وفاته .

وهكذا أصبحت البيعة تعطى للخليفة قبل توليته ثم تجدد ثانية عند توليته منصبه وتطورت بعد ذلك حين صار الخليفة يختار وايين لعهده .

---

(٤) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢١٥ .

(٥) لجماعات الشيعة راى خاص فى الخلافة والامامة يعارضون فيه ما سارت عليه جماعات السنة التى آل حكم الدولة الى ابنائها .

وفى العصر العباسى تمت البيعة لأكثر من ولى عهد واحد ، وقد أخـذ الرشيد البيعة لأبنائه الثلاثة من بعده : الأمين ثم المأمون ثم القاسم .

آراء الفرق الاسلامية والمؤرخين حول اختيار الخليفة :

اتجهت كل فئة من فئات المسلمين الى أن يكون الخليفة منها ، وبذلك قام النزاع واشتد الخلاف بينهم لخوفهـم ان يحـكم محل رسول الله شـخص لا يستحق هذه المكانة العظيمة ولا يرع حقوق الله فى عباده .

وكانت اهم الآراء التى ظهرت حول اختيار الخليفة هى :

١ ــ **راى المهاجرين :** راى المهاجرون ان يكون الخليفة منهم ، وحجتهم انهم اول من آمنوا بالرسول وصبروا على الأذى وهاجروا ، وهـم قومه وعشيرته وهم من قريش والعرب لا تدين الا لهم .

٢ ــ **الأنصار :** حجتهم انهم منعوا الرسول وآووه ونصروا الدعوة ومات الرسول بين ظهرانيهم وهم الذين اعز الله الاسلام بهم فالحكم لا يكون الا فيهـم .

٣ ــ **راى الشيعة :** وهم انصار اهل البيت لا يحبذون فكرة الانتخاب فى اختيار الخليفة ويرون ان تكون الخلافة فى بيت النبى ، وأقرب الناس اليه عمه العباس بن عبد المطلب وابن عمه على بن أبى طالب . ولـكن العباس فى نظرهم لم يكن من السابقين فى الاسلام فقد حضر غزوة بدر مع المشركين لذا فأولى الناس من قرابة النبى على ، فهو أول الناس اسـلاما ، وزوج فاطمة بنت النبى ، وجهاده وفضله وعلمه لا ينكر . ومن بعد على تكون فى أولاده يتولونها بالوراثة .

ويعتقد الشيعة ان النبى عين عليا خلفا له تصريحا وتلميحـا . أما تصريحا فقوله : "ومن كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله ."

أما تلميحا فهى فى نظرهم ان النبى (ص) امر فى كثير البعوث اناسا على ابى بكر وعمر وغيرهما من الصحابة ولكنه ما امر على على احدا قط .

والشيعة تجعل الخليفة صفات دينية فهو مستودع العلم الشرعى وهو وحده الذى يفهم القرآن والسنة وله حق تفسيرهما ولذا لقبوا الخليفة بالامام لأنهم يعتبرونه قدوة لهم .

رأى الخوارج :

وهو ان الخلافة يجب ان تكون باختيار حر من المسلمين ولا تشترط أن يكون عربيا ولا قرشيا ، واذا اختير مسلم فلا يصح له ان يتنازل عن الحكم ويجب ان يخضع خضوعا تاما لما امر الله والا وجب عزله .

وقال الخوارج بصحة خلافة أبى بكر وعمر لصحة انتخابهما ، وقالوا بصحة خلافة عثمان فى سنيه الأولى . كما اقروا بصحة خلافة على حتى قبوله التحكيم وحكموا عليه بعد ذلك بالكفر . كما كفروا طلحة والزبير وعائشة والحكمين ، وكفروا الخلفاء الأمويين فى نظرهم . وتتفق فرق الخوارج المختلفة فى هذه الآراء(٦) .

رأى المرجئة :

ظهر حزب المرجئة بعد ظهور حزبى الشيعة والخوارج واشتداد النزاع والجدل بينهما . وجاءت هذه الجماعة غير مستنفرة لأى طائفة من الطوائف المختلفة ولكنها ارجأت الحكم فيهم لله ، فهم بذلك محايدون . وكان المرجئة مؤيدين لحكم الأمويين حفاظا على وحدة الأمة الاسلامية ومنعا للخلاف والحرب .

رأى المعتزلة (القدرية) :

يقولون بحرية ارادة الانسان ، وأن الأمة تختار امامها ، ولم يتفقوا فى ان يكون الامام قرشيا ، وقالوا بصحة خلافة الراشدين ، وهم فى الحرب بين على ومعاوية يؤيدون جانب على ويعتبرون خلافة بنى أمية غير صحيحة . ولقد اعتنق آراء المعتزلة كثير من رجال الشيعة .

---

(٦) انقسم الخوارج الى : أزارقة اتباع نافع بن الأزرق ، وصفرية اتباع زياد ابن الأصفر ، واباضية اتباع عبد الله بن اباض التميمى . وتتوزع هذه الجماعات الآن فى مناطق متفرقة من بلدان العالم الاسلامى .

شروط الخـــلافة :

الخلافة ضربان : اختيارية وقهرية . والاختيارية هى التى تكون نتيجة انتخاب الأمة وبيعتها ورضاها ، ويشترط فيمن يكون مستحقا لها ان يـــكون جامعا للصفات المطلوبة . والشروط اللازمة لها اربعة : العلم والعـــدالة والكفاية وسلامة الحواس والاعضـــاء .

والقهرية هى التى نالها أصحابها بالقوة ، ويرى بعض الفقهاء صحتها ولزوم الطاعة لصاحبها حتى لا تكون فتنة تمزق العالم الاسلامى .

ألقـــاب الخليفــة :

كان يطلق عليه : الخليفة ، وامير المؤمنين ، والامام .

فاقد اطلق على ابى بكر الصديق : خليفة رسول الله ، وعلى وعمر : خليفة خليفة رسول الله ، ثم غير الى امير المؤمنين . أما لقب امام : فكان يستعمل عند الشـــيعة(٨) .

علامات وشارات الخـــلافة :

١ — البردة : وهى بردة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، التى كان يرتديها النبى الى ان اعطاها للشاعر كعب بن زهير بن ابى سلمى سنة ٨ للهجرة ، بعد اعلانه الندم وتوبته من هجاء رسول الله ، ثم مدح الرســـول بقصيدته المشهورة التى مطلعها : بانت سعاد فقلبى اليوم متبول

متيــــم إثــــرها لـــــم يفـــد مكبـــــول

ومن أبياتها :

ان الرسول لنور يستضاء به   مهنّد من سيوف الله مسلول(٩)

---

(٧) ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٧٩ .

(٨) نفس المصدر السابق ، ص ١٨٦   (٩) القصيدة موجودة باكملها فى: سيرة ابن هشام ، بيروت ١٩٧٥ ، ج ٤ ، ص ١٠٩ — ١١٦ .

وقد تداول اهل كعب البردة وتوارثوها الى أن اشتراها منهم معاوية ابن ابى سفيان بأربعين الف درهم وتوارثها الأمويون ثم العباسيون .

٢ — الخاتم : وهو خاتم رسول الله الذى صنع له حين أرسل خطابه لكسرى ملك فارس ، وكان الأكاسرة لا يقبلون خطابا غير مختوم . وانتقل هذا الخاتم للخلفاء وسقط من الخليفة عثمان فى بئر أريس فاصطنع خاتما غيره . وظل الخلفاء يختمون كتاباتهم بخواتيمهم الى أن انشأ معاوية ديوانا للخاتم .

٣ — الخطبة : وهى الدعاء للخليفة على المنابر فى خطبة يوم الجمعة .

٤ — السكة : وهى نقش اسم الخليفة على عملة الدولة .

تاريخ الخلافة :

انتقلت الخلافة من الراشدين الى الأمويين ثم العباسيين ، وتحولت عاصمة الخلافة من المدينة المنورة الى دمشق ثم الى بغداد .

وحين استولى المغول على بغداد قتلوا آخر خلفاء بنى العباس فى بغداد وقتلوا معه كل أفراد بيته فى ٤ صفر سنة ٦٥٦ هـ/٢٠ فبراير ١٢٨٥ م . وكانت بموت الخليفة المستعصم بالله العباسى نهاية الخلافة العباسية فى بغداد . واقد قام حكام مصر المماليك باعادة الخلافة فى مصر وجعل القاهرة عاصمتها وذاك حين قام الظاهر بيبرس بتنصيب أحد اقارب الخليفة العباسى المقتول . وكان يعيش فى الشام ، خليفة على أن ينعم هذا الخليفة على بيبرس بلقب السلطان . وأحييت بذلك الخلافة فى مصر وظلت بها حتى الغزو العثمانى . وعندما غزا العثمانيون مصر عاد السلطان سليم الأول العثمانى الى القسطنطينية ومعه الخليفة المتوكل العباسى وأجبره هنالك على التنازل له عن الخلافة ، وبذلك صارت الخلافة فى يد سلاطين العثمانيين(١٠) ، حتى قام مصطفى كمال أتاتورك بالغاء الخلافة رسميا فى شهر مارس من سنه ١٩٢٤ .

---

(10) Muir, Sir William : The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall,Edin burgh 1924, PP. 292 - 93.

وفى العصر العباسى شارك الفاطميون الذين حكموا فى المغرب ، ثم مصر والشام مدة قرنين من الزمان ، الخلافة العباسية فى حمل لقب الخلافة كذلك شاركهم امراء قرطبة الأمويين حمل هذا اللقب ، فصارت القــاهرة وقرطبة منافستين لبغداد فى رئاسة العالم الاسلامى .

٢ — النظــــام الادارى

الـــــوزارة

تعــريف الوزارة :

الوزارة اسم مشتق من معناها ، وقد جاء هذا المعنى على ثــلاثة أوجه ، وهى : من الوِزْر (بكسر الواو وسكون الزاى) ، وهو الثِقَل ، ذلك لان صاحبها يحمل الثِقَل عن الملك الموزور له(١١) ، ومنهــا قوله تعــالى : « ولكنا حُمِلنا اوزاراً من زينة القوم »(١٢) .

من الأَزَر : وهو الظهر ، لأن الملك يقوى بوزيره قوة البدن بالظهر . ومنه قوله تعالى : "كزرع اخرج شطاه فآزره فاستغلظ" أى اعانه(١٣) .

من الوَزَر : وهو الملجأ : ومنه قوله تعالى : "كلا لا وَزَر" ، اى لا ملجأ ، لأن الملك يلجأ الى رأى وزيره ومعونته .

ويقول البعض ان اصل الكلمة فارسى من كلمة « ڤيشيرا » ومعناها : الأمر والتقرير (١٤) ، وقد استبعدت كل الأبحاث الحديثة عن الوزارة هــذا

---

(١١) الثعالبى (أبو منصور عبد الملك) : تحفة الوزراء ، بغداد ١٩٧٧ ، ص ٣٩ .

(١٢) طه : ٨٧ ، وقال تعالى فى سورة محمد (آية ٤) « حتى تضع الحرب اوزارها » .

(١٣) الفتــح : ٢٩ .

(١٤) احمد امين : ضحى الاسلام ، ط ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ١٧٢ .

الراى واقرت الأصل العربى(١٥) .

وقد وردت كلمة وزير فى موضعين من القرآن : فى سورة طه ، حيث يخاطب موسى ربه بقوله : « رب اشرح لى صدرى ويسر لى امرلى واحلل عقدة من اسانى يفقهوا قولى واجعل لى وزيرا من اهلى هارون اخى اشدد به أزرى »(١٦) .

وفى سورة الفرقان قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه اخاه هارون وزيرا »(١٧) . وفى حديث السقيفة : « نحن الأمراء وانتم الوزراء » .

الوزارة قبل العصر العباسى :

ليست الوزارة من مستحدثات الاسلام ، فقد عرفهـا بنو اسرائيـل والفرس الساسانيون ، كذلك عرفها ملوك عرب اليمن والحيرة والشام قبـل الاسلام ، وكانوا يسمون من يؤازرهم اعبـاء الملك « بالراهن » لأنه مرتهن بالتدبير ، و « الزعيم » لأنه زعيم بصواب رايه ، و « الكافى » لأنه يكفى الملك مهمـات الأمـور .

وفى صدر الاسلام كان النبى (ص) يشاور أصحابه ويفاوضهم فى مهماته العامة والخاصة ، وقد خص ابا بكر بخصوصات حتى كان الفرس والحبش الذين خالطوا العرب يسمون ابا بكر وزير النبى(١٨) .

ويقول بعض المؤرخين ان الوزارة ظهرت مع الخلافة فكان عمر وزيرا لابى بكر وكذلك على وعثمان مع عمر ومروان بن الحكم مع عثمان .

---

(١٥) جوايتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى ، ترجمة المـؤلف ، الكويت ٨٠ ، ص ١٠٦ — ١١٢ .

(١٦) طه : ٢٥ .

(١٧) الفرقان : ٣٥ .

(١٨) ابن خلدون : **المقدمة** ، ص ٢٠٥ .

وفى العهد الاموى استخدم ملوك الامويين اناسا يقومون بعمل الوزراء، ولكن لم يطلق عليهم هذا اللقب مثل استخدام معاوية بن ابى سفيان لزياد بن ابى سفيان(١٩) .

الوزارة زمن العباسيين :

لم تتمهد قواعد الوزارة وتتقرر قوانينها الا فى دولة بنى العباس ، وفى عهدهم سمى الوزير وزيرا .

وكان ابو سلمة الخلال (حفص بن سليمان الهمدانى وهو مولى فارسى) اول من دعى بالوزير فى دولة العباسيين وكان يلقب بوزير آل محمد . ثم استوزر ابو الجهم ، ثم خالد بن برمك جد البرامكة الذين نبغوا وسما نفوذهم فى الدولة حتى قضى عليهم الرشيد فيما عرف فى التاريخ بنكبة البرامكة .

وكان اكثر وزراء العصر الاول العباسى من الفرس :

فلقد وزر ابو ايوب الموريانى : للمنصور ، لكن المنصور نكبه سنة ١٥٣ هـ وقلد مكانه ثلاثة رجال(٢٠) .

ويعقوب بن داود للمهدى ، الذى كان يناديه بانه أخوه ووزيره .

ويحيى بن خالد البرمكى : للرشيد ، الذى كان يناديه بانه والده ، كذلك ابنه جعفر .

والفضل والحسن بن سهل : للمأمون(٢١) .

كان الوزير فى عهد العباسيين ساعد الخليفة الأيمن يقضى باسمه فى جميع شئون الدولة ، فكان له الحق فى تقليد العمال وصرفهم والاشراف

---

(١٩) جوايتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

(٢٠) كذلك كان من وزراء الفرس : الفتح بن خاقان وولده ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ، وابو محمد المهلبى ، وسليمان بن وهب ، وداود بن الجراح ، وعلى بن عيسى ، وبنو الفرات ، وبنو مقلة ، وبنو رئيس الرؤساء، ويحيى بن هبيرة (الثعالبى : تحفة الوزراء ، ص ١١٦ ، ١١٧) .

على الدواوين وجمع الضرائب وعلى موارد الدولة ومصروفاتها ، فكان بذلك ينوب عن الخليفة فى حكم البلاد .

وانقسمت الوزارة فى عهد العباسيين قسمين :

١ — وزارة تنفيذ (مقيدة)　　٢ — وزارة تفويض (مطلقة) .

وزارة تنفيذ : يرأسها شخص لا يحق له تدبير الأمور باجتهاده وانما يكون عمله قاصرا على تنفيذ اوامر الخليفة . وهو واسطة بين الخليفة وبين الرعية . فيقوم بما يأمره الخليفة به من تعيين الولاة وتجهيز الجيوش وادارة شـــئون الـــدولة .

وزارة تفويض : يرأسها شخص يفوض اليه الخليفة تدبير الأمور برأبه وامضائها على اجتهاده دون الرجوع اليه . ولم يبق للخليفة من السلطات الا ولاية العهد وسلطة عزل من يوليهم الوزير . وهى أكمل الولايات واتمها لاشتمالها على النظر فى امور المملكة(٢٢) .

ومن أشهر وزراء التفويض : جعفر بن يحيى البرمكى ، والفضل بن سهل وزير المأمون ، ونظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقى(٢٣) .

قال الرشيد ليحيى : قلدتك امر الرعية ، وأخرجته من عنقى اليك ، فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت ،

---

(٢١) ذكر الجهشيارى ان المنصور حين نكب ابا يوسف قلد مكانه الفضل بن سليمان الطوسى للخاتم وكتابة الرسائل لأبى مدبر صـــدقة وقلد ضياعه لمولاه صاعد .

(الجهشيارى — الوزراء والكتاب ، القانون ٣ ، ص ١٢٤) .

(٢٢) الثعالبى : تحفة الوزراء ، ص ٧٥ .

(٢٣) نصح نظام الملك مايكه بالعدول عن هذا النظام وذلك فى كتـــابه سياسة تامة بعد أن تولى وزارة التفويض مدة ثلاثين عاما .

وامضى فى الأمور على ما ترى(٢٤) . ودفع اليه بخاتمه الخاص ثم سلمه خاتم الخلافة حتى صار بيده الحل والعقد فى كل شئون الدولة(٢٥) .

وخلفه ابنه جعفر فقبض البرامكة على زمام الأمور واصبحت اموال الدولة فى ايديهم حتى كان الرشيد يطلب البسيط من المال فلا يصل اليه الا عن طريق البرامكة فغلبوه على امره وشاركوه سلطانه .

وفى الادوار التالية حين ضعف شأن الخلفاء ازداد نفوذ الوزراء وقويت المنافسة على الوزارة وتفشى الدس والرشوة . واذا اظهر احدهم استعداده لشراء هذا المنصب يدفع مبلغا كبيرا للخليفة ثم يرجع ويسـترد ما دفعه بعد توليتـه .

وبلغت الوزارة فى مطلع القرن الرابع أى زمن المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠) (٢٩٥ — ٣٢٠) فى عهد ابن الفرات شأنا عظيما من الأبهة والنفوذ وكثرة المـال .

وفى نفس القرن بدأ ضعف نفوذ الوزراء بسبب كثرة تبديلهم وتغييرهم، حتى انتهى الأمر فى عهد الخليفة الراضى الى سيطرة أمراء الأمراء على الحكم مباشرة فلم يعد للوزراء سلطة بينهم سوى الاسم .

ثم فى عهد المستكفى دخل أمراء بنى بويه بغداد وحجروا على الخلفاء فلم يعد هؤلاء يستوزرون وانما كانت تولية الوزارة لبنى بويه .

وظهر لبنى بويه وزراء مشهورون مثل ابن العميد وزير ركن الدولة ، والصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة وفخر الدولة البويهى .

---

(٢٤) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ص ٢١١ .
(٢٥) الجهشيارى : نفس المصدر السابق ، ص ٢١٣ .

الـولاة وادارة الولايـات

كانت البلاد الخاضعة للعرب تقسم الى ولايات او امارات ، وهى تقسيمات ادارية لابد منها فى حكومة منظمة . فكان الخليفة يدير الامور فى عاصمة ملكه ويعين على كل ولاية عاملا او واليا يقوم مقامه فى ادارة شئونها، ويسمى ايضا بالأمير .

الولايات وادارتها زمن النبى :

كان النبى ينيب عمالا على القبائل وعلى المدن . فكان على كل مدينة كبيرة بالحجاز واليمن وعلى كل قبيلة كبيرة عامل من قبله . وكانت وظيفة هؤلاء العمال هى الامامة فى الصلاة وجمع الصدقات اذ لم يكن هناك خراج .

الولايات وادارتها زمن الراشدين :

لما تولى أبو بكر الخلافة اقر عمال الرسول (ص) على اعمالهم . ولم تتجاوز رقعة الدولة العربية فى ايامه اكثر من جزيرة العرب التى قسمت الى اثنتى عشرة ولاية أهمها : مكة والمدينة والطائف وصنعاء وحضر موت ونجد والبحرين . وكان أبو بكر يختار اكثر الناس علما وعملا عمالا له على هذه الولايات .

ولما اتسعت رقعة الدولة فى عهد عمر قسمها الى اقسام ادارية كبرى وهى (ولايات فارس وما وراء النهر) وتشمل :

ولاية الاهواز والبحرين . ولاية سجستان ومكران وكرمان . ولاية طبرستان ، ولاية خراسان .

وجعل العراق قسمين احدهما حاضرته الكوفة والثانى البصرة .

وقسم بلاد الشام الى قسمين احدهما قاعدته حمص والثانى دمشق . وجعل فلسطين قسما قائما بذاته . وقسم افريقيا الى ثلاث ولايات : مصر العليا ومصر السفلى وغرب مصر وصحراء ليبيا .

وعين عمر الى جانب الوالى فى ولايته عامل خراج للشئون المالية وكان كلا الاثنين رقيبا على صاحبه .

واستمر نفس الحال فى عهد عثمان وادى تذمر المسلمين بسبب استبداد ولاته الأمويين الى الثورة ضده فأضرموا نار الفتنة التى انتهت بقتله .

الولايات وادارتها زمن الأمويين :

بلغت الدولة اقصى اتساعها ايام الأمويين وكانت تقسم اداريا الى خمس ولايات كبرى هى :

١ — الحجاز واليمن واواسط بلاد العرب .

٢ — مصر بقسميها السفلى والعليا .

٣ — العراق العربى والعجمى (والعجمى يشمل كل المناطق الواقعة شرق العراق وحاضرته الكوفة . وكان يعين واليا على خراسان مركزه مرو) .
٤ — بلاد الجزيرة (ويتبعها ارمينية واذربيجان وبعض اراضى آسيا الصغرى) .

٥ — افريقية الشمالية حتى غرب مصر وبلاد الاندلس وجزر صقلية وسردانية والبليار ومركزها القيروان .

وقد سار الامويون على سياسة الخلفاء الراشدين فى اختيار الولاة من العرب .

الولايات وادارتها زمن العباسيين :

لم تختلف التقسيمات الادارية فى العصر العباسى الأول عما كانت عليه زمن الأمويين من حيث تجزئة بعض الولايات الكبرى مثل العراق العجمى الذى قسم الى :

عراق **العجم** ، اذربيجان ، خراسان ، ما وراء النهر ، السند والبنجاب ، الاهواز ، جنوب فارس .

وقام الرشيد بفصل تخوم الشام عن امارة الجزيرة وجعلهـــا امارة اطلق عليها اسم العواصم وجعل عاصمتها طرسوس .

ووجد الى جانب الوالى موظفون مثل صاحب المال وصـــاحب البريد والقاضى ، واقتصر عمل الوالى على الصلاة وقيادة الجند . وكان الخليفـــة يختار عمال الأقاليم بنفســـه .

أنـــواع الولايات :

اذا قلد الخليفة أميرا على اقليم او بلد كانت امارته اما :

١ — امارة عامة أو ٢ — امارة خاصة .

١ — والامارة العامة :

تكون للوالى فيها سلطة شاملة تامة وهى على نوعين :

أ — امارة استكفاء او تفويض ، اى يوليه الخليفة باختياره .

ب — امارة استيلاء بعقد عن اضطرار ، اى يوليه الخليفة وهو مكره . .

أ — امارة الاستكفاء (التفويض) :

هى التى كان يعقدها الخليفة لمن يختاره من رجاله الأكفاء ، فيفوض اليه امارة الاقليم على جميع اهله وجعله عام النظر فى كل اموره لا يراجعه الا فى الأمور الشديدة الأهمية ، ويشتمل نظره على :

تدبير الجيش ، تقليد الحكام والقضاة ، جباية الخراج ، حماية الولاية ، الامامة فى الصلاة ، اقامة حدود الشرع ، تسيير الحج ، جهاد العدو (اذا كان الاقليم متاخما لعـــدو) .

ب — امارة الاســـتيلاء :

وهى أن يستولى والى على الامارة او على اقليم تابع للخليفة بالقوة فيقر الخليفة وضعه استصلاحا للامور وحقنا للدماء .

ولأمير الاستيلاء أن يتصرف فى ولايته كيف شاء(٢٦) .

ومن أشهر هذه الولايات فى العصر العباسى :

الدولة الحمدانية فى الموصل وحلب ، البويهية فى فارس وكرمان ، الغزنوية فى الأفغان والهند ، والاخشيدية فى مصر والشام .

وكلها كانت امارات مستقلة لا يربطها بالخلافة الا الولاء الروحى والمذهبى .

٢ — الامارة الخاصة :

هى التى تكون سلطة الأمير فيها مقصورة على تدبير الجيش وسياسة الرعية وحماية السكان ، وليس له ان يتعرض للقضاء او لجباية الخراج .

والامارات الخاصة كانت كثيرة ايام الأمويين قليلة أيام العباسيين .

الدواوين

مفهوم الكلمة :

اختلف فى اصل كلمة ديوان ، هل هى عربية ام فارسية . قال البعض ومنهم سيبويه انها عربية ومعناها : الأصل الذى يرجع اليه ، وقال آخرون ومنهم الأصمعى بل هى فارسية معربة ومعناها سجل أو دفتر ، وأطلقت من باب المجاز على المكان الذى تحفظ فيه السجلات الرسمية .

نشأة الدواوين وأقسامها ايام الراشدين :

اول من انشأ الديوان فى الاسلام عمر بن الخطاب ، وذلك بسبب اتساع الدولة فى عهده والحاجة الى ضبط احوالها ، فأنشأ :

---

(٢٦) أنور الرفاعى : الاسلام فى حضارته ونظمه ، دمشق ١٩٧٣ ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

ديوان العطاء أو ديوان الخراج(٢٧) وكذلك ديوان الجند(٢٨) .

اشهر الدواوين زمن الأمويين :

ديوان الجند ، ديوان الخراج ، ديوان الرسائل ، ديوان الخاتم ، ديوان الطراز ، ديوان الصدقات .

١ — ديوان الجنـــد :

بقى هذا الديوان فى أول العهد الأموى على ما انشاه الخليفة عمر وهو اكبر ديوان فى الدولة تحدد فيه مقدار اعطيات جميع العرب والجنود المقاتلة من عرب وغير عرب .

٢ — ديوان الخراج (المالية) :

وواجباته جمع الخراج والانفاق من موارده على شئون الدولة . وكان فى كل ديوان اشبه بالادارة المالية الحالية يجمع الخراج ويحتفظ بما يحتـــاج اليه الولاة من مصروف ويرسل الفائض الى ديوان الخراج بالعاصمة . وكان يستخدم اللغتين الفارسية والرومية فى هذا الديوان حتى قام الخليفـــــة عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين . ولم تكن هناك عملة رســـمية وكان التعامل بالعملات الرومية والفارسية حتى سك عبد الملك العملة وسحب غيرها سنة ٨٧ هـ .

٣ — ديوان الرسائل (الانشاء) :

ويختص هذا الداوين بالرسائل المرسلة من الدولة واليها ويعـــرف صاحبها بصاحب ديوان الانشاء او الرسائل .

---

(٢٧) رصد عمر فى هذا الديوان ارزاق المسلمين ، ورتبهم درجـــات بحسب اسبقيتهم فى الاسلام واسبقيتهم فى الجهاد وقرابتهم وقربهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢٨) وضع عمر هذا الديوان بعد ان بدات عملية الفتوح ورصد فيـــه اسماء الجنود المقاتلين واسماء اسرهم ورصد لهـــم فيه رواتب ثابتـــة كى يتفرغوا للقتال ولا يفقدوا الروح القتالية اذا ما انصرفوا للحياة العامة ومالوا الى الدعـــة .

٤ — ديوان الخاتم :

أول من وضع هذا الديوان معاوية ، وكانت تختم فيه الرسائل الخارجية من الدولة . وكان هو اكبر دواوين الدولة وهو بمثابة الأرشيف ومكان حفظ السجلات . وكان موظفون يقومون بنسخ أوامر الخليفة وختمها وحفظها .

٥ — ديوان الطراز :

وهو الخاص برسم أسماء الملوك والسلاطين ورسم علاماتهم التى تختص بهم فى طراز اثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج .

اضافة الى ديوان النفقات وديوان الصدقات وديوان المستغلات وديوان البريد(٢٩) .

تعريب الدواوين :

كانت لغة الدواوين حتى زمن عبد الملك بن مروان فى العراق الفارسيه وفى الشام الرومية وفى مصر القبطية واليونانية . فأمر عبد الملك بتعريبها فعربت تحت اشراف الحجاج بن يوسف الثقفى سنة ٨٥ هـ . وكان لتعريب الدواوين أثر مزدوج من الناحيتين السياسية والأدبية ، فقد اصبحت لغة الدواوين هى العربية مما ساعد على تقلص نفوذ غير العرب . اما من الناحية الأدبية فقد اصبحت اللغة العربية لغة التدوين فنقل اليها كثير من الاصطلاحات الفارسية واليونانية وبدات تظهر طبقة الكتاب العرب منذ ذلك الوقت .

الدواوين فى العهد العباسى :

حدث توسع فى الدواوين بسبب اتساع الدولة وكثرة مشاكلها وقامت هذه الدواوين بأعمال الوزارات الحالية .

واضيفت الى الدواوين السابقة دواوين جديدة فى ذلك العصر تأثرا بالنظم الادارية الفارسية مثل :

---

(٢٩) ناجى معروف : المدخل فى تاريخ الحضارة العربية ، بغداد ١٩٦٠ ، ص ٢٤ .

ديوان النظر فى المظالم ، ديوان النفقات (نفقات دار الخلافة) ، ديوان الضياع ، ديوان الجهبذة ، ديوان البريد ، ديوان التوقيع .

البـــريد

معنى الكلمـــة واصـــلها :

البريد فى اللغة مسافة معلومة مقدرة باثنى عشر ميلا .

وفى الاصطلاح : هو رصد عدد من الخيل فى عدة اماكن فاذا وصـــل صاحب الخبر الى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره وكذلك يفعل فى المكان الآخر حتى يصل بسرعة .

وقد اختلف فى الكلمة ، فبعضهم يقول انها عربية مشتقة من برد أو ابرد بمعنى ارسل . وذهب آخرون الى أنها فارسية من « بريده دم » ومعناها الفرس المقصوص الذنب ، وذلك لأن الفرس كانوا يقصون ذنب دواب البريد لتميز بذلك عن غيرها من الدواب الأخرى . ويزعم الأوربيون ان اصل الكلمة لاتينى مشتق من كلمة verdus وهى تعنى العمود الذى يربط فيـــه الفرس او الوتد(٣٠) .

وعرف البريد عند الفرس والروم . وأول من اتخذه من المسلمين معاوية ابن ابى سفان اقتداءا بما كان فى الشام والعراق .

وفى عهد عبد الملك بن مروان ، ادخلت تحسينات كثيرة على البـــريد لأهميته فى تأمين المواصلات والأخبار بين الخليفة والولاة .

وكان عبد الملك يسمح بدخول صاحب البريد عليه فى اى ساعة كانت من ليل او نهار . وفى ذلك يقول « ربما افسد على القوم ســـنة اذا حبس البـــريد ســـاعة » .

---

(30) Sir T. W. Arnold : Arab Travellers A. D 1000 - 1500, London 1926, P. 91.

البريد زمن العباسين وانشاء ديوان له :

ازداد اهتمام العباسيين بالبريد وانشاوا له ديوانا خاصـــا واعتمـــد الخلفاء عليه اعتمادا كبيرا فى ادارة شئون دولتهم .

مهمـــة صـــاحب البـــريد :

البريد كان واسطة العلاقة بين الولاة والخليفة ، ينقل اخبار الخلفاء الى ولاتهم ، واخبار الولاة الى خلفائهم . الا ان عمل صاحب البريد لم يقتصر على مراقبة توزيع المكاتبات الرسمية فحسب ، بل كان يتعداها الى موافاة الخليفة بكافة الاخبار والحوادث التى يمده بها اعوانه المنتشرون فى انحـــاء الاقاليم . اى انه كان رقيبا ومفتشا وعينا للخليفة ، يرفع التقارير عن احوال الجند والمال ، واحكام القضاة واسعار السلع وغيرها ، فكان عمله يشـــبه نظام المخابرات .

وســـائل نقل البـــريد :

١ ـــ النقـــل البـــرى :

وكانت واسطته الدواب ، وكانوا يعلقون فى اعناقها جلاجل او سلاسل اذا تحركت سمعت لها فرقعة تعرف عندهم بقعقة البريد .

ورجل البريد يعرف باسم بريدى يحمل بريده فى حقيبة ويضع حول عنقه شرابة من حرير اصفر . وفى بعض الأحيان كان يعتمد على الســـعاة لنقل البريد وهم رجال خفاف تعودوا الجرى والصبر على السير .

٢ ـــ النقـــل الجـــوى :

كان يعتمد فى النقل الجوى على الحمام الزاجل فيكتب المطلوب بصيغة مقتضبة كالتى تستعمل فى البرقيات فى وقتنا هذا . وكانت الرسالة تشـــد تحت جناح الطائر او فى ذيله . وكان يكتب صورتان من الرسالة ترسلان مع طائرين يطلقان فى اوقات متباعدة قليلا حتى اذا ضل احدهما او قتـــل او افترسته الجوارح امكن الاعتماد على وصول الآخر . وقد جرت العادة الا يطلق الحمام فى الجو الممطر ولا قبل تغذيته الغذاء الكافى .

ويقال ان استخدام الحمام الزاجل كان معروفا عند اليونان والرومان . وعرفه العباسيون فى عهد المعتصم ثم انتشر استعماله عندهم . واصبح يستخدم للاغراض العسكرية وانشا له فى كل محطة حظيرة خاصة ، واقروا له ديوان خاص ، وكان الذى يشرف على ابراج الحمام يسمى براجا .

٢ — النقـل المـائى :

وكان يرسل البريد ايضا على السفن فى البحار والانهـار . وكان الاعتماد على هذا النوع من النقل ضعيفا ، الا اذا كانت الطرق البرية صعبة الاجتياز أو خطرة او طويـلة .

محطـات البـريد :

انشئت فى رأس كل مرحلة تستطيع وسائل النقل الحيوانية ان تجتازها بيسر محطة للقوافل ، فيها غرف لاقامة رجال البـريد وأماكن لدوابهـم واصطبلات لتبادل الخيول والعناية بها وعلاجهـا ، ومطاعم تؤمن حاجـة القوافل من الطعام الجاهز ومؤنة الطريق والتزويد بالمياه اللازمة .

الشرطـــة

مفهوم الكلمـة :

جاء فى القاموس المحيط ، أن الشرطة هم طائفة من اتباع الوالى ، سموا بذلك لانهم علموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها .

نشأة الشرطة فى الاسلام :

يقال ان أول من شرط الشرطة فى الاسلام عمرو بن العاص عندما ولى امارة مصر . بينما يميل أكثر المؤرخين الى القول بأن معاوية هو أول من استعمل الشرطة(٣١) .

ولكن اذا اعتبرنا العسس (وهو تفقد أحوال الرعية ليلا وتتبـع

---

(٣١) أنور الرفاعى : الاسلام فى حضارته ونظمه ، ص ١٤٨ .

اللصوص وطلب اهل الفساد ومن يخشى شرهم) اساسا للشرطة ، فان تأسيس الشرطة يرجع الى عهد أبى بكر وعمر .

فقد ذكر بعض المؤرخين ان عبد الله بن مسعود كان اميرا على العسس فى عهد ابى بكر ، وان عمرا تولى بنفسه العسس وكان يصطحب معه عبد الرحمن بن عوف .

ثم لما تكاثر المفسدون وظهر امرهم فى وضح النهار انشأ الخلفاء الشرطة لحفظ الأمن والسهر على النظام .

والشرطة فى الأصل تابعة للقضاء ، لأن المراد بها تنفيذ احكام القضاة او فرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم واقامة التحذير والتأديب فى حق من لم ينته عن الجريمة ، ومساعدة القاضى فى اثبات الذنب على مرتكبه واقامة الحدود .

ثم تنزيها للقضاء ما لبث أن استقلت وانفصلت عنه ، واصبح لصاحب الشرطة حق النظر فى الجرائم بعد ان كان عمله محصورا فى منع الفتن والجرائم والقبض على القائمين بها .

تطور الشرطة وسلطة صاحبها :

كانت الشرطة فى العهد الأموى آلة تنفيذ فقط لا يقوم صاحبها بعمل الا بأمر الخليفة أو الأمير ، ولكن فى العهد العباسى ازدادت سلطته وخاصة بعد انفصال الشرطة عن القضاء ، وأصبح له حق النظر فى الجرائم وايقاع العقوبات .

وكانت مرتبة رئيس الشرطة ببغداد تعادل مرتبة الوالى . وكانت ولاية الشرطة لـلأكابر من رجالات الدولة حتى كانت ترشحها للوزارة والحجابة(٣٢) .

---

(٣٢) مقدمة ابن خلدون ، ص ٢١٦ .

واجبـــات الشرطـــة :

١ — حفظ النظام ٢ — حفظ الأمن ٣ — مراقبة الحانات والمقاهى وأماكن الشراب واللعب ٤ — تنفيذ اوامر السلطان ٥ — تنفيذ احـــكام القضاة ٦ — مساعدة عمال الخراج ٧ — ادارة السجون .

وقد ظهرت السجون فى عهد عمر بن الخطاب ، ولكنها نظمت فى عهد عمر بن عبد العزيز ، الذى أوجد لها ديوانا يشرف عليها وامر باعطـــاء المسجونين رزق الشـــتاء والصيف وكسوة الشـــتاء والصيف ، والعنـــاية بمرضاهم ، وأن لا يقيد احد فى المحابس بقيد يمنعه عن اداء الصـــلاة ، والفصل بين فئات المسجونين على حسب نوع جريمتهم . وجعل للنســـاء حبســـا عـــلى حـــدة .

وكان والى الشرطة يقدم صباح كل يوم تقريرا الى السلطان يطلعـــه فيه على كل ما يحدث من قتل أو حريق او جرائم .

تعيين صاحب الشرطة والشروط التى يجب ان تتوفر فيه :

كان الخليفة يعين صاحب الشرطة فى عاصمة الدولة . أما فى الاقاليم فكان كل أمير يولى صاحب شرطة ، وكانوا يتخيرون لهذا المنصب كبار القواد وعظمـــاء الخاصـــة .

ويجب أن يكون صاحب الشرطة : حليما مهيبا ، دائم الصمت ، طويل الفكر بعيد الغور ، غليظا على أهل الريب ، شديد الغلظة فى تصاريف الحيل طاهر النزاهة ، قليل التبسم ، غير ملتفت الى الشفاعات(٣٣) وكان عليه

---

(٣٣) روى عن الحجاج بن يوسف الثقفى انه ولى شرطته لعبد الرحمن ابن عبيد التميمى الذى قال عنه الشعبى ، « والله ما رايت قط صـــاحب شرطة مثله ، كان لا يحبس الا فى دين ، وكان اذا اتى برجل نباش (قبور) حفر له قبرا ودفنه حيا ، واذا اتى برجل قاتل بحديدة او اظهر سلاحا قطـــع يده ، فربما اقام اربعين يوما لا يؤتى اليه بأحد ، فضم اليه الحجاج شرطة البصرة مع شرطة الكوفة » (ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ، ج ٣ ، القاهرة ١٣٢١ هـ ص ٨) .

ان يأمر اصحابه بملازمة المحابيس وتفتيش الأطعمة وما يدخل الى السجون وعليه عمارة سور المدينة وابوابها والحفاظ عليها .

وكانت الشرطة فى مصر من اهم وظائف الدولة ، وكان صاحبها من عظماء الرجال . وكان ينوب عن الوالى فى الصلاة وفى توزيع الأعطيات .

وكان رجال الشرطة يحملون معهم سلاحا هو عبارة عن سكين طويلة تحمل معلقة فى أوساطهم .

النظــــام القضــــائى

القضــــاء فى الاســــلام

هو الفصل بين الناس فى الخصومات حسما للاعتداء وقطعا للنـــزاع وتنفيذا للاحكام الشرعية المستقاة من الكتاب والسنة .

والقضاء مرتبط بالعدالة ، فان صلح شاعت العدالة وترعرت وأمن الناس على ارواحهم واموالهم واعراضهم ، فصلح امر الدولة والناس ، وان فسد اختفت العدالة وعمت الفوضى وانتشر الفساد .

ولقد أوجد الاسلام نظام القضاء مزودا بكل اسباب العدالة حرصا منه على رفاهية المجتمع وأمن الانسان وسعادته .

وكان القول الشريف « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » الركيزة الأولى لمنطلق الأحكام الصادرة عن القاضى .

ولقد احتكم المسلمون الى الرسول واعتبروا حكمه ملزما حين نزلت الآية الكريمة « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »(٣٤) .

ولذلك يعتبر النبى اول قاض فى الاسلام ، وكان يستمد احكامه من

---

(٣٤) النساء : ٦٥ .

قوله سبحانه وتعالى « فاحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق »(٣٥) .

وكان الرسول يستشير اصحابه ويجتهد فى بعض الاحكام وكانت طرق الاثبات عنده :البينة واليمين وشهادة الشهود(٣٦) .

ولقد ولى الرسول (ص)عليا بن أبى طالب قضاء اليمن ولم يختبره لعلمه بفضله ، ولكنه وصاه بقوله : « اذا حضر خصمان بين يديك فلا تقض لاحدهما حتى تسمع كلام الآخر » .

ولقد سمح الرسول (ص) لصفوة الصحابة الذين فهموا الاسلام روحا وعقيدة وتطبيقا بالقضاء بين الناس ، مستمدين الأحكام من الكتاب والسنة والاجتهاد . كما اذن لهم (ص) بالفتيا .

ولقد نبغ من الصحابة فى هذا الشأن : عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب والسيدة عائشة وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وعبد الله ابن العباس .

والخليفة عمر هو أول من طبق النظام القضائى على نطاق العالم الاسلامى ، فعين قضاة ينوبون عن الخليفة فى الفصل بين الناس وفض مشاكلهم .

ويوسع عمر دائرة القضاء على رقعة الدولة الإسلامية التى اتسعت فى أيامه . فولى ابا الدرداء قضاء المدينة وشريح بن الحارث الكندى قضاء الكوفة وابا موسى الأشعرى قضاء البصرة وعثمان بن قيس بن أبى العاص قضاء مصر .

---

(٣٥) المائدة : ٤٨ .

(٣٦) ذكر ابن خلدون (المقدمة ، ص ١٩٠) أن القضاء من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لأنه ينصب الفصل بين الناس فى الخصومات ، فكان لذلك من وظائف الخلافة ، وكان الخلفاء فى صدر الاسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يحيلون القضاء الى من سواهم .

ويمتاز عهد عمر فى القضاء بذلك الكتاب المشهور الذى أرسله الى ابى موسى الأشعرى ، والذى يعتبر بمثابة لائحة داخلية يعمل بها القضاة ، وقد بين فيه كثيرا من نظام القضاء واصوله ، والذى يعتبر بمثابة دستور القضاء فى الاسلام يسير على هدية القضاة . يقول فيه : (٣٧) .

« بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى عبد الله بن قيس » (ابى موسى الأشعرى) .

سلام عليك ، أما بعد :

فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا أولى اليك فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . آس بين الناس بوجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من انكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا احل حراما او حرم حلالا . لا يمنعنك قضاء قضيته اليوم فراجعت عقلك وهديت فيه لرشدك ان ترجع الى الحق . فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة . ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك واعمد الى اقربها الى الله واشبهها بالحق . واجعل لمن ادعى حقا غائبا او بينة امدا ينتهى اليه فان احضر بينته اخذت له بحقه والا استحللت عليه القضية فانه انفى للشك واجلى للعمى . المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلودا فى حد ومجربا عليه شهادة زور او ظنينا فى ولاء او نسب فان الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والايمان . واياك والقلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات فان الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر . فمن صحت نيته واقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ومن تخلق للناس بما يعلم الله انه ليس من نفسه شانه الله فما ظنك بثواب غير الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام(٣٨) .

---

(٣٧) المبرد : الكامل ، ج ١ ، طبعة القاهرة ١٣٤٧ هـ ، ص ١١ ، ١٢ .

(٣٨) ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٩١ .

والحق أن رسالة عمر هذه دستور يشمل سلوك القاضى واحتفـاءه بالمتقاضين فضلا عن وضعه اللبنات الأولى لمبدا المرافعات مع التركيز الشديد على ضمان الحكم العادل منه ولو ادى الأمر بالقاضى الى أن يعيد النظر فى حكم اصدره ويعدل عنه اذا ما تبين خطأه .

وبتأكيد عمر على اهمية القضاء وعلاقته بكيان الدولة بدات مقوماته تعمق جذورها مستمدة اصولها من احكام الشرع ، فكان على القاضى أن يلتزم بهذه الأحكام وأن يكون على وعى كامل بها وهى — حسب ما ذكر الماوردى(٣٩) — أربعـــة :

١ — علم القاضى بكتاب الله على الوجه الأكمل الذى تصح به معرفة ما تضمنه من الأحكام ناسخا ومنسوخا عموما وخصوصا ومجملا ومفسرا .

٢ — علمه بسنة رسول (ص) الثابتة من أقواله وافعاله .

٣ — علمه بتأويل السلف فيما اجتمعوا عليه واختلفوا فيه ليتبــع الاجماع ويجتهد برايه فى الخــلاف .

٤ — علمه بالقياس لرد الفروع الى الأصول المجمع عليها .

واشترط الفقهاء فى القاضى أن يكون :

رجلا بالغا واختلفوا فى جواز أن تقضى المرأة (أبو حنيفــة والطبرى اجازوا) ، صحيح التمييز ، جيد الفطنة ، بعيدا عن السهو والغفلة ذكى حرا لا عبدا ، مسلما (مذهب ابو حنيفة الى جواز تقليد غير المسلم القضاء من اهل دينه) ، عادلا ، سليم السمع والبصر ، عالما بالأحكام الشرعية .

وكان عمر يستشير الصحابة وخاصة الامام على ، وكذلك فعل على حيث استشار الصحابة .

وكان القضاء فى عهد الراشدين مستقلا محترم الجانب ولم يــكن للقاضى كاتب أو سجل تدون فيه الأحكام لأنها كانت تنفذ على الفور . وكان القاضى يجلس فى منزله ثم أصبح يجلس فى المسجد .

(٣٩) اورد الماوردى ذلك فى كتابه « الأحكام السلطانية » .

القضاء زمن الأمويين :

كان القضاة مستقلين ، ولم يتأثر القضاء بالسياسة فى عهدهم ولم يكن القضاة متأثرين بميول الحكام ، وكانوا مطلقى التصرف وكلمتهم نافذة حتى على الولاة وعمال الخراج .

وفى العصر الأموى لم تكن المذاهب الأربعة قد تكونت بعد ، وانما كان هناك ائمة كثيرون مجتهدون فى التشريع كالأوزاعى وغيره ، وكان القاضى يحكم بما يوحيه اليه اجتهاده .

وكان اختيار القضاة يرجع غالبا الى أمراء الأمصار واحيانا كان الخلفاء يولون القضاة .

وجعل فى عهد الأمويين للقاضى راتب كافى يكفيه ويمنعه عن الرشوة .

وفى عهد الأمويين بدىء بتسجيل الأحكام للحفاظ حقوق الناس .

القضاء فى العصر العباسى :

حصلت تطورات هامة فى القضاء زمن العباسيين منها :

١ — اتساع سلطة القاضى واعماله ، اذ عليه الفصل فى الدعاوى والأوقاف والنفقات ، واضيف اليه احيانا الشرطة والمظالم والحسبة ودار الضرب وبيت المال .

٢ — نشوء المذاهب الأربعة : مذهب الامام ابى حنيفة (امام اهل الراى والقياس) ، ومذهب الامام مالك امام اهل الحديث ، ومذهب الامام الشافعى الوسط ، ومذهب الامام احمد بن حنبل ، الذى يتفق مع مذهب الامام مالك من حيث اعتماده على الحديث .

واصبح القاضى ملزما بأن يصدر حكمه وفق احد هذه المذاهب .

٣ — وجود منصب قاضى القضاة ، وهو بمثابة وزير العدل اليوم : يولى القضاة من قبله على الاقاليم ، ويقيم فى عاصمة الدولة . واول من لقب بهذا اللقب القاضى ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم صاحب كتاب الخراج وذلك فى عهد الرشيد .

٤ — تدخل السياسة فى القضاء ، اذ عمل الخلفاء على حمل القضاة على السير وفق رغباتهم فى الحكم ، واستصدر بعض خلفاء العباسيين بعض الفتاوى من القضاة بنقضهم لعهودهم التى كانوا قد أعطوها لزعماء ولقوادهم، وقاموابقتلهم مثلما فعل : السفاح مع ابن هبيرة ، والمنصور مع محمد بن عبد الله (النفس الزكية) ، والرشيد مع يحيى بن عبد الله . حتى امتنع كثير من الفقهاء عن تولى القضاء كما فعل أبو حنيفة لما كلفه المنصور(٤٠) بسبب خطورة مركز القاضى . ولقد رفض الامام أبو حنيفة تولى القضاء رغم الحاح ابى جعفر المنصور عليه .

فقال له أبو جعفر : « اترغب عما نحن فيه » ؟

قال : « أصلح الله امير المؤمنين لا اصلح للقضاء » .

قال المنصور : « كذبت » ، والح عليه فى ذلك .

فأجاب ابو حنيفة بفطنته المعروفة : « قد حكم على امير المؤمنين انى لا اصلح لأنه نسبنى الى الكذب فان كنت كاذبا لا اصلح وان كنت صادقا فقد اخبرت امير المؤمنين انى لا اصلح » .

ويقول الربيع بن يونس (والد الفضل بن الربيع حاجب الرشيد) :

رأيت امير المؤمنين المنصور ينازل ابا حنيفة فى امر القضاء فكان ابو حنيفة يقول :

« اتق الله ولا ترع أمانتك الا من يخاف الله ، والله ما انا بمأمون الرضا فكيف اكون مأمون الغضب ؟ ولو هددتنى ان تغرقنى فى الفرات ان ان اتولى الحكم لاخترت ان اغرق ولك حاشية يحتاجون الى من يكرمهم لك فلا اصلح لذلك .

---

(٤٠) ممن أحجم عن تولى القضاء من العلماء : الليث بن المظفر بن نصر بن سيار وكان من الفقهاء والزهاد ، جهد به المأمون ان يوليه القضاء فلم يفعل (ابن النديم : الفهرست ، طبعة بيروت ١٩٦٤ ، ص ٤٣) .

فقال له : « كذبت : انت تصلح » ، فقال : « قد حكمت لى على نفسك ، كيف يحل لك ان تولى قاضيا على امانتك وهو كذاب » ؟ .

وقد تواترت الاخبار عن اذى كثيرا لحق بأبى حنيفة من جراء رفضه ولاية القضاء فى الرصافة .

وقد قيل ان ابا حاتم الرازى اعتذر سنة ٢٧٠ هـ عن تولى منصب قاضى القضاة . كذلك اعتذر عن تولى القضاة عبد الله محمد بن شجاع الشهير بابن الثلجى (ت ٢٥٦ هـ)(٤١) .

واعتذر أيضا عن تولى القضاء للخليفة المأمون الفقيه الزاهد الليث بن المظفر بن نصر بن سيار .

القضاء واهل الذمة :

لم يكن الذميون مجبرين على العمل بأحكام الشريعة الاسلامية ، بل كانت لهم الحرية فى اتباع احكام دينهم فى كل المسائل حتى فى الجنائية منها ، وهو ما يستفاد من قوله تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة »(٤٢) كذلك من قوله تعالى : « وليحكم اهل الانجيل بما انزل الله فيه »(٤٣) .

واعطى الاسلام الحرية للذمى فى ان يحتكم الى القضاء الاسلامى اذا لم يعجبه قضاء اهل ملته ، وذلك استجابة لقوله تعالى : « فان جاؤوك فاحكم بينهم او اعرض عنهم وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين . وتشير المصادر الى حوادث كثيرة كان الذميون فيها يتقاضون لدى القاضى المسلم الذى كان يفصل فى أمورهم سواء اكان الخصم مسلما او غير مسلم . وكان القاضى المسلم عادة عادة ما ينظر فى قضايا الذميين على عتبة المسجد .

---

(٤١) ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٠٦ .

(٤٢) المائدة : ٤٨ . — المائدة : ٤٢ .

(٤٣) المائدة : ٤٧ . مصطفى الشكعة : معالم الحضارة الاسلامية ، بيروت ٧٥ ، ص ٧٩ .

رواتب القضـــاة :

كان الخليفة عمر هو أول من رتب ارزاق القضاة ، فجعل للقــاضى سليمان بن ربيعـــة الباهلى مبلغ ٥٠٠ درهم فى الشهر . وكان متوســط راتب القاضى فى الدولة الاسلامية مائة دينار فى الشهر ، وهو راتب غير صغير بمقاييس أنماط الحياة فى الدولة الاسلامية .

ولم يكن للقاضى زى خاص قبل ظهور وظيفة قاضى القضاة التى تقلدها القاضى أبو يوسف ، الذى كان يتزيا بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة سوداء مع طيلسان اسود ، وكان الســواد شعار العباسيين وكان القضاة يركبـــون البغال المسومة المسروجة .

الحســـــبة

أصل الكلمة فى اللغة وعند الفقهاء :

اختلف الكتاب ورجال اللغة فى معنى كلمة المحتسب ، فبعضهم يقول انها مشتقة من قولهم : « حسبك » بمعنى « كف عن هذا » لان المحتسب يأمر الناس بالكف عن الغش وارتكاب المحظورات . والبعض الآخر يقــول ان المحتسب هو المنكر (بضم الميم وكسر الكاف) لأن معنى يحتسب عليـــه هو أن ينكر عليه . ويقول فريق آخر انها من الاحتساب عند الله اى جعل الحساب والأجر عند الله تعالى ، فيقال : « فعلت هذا حسبة لله » أو « احتسبته عند الله » .

أما الفقهاء فيتفقون على انها من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وذلك من قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »(٤٤) ، وذكر ذلك كل من الامام ابن تيمية والمــاوردى والشيزرى وابن بسام المحتسب(٤٥) . واتفق معهم العلامة ابن خلدون

(٤٤) آل عمران : ١٠٤ .

(٤٥) الماوردى : الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٢٩٨هـ ، ص ٢٢٨ ، الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٦ ، ابن بسام المحتسب : نهاية الرتبـــة فى طلب الحسبة ، بغـــداد ١٩٦٨ ، ص ١٠ .

على أنها « وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو فرض على القائم بأمور المسلمين »(٤٦) والحسبة من خلال هذا التفسير تنطلق من منطلق اسلامى يتمثل فى الآية الكريمة التى تقول : « المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »(٤٧) .

ولقد سمى القائم على الحسبة محتسبا ، كما سمى القائم على شئون القضاء قاضيا ، ووظيفة المحتسب تقع من حيث تقييمها بين وظيفة القاضى وصاحب المظالم(٤٨) .

ذاك ان وظيفة القاضى الحكم فى المنازعات حكما مستمدا من الشرع دائما ، أما وظيفة المحتسب فهى النظر فيما يتعلق بالناظم العام معتمدا على احكام الدين والعرف ، وغالبا ما تكون الأمور التى يفصل فيها تحتاج الى السرعة فى البت ، وأما وظيفة قاضى المظالم فهى البت فى الأحكام التى استعصى البت فيها على كل من القاضى والمحتسب .

ويقول ابن خلدون ان الحسبة خادمة لمنصب القضاء ، وقد كانت فى كثير من الدول الاسلامية (فى مصر والمغرب والأندلس) داخلة فى أعمال القاضى يولى لها باختياره من يقوم عليها(٤٩) .

وكانت الحسبة تجمع أحيانا لغير منصب القضاء ، فكانت تجمع لوكيل بيت المال او الى صاحب الشرطة فى بعض البلدان ، لكن تخفيفا لأعمال القاضى الكثيرة أفرد موظف قاضى للحسبة .

الشروط الواجب توافرها فى المحتسب :

حدد من كتبوا عن الحسبة(٥٠) شروطا ، ذكروا وجوب توافرها فى من يتولى امر هذه الوظيفة الدينية الاجتماعية الخطيرة هى :

---

(٤٦) ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٩٤ .
(٤٧) التوبة : ٧١ .
(٤٨) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ٢٢٨ .
(٤٩) ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٩٥ .
(٥٠) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٦ — ١٠ ، ابن بسام : نهاية الرتبة ، ص ١١ .

اولا : يجب على المحتسب ان يعمل بما يعلم والا يكون قوله مخالفا لفعله .

ثانيا : يجب على المحتسب أن يقصد قوله وفعله وجه الله تعالى وطلب مرضاته خالصا مخلصا النية لا يشوبه فى طوية رياء ولا مراء .

ثالثا : أن يكون مواظبا على سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قص الشارب ونتف الابط وتقليم الاظافر ونظافة الثياب وتطهيرها والتعطر بالمسك ونحوه وجميع سنن الشرع ومستحباته ، هذا مع القيام على الفرائض والواجبات .

رابعا : أن يكون من شيمته الرفق ولين القول وطلاقة الوجه وسهولة الأخلاق عند امره الناس ونهيه .

خامسا : أن يكون عفيفا عن اموال الناس متورعا عن قبول الهدية من المتعيشين وارباب الصناعات لانها رشوة .

أعمال المحتسب :

أعمال المحتسب كثيرة تشمل نواحى ادبية ودينية وعمرانية واخلاقية ، ولا نجد فى الوقت الحاضر موظفا حكوميا او دائرة رسمية لها سلطة شبيهة بسلطة المحتسب فهو يجمع بين وظائف رئيس البلدية ورئيس الشرطة الأخلاقية ووزير الشئون الاجتماعية الحالية . ويمكن ان نجمل اعمال المحتسب فى التالى :

١ — مراقبة التجار وارباب الحرف : اى مراقبة صاحب كل مهنة او حرفة يتكسب منها على اختلاف انواعها حتى ان الأطباء كانوا يخضعون للرقابة وكان يجبر الطبيب على دفع دية المريض الذى يموت بسبب سوء علاجه . وكان يضع شروطا قاسية على الحرف التى تتطلب النظافة وتتصل بالطعام والشراب . فمثلا نجده مع الخبازين يطالب تحرى نظافة اوعية الماء وتغطيتها ونظافة المعاجن وما يغطى به الخبز وما يفرش تحته . ونهى ان يعجن عجان بقدمه ولا بركبته ولا بمرافقه لئلا تنحدر اعراق ابدانهم فى العجين . وامر أن يكون العجان متلثما لئلا يبدر من بصاقه او مخاطه شيء

فى العجين اذا تكلم او عطس(٥١) كذلك يأمر العجـان بألا يعجن دون ان يرتدى ثوبا مقطوع الأكمام وان يشد جبينه بعصابة بيضاء لتمنع عرقه أن يقطر وان يحلق شعر ذراعه ، وان يكون عنده من يذش عنـه الذباب اذا عجن فى النهـار .

وعن نظافة السقائيين أمر المحتسب من يتولى السـقاية ان ينظف ازياره وان يصونها بالأغطية وان ينظف قربه وكيزانه ومنعهـم أن يسـقوا بكيزانهم المجزوم والأبرص وأصحاب العاهات والأمـراض الظـاهرة حتى لا ينقلوها للاصحاء(٥٢) . وتحدثت كتب الحسبة بصدد التشدد فى النظافة مع الجزارين والطباخين والحلوانيين وغيرهم .

٢ ــ مراقبة الأسعار والموازين : وعلى المحتسب منع التـلاعب فى الأسعار أو الغش فى الكيل والميزان او خاط السلع بما يشـوبها ومنـع الاحتـكار وتلـقى الركبـان (٥٣) .

٣ ــ مراقبة أبنية السوق وطرقاته : لا يجيـز المحتسب لأحـد من السوقة اخراج مصطبة دكان عن سمت أركان السقائف الى الممر الأصلى ويقوم المحتسب بازالة ذلك والمنع من فعله لما فى ذلك من الحاق الضرر بالناس(٥٤) .

كذلك يجعل المحتسب لكل ذى صـنعة سوقا يختص بهـم تعـرف به صناعتهم ، ومن كانت صناعته تحتاج الى وقود نار كالخباز او الحـداد فللمحتسب أن يبعد حوانيتهم عن البزازين والعطارين لعدم المجانسة بينهـم وحصـول الأضرار .

---

(٥١) ابن بسام « نهاية الرتبة » ، ص ٢١ ، ٢٢ .

(٥٢) ابن بسام : نفس المصدر السابق ، ص ٢٥ ، ٢٦ .
الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٢١ ــ ١٠٧ .

(٥٣) نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تلقى الركبان وهـو أن تقوم قافلة قاصدة السوق فيتلقاهم انسان خارج البلد فيخبرهم بكسـاد ما معهم ليبتاعه منهم رخيصا (الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ١٣) .

(٥٤) ابن بسام : نهاية الرتبة ، ص ١٧ .

ومن اعمال المحتسب ان يجعل على أهل كل صنعة عريفا من صالح اهلها خبيرا بصناعتهم بصيرا بغشوشهم وتدليسهم ، مشهورا بالثقة والأمانة، يكون مشرفا على أحوالهم ومطالعة اخبارهم وما جلب الى سوقهم من المتاجر والبضائع وما تستقر عليه الأسعار ، وغير ذلك من الأسباب التى يلزم المحتسب معرفتها لقوله صلى الله عليه وسلم : « استعينوا على كل صنعة بصالح من أهلها »(٥٥) .

٤ — مراقبة الأخلاق العامة : كمنع شرب الخمور ومنع تعرض الرجال للنساء فى السوق ، وعدم طرح الأقذار على جوانب الطريق وارسال الماء من المزاريب الى الطريق وترك مياه المطر والأوحال من غير كسح . كذلك من عمله منع احمال الحطب والتبن والرماد وما أشبه ذلك من الدخول الى الأسواق لما فيها من الضرر بلباس الناس لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار »(٥٦) .

٥ — مراقبة العبادات : اذ يأخذ المحتسب المسلمين لصلاة الجمعة والجماعات والأعياد ، ويمنعهم من الافطار فى رمضان ، وعنايته بنظافة الجوامع واظهار هيبة الاسلام .

٦ — أعمال انسانية : يراقب المحتسب حسن معاملة العبيد والاماء والرفق بالحيوان وعدم تسخيره فيما لا يطيق ، كذلك يرعى الأطفال اللقطاء ، ويمنع معلمى الصبيان من ضرب صبيانهم ضربا مبرحا ، كذلك يمنع الحمالين وأهل السفن من زيادة التحميل خوفا من غرق السفينة .

عقوبات المحتسب :

من عقوبات المحتسب : اتلاف البضائع الفاسدة ، واراقة الخمور وتحطيم أوانيها ، كذلك يقوم المحتسب بوقف التاجر الغشاش عن العمل والتشهير به حتى يتجنبه الناس . ومن طرق التشهير التى كان يتبعها المحتسب هو أن يركب المذنب على جمل او حمار بطريقة معاكسة ويطاف به

---

(٥٥) ابن بسام : نفس المصدر السابق ، ص ١٨ .

(٥٦) نفس المصدر السابق ، ص ١٩ .

فى الأسواق بعد أن يلبس لباس خاص يلفت انظار الناس وتعلق به الاجراس وتتبعه افواج الصبيان يزفونه وينعتونه بأحط الصفات . ومن عقــوبات المحتسب الضرب والحبس والتعنيف والتعزير ، وكان المحتسب يســتعين بطائفة من الموظفين يعرفون بالأعوان كانوا يقومون بتنفيذ العقــوبات على مستحقيهـــا .

تاريخ الحســبة :

هناك من يرجع نشأة الحسبة الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويروى عنه أنه كان اول محتسب ، ذاك لانه نهى عن الغش حــين قال : « من غشنا فليس منا » . ويروى عنه صلى الله عليه وسلم انه ولى سعيدا ابن العاص على أمر السوق بعد فتح مكة . كذلك روى صــاحب كتــاب الاستيعاب(٥٧) ان صحابية جليلة كانت على عهد رسول الله وتعرف باســم سمراء بنت نهيك الأسدية انها كانت تمر فى الأسواق وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتضرب الناس على ذلك بسوط كان معها .

والخليفة عمر بن الخطاب هو أول من باشر وظيفة الحســـبة من الخلفاء ، فكان يطوف بالشوارع والأسواق ودرته معه ، فمتى رأى غشــاشا ضربه بها واتلف بضاعته . ويروى عنه الفقهاء انه اتلف لبنا شابه شىء من الغش وهو معد للبيع . كذلك ورد فى الخبــر أنه ضرب جمــالا وقال له : « حملت جملك مالا يطيق » .

ربما لا شك فيه ان الخلفاء والأمراء كانوا يقومون بعمل المحتسب من مراقبة التجار وأرباب الحرف بمنع الغش فى المكيال والميزان وغير ذلك .

ولقد اجمع المؤرخون على ان الحسبة اعتمــدت فى العصر العباسى كوظيفة حكومية رسمية ، ولكنهم اختلفوا فى تحديد الخليفة الذى اعتمدت فى عهده ، فبعضهم يقول انه الرشيد ، والبعض الآخر يرجعهــا الى ايام الهادى أو المأمون . وآخرون يرجعونها الى عهد المهدى . ولكن من المرجح

---

(٥٧) ابن عبد البر (أبو عمر يوسف) : **الاســـتيعاب فى معــرفة الأصحاب** ، ج ٤ ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٨٦٣ .

أن وظيفة الحسبة كوظيفة رسمية كانت معروفة زمن المنصور ، اذ جاء فى تاريخ الطبرى ، عند ذكره لأحداث سنة ١٤٦ هـ ، ان رجلا كان يقال لـه ابو زكريا قد ولاه المنصور حسبة بغداد والاسواق(٥٨) ، وهو ابو زكريا يحيى بن عبد الله .

ان نظام الحسبة فى الاسلام هو قمة ما يمكن أن يفكر فيه الحـاكم النزيه من اساليب راحة الناس وتوفيرا منهم والحفاظ على ما يحقق سعادتهم وتجنيبهم كل ما يسبب لهم الضرر والقلق والضيق(٥٩) ولا نكاد نجـد فى التاريخ الحديث أو المعاصر ، فى اى دولة من الدول ، حكما يستعمل فيه هذا الأسلوب فى نطاق وظيفة مثل وظيفة الحسبة ، تلك الوظيفة الجليلة التى أفرزها الاسلام وتناساها المسلمون .

٤ — النظـــام المــالى

بيت المال : حدد الاسلام بعض موارد دخل الدولة الاسلامية ، وكانت هذه الموارد تجمع فى مكان يعرف بيت المال ، وهو اشبه بخـزانة الدولة العامة أو وزارة المالية فى العصر الحاضر . والخليفة عمر بن الخطاب هو اول من انشأ بيت المال اذ كان الرسول وابو بكر من بعده يوزعان الموارد فى حينها ، فلما تدفقت الأموال فى عهد عمر بسبب اتساع الدولة وزاد عـدد المستحقين لهذه الأموال امر عمر باتخاذ بيت المال العام ، وجعل لكل ولاية أمينا لبيت المال مستقل فى عمله عن عمل الوالى والقاضى . وكان بيت المال فى عهد الراشدين يعتبر ملكا المسلمين عامة ، لكل منهم نصيب فيه وينال كل موظف أو محارب قدرا معينا كل شهر . لكن الأمويين ومن بعدهم العباسيين اعتبروه ملكا خاصا لهم يتصرفون فيه كيف شاءوا .

وتمثلت أهم موارد بيت المال فى : الخـراج ، الجـزية ، والزكاة ، الفىء ، والغنيمة .

---

(٥٨) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٩ ، ص ٢٦٢ .

(59) Claude Cahen : Economy, Society, Institutions (The Cambridge History of Islam), Cambridge 1970, P. 529.

١ — الخــراج :

وهو اقدم انواع الضرائب لارتباطه بالأرض ، عرفتــه الشــعوب المختلفة واقرته الدولة الاسلامية على وضع يتفق مع تعاليم الاســلام .

والخراج فى الاسلام ، هو مقدار من المال او الحاصلات يفــرض على نوعين من أنواع الأراضى وهى :

أ — الأراضى التى فتحها المسلمون عنوة (اى حربا) اذا عدل الخليفة عن تقسيمها كغنيمة على المحاربين بعد ان يعوضهم عن نصــيبهم فيها . ويبقى على هذه الأرض أهلها يفلحونها على ان يدفعوا خراجها وينتفعــوا بالبـــاقى .

ب — الأراضى التى يستولى عليها المسلمون صلحا ويتصالح اهلها على اداء خراجها على أن تبقى فى ايديهم يتوارثونها وليس لأحد ان يأخذها منهم وأرض الخراج تظل ارض خراج ولا يسقط الخــراج عنها حتى ولو اســلم اهلهــا(٦٠) .

وكان الخراج يؤخذ اما مالا مقدرا او غلة كما صنع الخليفة عمــر فى أرض السواد بعد فتحها . وقد بلغ خراج الأرض على الفدان المنزرع قمحا فى هذه الأرض فى عهده سنويا ١٤ درهما على اعتبار ان متوسط جبــاية الجريب ٥٩ر٣ درهما والفدان يساوى ٥٥ر٣ جريبا .

وأما حصة من الأرض وهو ما يسمى بالمعاملة او المزارعة كما عامل الرسول الله أهل خيبر على نصف ما يخرج من الأرض قليلا كان ام كثيرا .

وكان الخراج يجبى بعد المحصول ، وكانت السنة المالية للخراج هى السنة الشمسية وليست السنة القمرية لارتباط الزراعة بالنظام الشمسى والفصول . واعتبر بدء هذه السنة فى العراق وبلاد فارس وغيرها هو اول

---

(٦٠) من اهم الكتب التى وضعت لدراسة الخراج فى الدولة الاسلامية كتاب : الخراج لأبى يوسف قاضى قضاة الرشيد ، وكتاب الخراج لقدامة بن جعفــر .

يوم من السنة عند الساسانيين من شهر (فروردين ماه) وهو يوم النيروز . لكن مجيء هذا اليوم كان لا ينطبق مجيئه مع السنة الشمسية فاجريت عليه تعديلات كان انهها ما جرى فى عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥ — ٣١٠ هـ) .

٢ — الأراضى التى لا يفرض عليها خراج ويؤخذ منها العشر وتعـرف بالأرض العشرية :

وهى الأراضى المعروفة بالأراضى العشرية بسبب دفع اصحابها عشر غلاتها زكاة عنها وهى :

أ — الأرض التى اسلم اهلها وهم عليها دون حرب ولم تؤخذ عنوة .

ب — الأرض التى جلا عنها اصحابها ، او كل ارض لم يعرف لهـا صاحب ووزعت على المسلمين الفاتحين .

جـ — الأرض الموات التى احياها المسلمون وملكوها عنـوة ، وهى الأرض البـور .

ويقول القاضى ابو يوسف ان الأراضى التى يقطعها الخليفة لاحد ، فان كانت فى ارض خراج دفعت خراجا وان كانت فى ارض عشر دفعت عشرا ولا يمكن للخليفة تحويل الخراج الى عشر(٦١) .

ولم يكن الخراج ثابتا ولكنه كان حسب انتاج الأرض .

ولقد اشرف الخلفاء بأنفسهم على جباية الخراج وحاسبوا عمال الخراج حسابا عسـيرا .

وكانوا يدفعون من الخراج ارزاق الجند واحتياجات الدولة ويرسـل الباقى لبيت المال فيصرفه الخليفة فيما خصص له .

وكان فى كل ولاية ديوان لجمع الخـراج يتبـع الديوان الرئيسى فى بغـداد .

---

(٦١) ابو يوسف : كتاب الخراج ، طبعة بيروت ١٩٧٩، ص ٥٩ ، ٦٠.

٣ — الـــــزكاة :

الزكاة ضريبة فرضها الله على المسلمين ، وهى احد اركان الاســـلام الخمسة ، وكانت الدولة تتولى جمعها وانفاقها فى عهد الراشدين .

والزكاة هى الصدقة التى تطهر المال من تبعة الحق الذى جعله الله فيها للمساكين ويبعد عن صاحبه نظرة الحقد والحسد من الفقـــراء . قال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها »(٦٢) .

مصادر الزكـــاة أربعـــة :

أ — زكـــاة النقـــد :

يدفع عن النقد زكاة اذا حال عليه الحول وبلغ النصاب ٢٠٠ درهـــم فضة او ٢٠ مثقال ذهب (حوالى ١٠٠ دينار) بنسبة ٥ر٢٪ (ربع العشر) وتتماثل هذه الزكاة مع زكاة التجارة (زكاة عروض التجارة) .

ب — زكـــاة الســـوائم :

(المواشى) ، الابل والغنم والبقر ولا زكاة فى الخيل والبغال والحمير الا اذا كانت للتجارة ففيها زكاة التجارة .

الابـــل والغنـــــم :

واحدة من ٤٠ — ١٠٠ وبعد ذلك عن كل ١٠٠ واحدة .

البقـــر والجـــاموس :

من كل ٣٠ تبيع او تبيعة (لم يوف العام) تؤخذ تبيعة .

ومن كل ٤٠ مسن (ماوفى سنتين) مسنة أو مسن .

جـ — زكـــاة الـــزرع والثمـــار :

لا يدفع عنهما زكاة الا اذا بلغا حدا معنا . وحكم زكاتهما العشر اذا كانت الأرض تسقى بالمطر او السيح او الماء الجارية ، ونصف العشر اذا كانت تسقى بالدلاء او بواسطة اخرى مكلفة .

---

(٦٢) التوبة : ١٠٣ .

د — زكاة المعــادن :

(الركاز) : اى المعادن والكنوز ويؤخذ عنها الخمس . لكن الاحجار الكريمة لا يؤخذ منها زكاة ولا خمس عليها .

مصرف الزكــاة :

للذين ورد ذكرهم فى سورة التوبة وهم ٨ اصناف من الناس لقــوله تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم »(٦٣) .

٤ — الجــــزية :

ليست من محدثات الاسلام : لقد وضعها اليونان على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالى القرن الخامس ق.م مقابل حمايتهم من هجمـــات الفينيقيين . ووضعها الرومان على الأمم التى اخضعوها وعرفت عندهم باسم ضريبة الراس ، وكان مقدارها كبير . كما كان الفرس يأخذون الجــزية من رعاياهم وعرفت عندهم باسم Gezit (جيزيت) ، وربما دخلت للعربية وعربت الى جزية .

والجزية فى الاسلام مبلغ يدفعه اهل الذمة مقابل حماية المســلمين لهم ، وهى تقابل الزكاة على المسلمين حتى يتســاوى الفريقان فى دفــع الضرائب . وتسقط الجزية عن الذميين اذا اسلموا بخلاف الخراج . وهى مفروضة على الذكور القادرين على دفعها فلا تؤخذ من النساء او الصبيان او الشيوخ او المقعدين او العميان او الرهبان .

قال تعالى فى سورة التوبة : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »(٦٤) .

---

(٦٣) التوبة : ٦٠ .

(٦٤) التــوبة : ٢٩ .

وتراوحت قيمة الجزية بين ٤ دنانير للاغنياء ودينارين للمتوسط الحال ودينار واحد للفقير ، واشترط استخدام الرفق فى تحصيلها واعفاء غير القادر من دفعهـــا .

وتؤخذ الجزية من اهل الكتاب : اليهود والمسيحيين واضـــيف اليهـــم المجوس(٦٥) لما ورد عن اخذ رسول الله الجزية من مجوس هجر .

قال الامام على « ان رسول الله (ص) وابا بكر وعمر اخـــذوا الجزية من المجوس وانا اعلم الناس بهم ، كانوا اهل كتاب يقراونه وعلم يدرسونه فنزع من صدورهم(٦٦) . واقد اخذ الرسول الخراج منهم لأجل كتابهم وحرم مناكحتهم وذبائحهم لشركهم . ولما ورد ذكر المجوس الخليفة عمر عند فتـــح السواد ، قال عمر : « ما ادرى ما اصنع بهؤلاء » ؟ فقال عبد الرحمن بن عوف فقال : « اشهد على رسول الله (ص) انه قال : سنوا بهم سنة اهل الكتـــاب (٦٧) .

٥ — الفىء :

هو ما افاء الله به على المسلمين دون قتال : ويدخل فيـــه ما صـــولح عليه المسلمون من جزية وخراج ، ويقسم خمسة أسهم متساوية(٦٨) .

١ — سهم للرسول ينفق منه على نفسه وازواجه وفى صالح المسلمين وقد سقط هذا السهم بوفاة الرسول ، اسقطه ابو بكر .

٢ — سهم لذوى القربى ويراد بهم قربى الرسول واختلف فيهم فقيل انهم قريش كلها وقيل بنو هاشم وبنو عبد المطلب وقيل بنو هاشم فقط .

٣ — سهم لليتـــامى من ذوى الحاجات .

٤ — ســـهم للمســـاكين .

---

(٦٥) وهم سكان فارس من الزرادشتيين .

(٦٦) ابو يوسف : كتاب الخراج ، ص ١٢٩ .

(٦٧) نفس المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

(٦٨) ابو الحسن على بن محمد : الأحكام السلطانية ، ص ١٢١ .

٥ — سهم لأبناء السبيل . وقال الرسول « مالى مما أفاء الله عليكم الا الخمس والخمس مردود عليكم » ويجىء هذا التقسيم للفىء حسب الآية الكريمة : « ما أفاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل »(٦٩) .

وصار التقسيم كذلك حتى دون عمـــر الدواوين وعين ارزاق الجنـــد فأصبح الفىء (الخراج) يوضع فى بيت المال ويصرف منه على الأعمـــال والأشغال العامة للدولة كالاعطيات والأرزاق وشـــحن الثغـــور وتزويـــد الجيـــــوش(٧٠) .

٦ — الغنيمـــــة :

هى ما يغنمه المسلمون فى الحرب من الأعداء بالقتال ويأخذونه عنوة وهى على اربعة اقســـام .

اسرى ، سبى ، اراضى ، واموال .

فالأسرى :

هم الرجال المقاتلون الذين يقعون فى الأسر . واختلف فى حكمهم ، منها قبول الفدية عنهم او قتلهم او ان يمن الخليفة بالاطلاق ، وذلك وفقـــا لما نص عليه التشريع الاسلامى بعد غزوة بدر . بقوله تعالى : « ما كان لنبى ان يكون له اسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم عـــذاب عظيم فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله ان الله غفور رحيم » (٧١) .

أما الأرض :

فقد عرفنا حكمها من الخراج فأرض الغنيمة هى ارض الخراج .

---

(٦٩) الحشر : ٧ .

(٧٠) ابو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ٧٢ .

(٧١) الأنفـــال : ٦ .

اما الأمــوال :

فاربعة اخماسها للمقاتلين والخمس لمستحقى الفىء .

وذلك حسبما جاء فى القرآن الكريم لقولى تعالى :

« واعلموا انما غنمتم من شىء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل(٧٢) » . وكان نصيب الفارس ســهمان والراجل سهم فى بدر وفى حنين للفارس ثلاثة اسهم والراجل سهم(٧٣) .

اما الســبى :

وهم النساء والأطفال الأسرى لا يجوز قتلهم ان كانوا اهل كتاب وانما يقسمون فى جملة الغنائم ، اما اذا كانوا من غير اهل الكتاب وامتنعــوا عن دخول الاسلام . فانهم اما يقتلوا أو يسترقوا ولا يفرق فيمن اســترق بين والدة وولدها ، ويجوز قبول الفــدية عنهــم وممــكن تبادلهــم مــع أسرى المسلمين . وكان للنبى صفى من كل غنيمة يصطفيه اما فرس او سيف أو جارية ، وكانت الصفية يوم خيبر صفية بنت حيى بن اخطب اليهــودية من غنائم خيبر وكانت فى سهم الرسول وتزوجها واسلمت وصارت من امهــات المؤمنين . وكان الصفى يوم بدر سيفا هو سيف عاصم بن منبه .

الواردات الأخرى ايام الأمويين والعباسيين :

المكوس (ضرائب الجمرك) وهى ضريبة على كل تجارة داخلة بــلاد الاسلام برا او بحرا ، وتؤخذ من التاجر عند انتقاله من بلاد الى بلاد اخرى ، وقد اختلف تحــديدها .

اعشار السفن :

ضريبة على السفن التى تمر بالثغور الاسلامية فيؤخذ منها العشر عينا مرة واحدة فى العام .

---

(٧٢) الأنفــال : ٤١ .

ابو يوسف : كتاب الخراج ص ١٨ ، ١٩ .

(٧٣) ابو الحسن على بن محمد : الأحكام السلطانية ، ص ١٢٨ .

فيما يخرج من البحر :

من حلية وعنبر عليه الخمس اما غيرهما فلا شىء عليه فيكون بمنــزلة السـمك .

الأموال التى ليس لها مستحق :

(المواريث) تلك التى يموت عنها صاحبها وليس له وارث . فتؤول الى بيت المـال .

نفقـات الدولة :

كانت مصارف بيت المال عديدة منها : « ديوان العطاء » وكان يتولى دفع اعطيات المسلمين (ما فعله عمر) اذ قام عمر باحصاء شـامل لجميـع المسلمين وقام بترتيبهم وتخصيص عطاء لهم فبدأ ببنى هاشم رهط النبى ثم من شهد بدرا من بنى هاشم وغيرهم من عرب وموالى ثم أقرب المسلمين اليهم . واتبع عمر هذه السياسة فى دواوين الأمصار(٧٤) .

— دفع أرزاق الجند واعطياتهم .

— دفع أرزاق الولاة والعمال وصاحب بيت المال والقضاة .

— صيانة مرافق الدولة وانجاز المشروعات كحفر المصـارف واقامة الجسـور .

— تسليح الجيش وشراء المعدات الحربية وتجهيز الأسطول .

— النفقة على السجون والمؤسسات الاجتماعية .

— تكاليف قصر الخليفة .

— اجراء الأرزاق على الفقراء .

أورد هلال الصابى احصائية طويلة عن النفقات اليوميـة للـدولة العباسية فى أوائل عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩) يفهم منها ان بلغت نحو ٧ آلاف دينار وفى السنة اكثر من ٢½ مليون دينار ، وكان مجموع ايرادات الدولة ٥ مليون دينار .

---

(٧٤) أبو يوسف : كتاب الخراج ، ص ٤٣ .

وتأتى هذه الميزانية أقل بكثير مما كانت عليه ايام الرشيد ، حيث بلغت الايرادات فى عهده ٤٢ مليون دينار ، اما النفقات فكانت نفقة الخليفة وبلاطه لوحده فى العام اكثر من ٢ مليون دينار .

وهذه الأرقام كان لها وزنها فى ذلك العهد الذى تميز برخص الاسعار يقول الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد(٧٥) .

انه سمع من يقول « رأيت فى زمن ابى جعفر المنصور كبشا بدرهم وجملا بأربعة دوانيق (الدانق سدس درهم) والتمر ٦٠ رطلا بدرهم والزيت ستة عشر رطلا بدرهم والسمن ثمانية ارطال بدرهم ، وكان ينادى على لحم البقر ٩٠ رطلا بدرهم ولحم الغنم ٦٠ رطلا بدرهم » .

العملة العربية الاسلامية

عرف العرب فى الجاهلية انواعا كثيرة من العملة النقدية وكانت العمله الذهبية والفضية ترد اليهم من الممالك الأخرى ، فعرفوا الدراهم الفارسية وعرفوا الدنانير الرومية والدنانير من الذهب . والدينار لفظ لاتينى الأصل مشتق من Deni (٧٦) اى عشرة ومن كلمة ديناريوس اليونانية وقيمته حوالى ١٢ درهم فضة نقية . والدرهم كلمة فارسية وهى من الفضة وتعرف الدراهم النقية منها بالدرهم النقرة .

كما عرف العرب نقودا نحاسية منها الحبة والدانق (الدونق) .

ولقد اقر الرسول وابو بكر النقود الجاهلية ولكن عمر بن الخطاب لاحظ اختلاف قيمة الدراهم المتداولة بين العرب فى الجزيرة والأمصار المفتوحة فالدرهم المغربى ٣ دوانيق واليمنى دانق واحد ، فرأى عمر توحيد قيمة الدرهم فجعل قيمة الدرهم الاسلامى ستة دوانيق .

وكان خالد بن الوليد أول من ضرب النقود من المسلمين ، فقد ضرب

---

(٧٥) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

(٧٦) ينقسم الدينار الى ٢٤ قيراط Carats والقيراط يساوى ثلاثة حبات وستة دوانيق (Ashtor : Histoire des Prix, Paris 1969, P. 39)

نقودا فى طبرية سنة ١٥ ، ١٦ هـ وجعلها على رسم الدنانير الرومية تماما ، وقد كتب على هذه النقود اسم الله والنبى (ص) أو لااله الا الله وحده .

وضرب عثمان دراهم وجعل نقشها الله اكبر .

أما على فقد شغلته الفتن عن ضرب عملة جديدة .

حتى اذا تولى معاوية كتب الى زياد بن ابيه — والى العراق — يقترح عليه ضرب عملة جديدة غير عملة عمر ، فضرب نقودا ذهبية على مثال الدينار الفارسى وعليها اسمه ، وتوجد نماذج لأنواع هذه العملات فى متاحف أوربا .

ولم يكن فى الأمصار الاسلامية فى بداية عهد عبد الملك بن مروان عملة تعرف بها ، بل كان لأمراء الولايات مضارب خاصة يسكون فيها العملة حسب احتياجاتهم ولهذا كانت قيمة النقد غير مستقرة ، الأمر الذى يشجع على التزييف والتلاعب ، ورغم ان العملة البيزنطية والفارسية كانتا متداولتين بجانب العملة المحلية ، الا ان اتساع الدولة الاسلامية وتقدم التجارة أدّيا الى وضع ثابت للنقد .

كان عبد الملك بن مروان اول من ضرب السكة الاسلامية واصبحت النقود فى عهده عربية صرفة(٧٧) وكان عبد الملك قد امر الحجاج بن يوسف الثقفى ، واليه على العراق ، بضرب الدراهم وبعث اليه بالسكة فضرب الحجاج الدراهم فى العراق آخر سنة ٧٥هـ ، ثم أمر بضربها فى جميع النواحى سنة ٧٦ هـ وحدد عبد الملك للحجاج وزن الدرهم . وأمر بصرف هذه الدراهم فى سائر النواحى وكتب عليها « الله احد الله الصمد »(٧٨) .

---

(٧٧) كتب عبد الملك القرآن على الدنانير ، كتب : قل هو الله احد ، وفى الوجه الآخر : لااله الا الله ، وطوقه بطوق فضة وكتب فيه : ضرب بمدينة كذا ، وكتب خارج الطوق : محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق (السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، القاهرة ١٣٥١ هـ ، ص ١٤٥) .

(٧٨) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٤٧ .

وقام بضرب الدراهم للحجاج رجل يهودى يعرف باسم سمير فنسبت الدراهم اليه فقيل لها الدراهم السميرية . وكتب على وجه هـذا الدرهم بسم الله وعلى الوجه الآخر الحجاج ، ثم ضرب بعد سنة دراهم اخرى كتب على احد وجهيها (الله احد الله الصمد) فسميت هذا الدراهم الدراهم المكروهة وقيل ان سبب ذلك كراهية الفقهاء ذكر اسم الله على العملة (٧٩) .

وبعد ان فرغ الحجاج من السكة بعث بالسكة الى سائر الأمصـار لتضرب الدراهم بها ، وامر عماله ان يرفعوا اليه تقريراً شهريا عن مقـدار ما يضربونه من دراهـم .

وكذلك ضرب عبد الملك دنانير من الذهب سنة ٧٣ هـ وقد اطلق عليها اسم الدنانير العبدية نسبة الى عبد الملك .

وبعد ان فرغ عبد الملك من ضرب الدراهم والدنانير كتب الى عماله بالأمصار امرهم بأن يقتصر الناس على التعامل بالسكة الجديدة . وان يتهددوا بالقتل كل من تعامل بغيرها من العملة القديمة ، وان يجمعوا له النقود القديمة المتداولة حتى يحولها الى السكة الاسلامية .

دار الضـرب :

ولقد اوجدت دور الضرب لضرب النقود فى العواصم الاسلامية وفى مراكز الولايات ، وكثيرا ما كان التزييف يتطرق الى النقود المتداولة رغم وجود قوانين من عهد عبد الملك تعاقب المزيفين بأشد العقوبات فيضطر أولو الأمـر عند ظهور اموال مزيفة الى جمعها وضرب نقود جديدة .

وكانت صناعة ضرب النقود بسيطة يؤخذ طابع من حديد ينقش عليـه الكلمات التى يراد ضربها على النقود (عرفت بالسكة)(٨١) ، ثم توزن المعادن وتوضع الطابع فوق كل قطعة ويضرب عليها بمطرقة ثقيلة حتى تظهر

---

(٧٩) الاحكام السلطانية ، ص ١٤٨ .

(٨٠) السكة هى طابع من حديد ينقش فيه كلمات أو صور ويضرب بها على الدينار او الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة .

(٨١) الأحكام السلطانية ، ص ١٤٩ .

الكتابة عليها . فكلمة السكة كانت تطلق على طابع الحديد . ثم نقل هــذا المعنى الى النقوش التى على النقود ثم اصبح يطلق على وظيفة وعمل ضرب النقود والنظر على استيفاء حاجاته وشروطه(٨٢) .

وكان الحجاج بن يوسف اول من اتخذ دارا لضرب النقود فى عهــد عبد الملك وجمع فى هذه الدار الطباعين لسك العملة الجديدة . وكان الدينار والدرهم مستديرين والكتابة عليهما فى دوائر متوازية ، فيكتب على احــد الوجهين ذكر الله ورسوله وعلى الوجه الآخر اسم الخليفة وتاريخ الضرب .

وكانت بلاد العراق تمد حاجة الدولة العربية الاسلامية من العملة الاسلامية طوال العصر الأموى ، اذ كانت دار الضرب فى مدينة واسط .

وفى الدولة العباسية فى عصرها الأول صارت العملة تسك فى بغداد . وجرت العادة على ان تضرب الدراهم والدنانير فى عيد النيروز ، وهو اول أيام السنة الفارسية . وكان من مهام المحتسب التفتيش على الدراهم والدنانير تلافيا للتلاعب والتزوير والاشراف على دار سك النقود .

وفى العصر العباسى الثانى قام حكام الولايات المستقلة بسك عملة خاصة لهم وكان أجودها الدينار الأحمدى الذى سكه احمد بن طولون حين اســتقل بمصر(٨٣) .

كذلك اتخذ الفاطميون لهم دنانير خاصة نقية أشهرها الدينار المعزى الذى كان من الذهب الخالص(٨٤) . كذلك اتخذوا دراهم فضية نقية (نقرة) ؛ ولو ان فى عصرهم الثانى انتشرت بينهم الدراهم السوداء الذى يســاوى الدينار النقرة منها ثلاثة دراهم سوداء ، كما ظهرت فى أيام الأيوبيين والمماليك الفلوس النحاسية وشاع استعمالها . وبالنسبة للمؤرخ والباحث فى التاريخ تظهر أهمية العملة كمصدر للتاريخ السياسى والاقتصادى .

---

(٨٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٤٧ .

(83) Ashtor : Histoire des Prix, P. 76.

(٨٤) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ١٥٧ .

٥ — النظام العسكرى (الجيش والأسطول)

الجهـــاد فى الاســـلام :

كان القتال محرما على النبى (ص) قبل الهجرة لضعف المسلمين وقلة عددهم ، وفى المدينة بعد الهجرة اذن الله للمسلمين بالقتال دفاعا عن دينهـــم وقال تعالى : «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير»(٨٥) .

وكانت اهم الأسباب التى دفعت المسلمين للحرب هى :

١ — الدفاع عن النفس ورد المغيرين (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين)(٨٦) .

٢ — تأمين الدعوة والدفاع عنها .

٣ — محاربة من ينقض العهـــد .

٤ — رد الأمن الى نصابه اذا قامت الفتن والثورات .

٥ — فتح الفتوح لنشر دين الاسلام .

وكان النبى يقود الجيش بنفسه ويرتب رجاله قبل القتال ويضع خطط المعارك . ونبغ فى عهده كثير من القادة الذين وقفوا أنفسهم وحياتهم عن الدفاع عن الدين الجديد ونشره ، مثل على بن أبى طالب وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن ابى وقاص وخالد بن الوليد وغيرهم .

وكان النبى (ص) يسمح باستخدام النساء فى حروبه وغزواته يخدمن الجرحى ويهيئن الطعام ويقدمن الماء ويحمسن الجيش ؛ واشتهر منهن :

رفيدة الأسلمية واختها كعبة ونسيبة بنت كعب المازنيـــة الأنصـــارية

---

(٨٥) الحج : ٣٩ .

(٨٦) البقـــرة : ١٩٠ .

(ام عمارة) التى ردت عن النبى ضربة تلقتها بجسمها فى معــركة احــد فجرحت جرحا عميقا(٨٧) .

وصايا امراء الجيش :

استن الرسول (ص) لمن بعده من حكام المسلمين ان ينصحوا الجيوش الغازية ويعظوا القادة ، فكان عليه السلام يوصى سراياه المقاتلة بما روى عنه قوله : « اغزو باسم الله وفى سبيل الله تقاتلون من كفر بالله ، لا تغلوا ولا تغرروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا امراة ولا وليدا ولا تنتهبوا فمن انتهب نهبة فليس منا ولا تفرقوا بين الولد وأمه فمن فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين احبته يوم القيامة » .

وقد قلده فى ذلك أبو بكر حين ولى خلافة المسلمين .

التجنيد الاجبــارى :

واذ كان جمهرة المسلمن تطوعوا راغبين فى الجهاد امتثالا لأوامر الله ، وحبا فى النصر والشهادة ، فان منهم فئة تقاعست عن واجبها حتى فى عهــد الرسول (ص) فدعيت بالمنافقين ، ولقد لاحظ الخليفة عمر عنــد تهيئة قوته لحرب الفرس والروم ، تقاعس بعض الناس رهبة من هاتين الدولتين الكبيرتين ، فعمد الى الحزم فى التجنيد فأرسل كتبه الى الأقاليم لتجنيــــد المقــــاتلة .

ووضع عمر الديوان وسجل فيه اسماء المسلمين جميعا (ديوان العطاء) ورتب لهم أرزاقهم السنوية ، افرد للجند دفاتر خاصة فى ديوان خاص هــو ديوان الجند تدفع لهم فيه رواتب من بيت المال ، اضافة الى ما يصيبهم من

---

(٨٧) هى ام عمارة الأنصارية ، شهدت بيعة العقبة وشهدت احدا مع زوجها زيد بن عاصم ومع أبنيها حبيب وعبد الله ، ثم شهدت بيعة الرضوان ، ثم شهدت مع ابنها عبد الله وسائر المسلمين اليمامة فقاتلت حتى أصيبت يدها وجرحت يومئذ اثنى عشر جرحا بين طعنة وضربة . روت عن النبى صلى الله عليه وسلم (ابن عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، طبعــــة القاهرة (بدون تاريخ) ، القسم الرابع ، ص ١٩٤٨ ، ١٩٤٩) .

اسهم الغنائم ، على ان يتفرغوا للقتال ، مع بقاء باب التطوع مفتوحا لمن يريد ممن لم يذكر فى الديوان من سكان البوادى والأمصار .

ولقد عمل الأمويون بالتجنيد الاجبارى ونظم تنظيما دقيقا فى عهد عبد الملك بن مروان باشراف والى العراق الحجاج بن يوسف .

واستمر نفس الحال ايام العباسيين ، الا ان العباسيين لم يعودوا يعتمدون فقط على العنصر العربى فى القتال كما كان الحال ايام الراشدين والامويين ، بل اعتمدوا على العناصر غير العربية كالفارسية والتركية والمغربية .

ولقد اسقط الخليفة المعتصم العرب من الديوان (ديوان العطاء) وشهد هذا العصر صراعا طويلا بين العرب وغير العرب .

المعسكرات :

كان المسلمون فى اول الأمر ينصبون خيامهم ويرتبونها كما كانوا يفعلون فى جاهليتهم ، فيكون فسطاط الأمير فى الوسط وحوله فساطيط الأمراء والخاصة واذا كانت النساء معهم جعلوهم وراء المعسكر .

وقد منع الخليفة عمر الجنود من الاختلاط بسكان البلاد المفتوحة وأمرهم ان يسكنوا فى معسكرات خاصة تقام فى ضاحية المدينة ، على الا يكون بينهم وبين الخليفة بحر او نهر . ولذلك لم يقم جند العراق فى المدائن عاصمة كبرى بل اقاموا على ضفاف الفرات مما يلى بادية الشام فى البصرة والكوفة ، ولم يقم جند مصر فى الاسكندرية عاصمة البلاد بل فى بقعة عرفت بعد ذلك بالفسطاط على شاطىء النيل الشرقى قرب قاهرة اليوم .

وبازدياد عدد الجنود صار المعسكر اشبه ببلد فيه الكتاب والفقهاء والأطباء وارباب الحرف وغيرهم ، وكانت هذه المعسكرات نواة للعواصم الاسلامية .

وكان للعرب على حدود دولتهم من جهة البر والبحر ، وخاصة بينهم وبين البيزنطيين معسكرات دائمة ، بل مدن محصنة عرفت بالثغور والعواصم

فيها الحاميات والاسلحة وجند مستعدة للدفاع ، واشهرها : طرسوس ومرعش وملطية ومنبج والعريش ودمياط فى مصر . وقد شهدت بعض هذه الثغور عمليات الأفدية التى تمت بين المسلمين والروم(٨٨) .

تقسيم الجيش :

قسم الجيش الى فرق والفرقة تتألف من ١٠ آلاف جندى عليها أمير .

والفرقة تتكون من كتائب : كل كتيبة بها الف جندى عليها قائد .

والكتائب الى فصائل كل فصيلة من ١٠ جنود عليها عريف .

فرق الجيش :

كان الجيش الاسلامى فى بادىء الأمر يتألف من المشاة والفرسان يحملون الرماح والسيوف والأقواس والسهام . كذلك وجد منذ عهد النبى فرقة المدرعات التى استعملت المنجنيق والدبابات .

ثم بتقدم ورقى الدولة العربية الاسلامية تنوعت أساليب القتال وتعددت الفرق حسب تنوع الأسلحة وتخصيص العمال . وكانت أشهر فرق الجيش التى عرفت زمن ازدهار الدولة العربية الاسلامية هى :

١ — الفرسان :

وكان يتألف منهم معظم الجيوش يتسلحون بالرماح وتشكل منهم فصيلة من رماة السهام ، كان أكثر افرادها فى العهد العباسى من الخراسانيين المشهودين بمهارتهم فى الرمى .

---

(٨٨) وكان اول فداء بن المسلمين والروم قد جرى فى أيام الرشيد باللامس من ساحل البحر الرومى وهى على نحو ٣٥ ميل من طرسوس وكان ذاك سنة ١٨٩ هـ وكان عدد من فدى من المسلمين فى اثنى عشر يوما ٣٧٠٠ مسلم بين ذكر وانثى (المسعودى : التبينة والاشراف ، بغداد ١٩٣٨ ، ص ١٦٠ ، ١٦١) .

٢ ـ المشــــاه :

ويعملون عقب هجوم الفرسان ، وكانوا يتسلحون بالسيوف والرماح والدروع .

٣ ـ الكشــافة :

مهمتها الاستطلاع وتمهيد الهجوم للجيش ، وهم أشبه بفرق الاستطلاع الحديثـــة .

٤ ـ النشابون والرماة :

وهؤلاء يرمون بالنشاب والنبال ، وهم يمثلون سلاح الفرسان .

٥ ـ المنجنيقيون :

رماة المنجنيــق والمــدافع .

٦ ـ النفــاطون :

الذين يرمون النفط لاحراق حصون الأعــداء تمهيدا للهجـــوم عليها واقتحامهــــا .

٧ ـ الجواســيس :

وهم رجال كانوا يتزيون بزى التجار والأطباء وغيرهم ويدخلون أرض العدو ويستطلعون اخباره ، وكان يراعى فى اختيارهم مواصفات خاصة منها معرفة لغــة العــدو .

٨ ـ الحرس الخاص :

لحراسة الخليفة او امير الجيوش ، وكانوا من رجال الحاكم المقربين .

٩ ـ الغلمــان

وهى فرقة يقوم افرادها كخدام خصوصيين للخليفــة أو الســلطان ويتدربون على الفنون الحربية ويعيشون فى ثكنات منفصلة عن ثكنات باقى الجيش بمقتضى نظام عسكرى خاص ، وتشكلت هذه الفرقة بعد ان كثـــر اقتناء المماليك وكثرة وفودهم على بلاد العالم الاسلامى ، ولقد كان لهــذه الفرق خطرها حين تقوى ويشتد ساعدها .

١٠ — مستشفيات الميدان :

فيها الأطباء والصيادلة ونقالات هى عبارة عن محفات تحملها الابل ، وكانت توجد فى مؤخرة الجيش ، وكان النساء يعملن بها ويقمن بأعمـــال الاســـعاف والتمـــريض .

أســـلحة الجنـــد :

كانت الأسلحة التى استعملها العرب فى الجاهلية هى : السيوف ، الرماح ، الحراب ، الأقواس ، السهام ، الدروع ، والخوذ ، وقد استعملوها أيضا فى صدر الاسلام خلال معارك الفتـــوح .

وادخل النبى (ص) اسلحة جديدة ، ويقال انه ارسل الى اليمن بعضا من اصحابه لتعلم صناعة الدبابات والمجانيق ، وتذكر بعض المصادر أن سلمان الفارسى هو الذى صنع المنجنيق للمسلمين ، نقلا عما كان عند الفرس .

وكان المنجنيق يرمى الحجارة او النار ، وكان اول من اســــتعمله الفينيقيون وعنهم اخذه اليونان والفرس ، وقد تطورت مع الزمن صـــناعته واســـتخداماته .

الـــــدبابات :

هى آلات من الخشب المغلف بالجلود المنقوعة فى الخل لدفع النار ، وتركب على عجلات يصعد الجند الى اعلاها للنزول فوق الأسوار . وتستخدم ايضا لهدم الأسوار وهى اقدم من المنجنيق ، استعملها المصريون القـــدماء والآشوريون واليونان والرومان والفرس ثم العرب ، والدبابة الحالية فى الجيوش ما هى الا تطور للدبابات القديمة .

وكان سلاح المقاتلة الموجودين فى أعلى الدبابة القسى والسهام ومهمتهم حماية المقاتلة الموجودين فى اسفل الدبابة ليتمكنوا من فتح ثغرات فى اسوار العدو باستخدام المعاول والمثاقب .

الكبــــاش :

والكبش نوع من انواع الدبابات ، لكن رأسه مثل راس الكبش لذلك سميت به ، يدفعه الجنود وهم داخلها لنقب الأسوار وعمل الثغرات بها .

البـــــارود :

برغم ما يدعيه بعض الغربيين من انه اخترع فى اوربا سنة ١٣٢٠ م الا ان مصادر كثيرة تشير الى ان العرب عرفوه قبل ذلك بمدة طويلة وهو من اختراعهم او نقلوه عن الصين . ولقد ذكر ابن خلدون ان سلطان مراكش لما فتح سجلماسة فى القرن السابع الهجرى ١٢٧٣ م استعمل اسلحة نارية : « ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والرعادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزنة امام النار الموقودة فى البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال الى قدرة باريها »(٨٩) .

أساليب القتـــال :

كان العرب فى جاهليتهم يتبعون طريقة الكر والفر فى حروبهم ويجعلون نساءهم وأولادهم وارزاقهم وراءهم ليثبتوا فى الحروب دون تقهقر .

ولما ظهر الاسلام اخذ المسلمون يقاتلون زحفا اى صفوفا بقوله تعالى : « ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص »(٩٠) . ثم بعد ان اختلط العرب بالأعاجم عمدوا الى نظام جديد وهو نظام الكراديس وهى كلمة يونانية ومعناها الكتل او الكتائب ، ومفـــردها كردوسة بمعـــنى الكتيبـــــة .

ويقسم الجيش بموجب ذلك الى خمسة أجزاء رئيسية كبرى ومنهـــا تسمية الجيش بالخميس : اى المقدمة والساقة والميمنة والميسرة والقلب .

واول من استعمل الكراديس هو خالد بن الوليد ، فى معركة اليرموك سنة ١٣ هـ ، وسعد بن ابى وقاص فى معركة القادسية سنة ١٤ هـ ، وهمـــا من أشهر معـــارك الفتـــح .

وبازدياد رقى الدولة الاسلامية ، وبما اقتبسوه من فنون الحرب عند القدماء وترجمة كتبهم ودراسة نظمهم ، ازداد تفننهم فى اساليب القتـــــال وتعددت خططهم الحربية التى احرزوا بواسطتها انتصاراتهم الهائلة وحققوا توسع دولتهم العظيم وقيام امبراطوريتهم الشاسعة .

---

(٨٩) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢١٨ .
(٩٠) الصـــف : ٤ .

الأســـطول

نشأة الأسطول وتطور الملاحة فى العصور الاسلامية :

سمى العرب مجموعة السفن اســطولا ، وهو لفـظ يونانى عربوه ويقال اسطولى للعسكرى الذى يعمل فى البحر ويركب الاسطول .

ولم يهتم المسلمون بركوب البحر الا بعد ما احتلوا الشام ومصر اذ كانت هذه البلاد عرضة لهجوم سفن البيزنطيين بصورة مستمرة ، فكان عليهم أن يقابلوا العدوان بالمثل ، وكان عليهم ان يحافظوا على ســواحل هــذين القطرين على البحرين الأحمر والمتوسط .

لذلك رأى معاوية ، والى الشام ، ضرورة انشاء اسطول فكتب الى الخليفة عمر يستأذنه فى ذلك فأبى ، فألح عليه ورغبه فى الكسب . فكتب الخليفة الى عمرو بن العاص والى مصر يطلب منه ان يصف له البحر فأجابه : « يا امير المؤمنين انى رأيت البحر خلقا كبيرا يركبه خلق صــغير ، ليس الا السماء والماء ، ان ركد احزن القلوب وان ثار ازاغ العقول ، وازداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، هم فيه دود على عود ، ان مال غرق وان نجا برق » . فلما قرأه كتب الى معاوية « والذى بعث محمدا بالحق لا احمل فيه مســلما ابدا(٩١) .

ولما آلت الخلافة الى عثمان اعاد معاوية الكرة واستأذنه فى غــزو قبرص ، واذن له سنة ٢٧ هـ على أن يكون ركوبه اختياريا . وفى سنة ٢٨هـ اقلة من عكا اسطول رافقه من مصر اسطول آخر وفتح قبرص وصالح اهلها على جزية قدرها ٧٠٠٠ دينار كل سنة ، فشجع هذا النصر العــرب على ركوب البحر وتقوية الأسطول وزال من قلوبهم الخوف منه .

وفى عهد عثمان هاجم « قسطنطين بن هرقل » ســواحل مصر بألف سفينة ، يريد استردادها من العرب ، فتصدت له مائتى سفينة للمســلمين وتغلبت عليه فى معركة شهيرة ، هى معركة « ذات الصوارى » سنة ٣٤ هـ ،

---

(٩١) كان الخليفة عمر لا يحب ركوب البحــر لذلك رأى ان يجنب المسلمين خطر ركوبه . (ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢١٧) .

فزادت هذه المعركة من معنوية المسلمين وحبتهم فى ركوب البحر ، واوحت لهم بفكرة صنع اسطول كبير تكون له السيادة على البحر المتوسط .

وسار الأمويون على سنة معاوية من حيث الاهتمام ببناء الأساطيل وتجهيزها والقيام بالغزو البحرى والفتوحات بحرا حتى نافسوا البيزنطيين وسيطروا على البحر المتوسط وملكوا معظم جزره وهددوا القسطنطينية ذاتها وحاصروها مرات عديدة(٩٢) ويقال ان الأسطول فى عهد معاوية بلغ ١٧٠٠ قطعة ، وصار البحر المتوسط ، ابتداءا من عهده ، بحيرة اسلامية .

وزادت قوة المسلمين بحرا فى العهد العباسى واستمرت سيادتهم على البحر المتوسط وغزوا سواحل الهند سنة ١٥٩ هـ ، وكذلك اهتم حكام الولايات المستقلة بالقوة البحرية فكانت لمصر والمغرب والأندلس اساطيلها القوية فى البحر المتوسط .

ورتب المسلمون الشوانى والصوائف لغزو الروم بحرا ، ورصدوا قواتهم المرابطة فى الثغور الاسلامية ، وهى المدن المتاخمة لبلاد العدو .

دور صناعة السفن :

كانت هناك مصانع تقام على سواحل البحر وشواطئه لبناء السفن ، وكانت اهم هذه الدور فى بلاد الشام ، فى عكا وصور وطرابلس وحيفا . وكانت فى مصر فى جزيرة الروضة سنة ٥٤ هـ ، ثم الفسطاط والقاهرة والاسكندرية ودمياط . وفى المغرب كانت فى تونس وسوسة والرباط وطنجة ، وفى الأندلس : فى المرية ومالقة ، وفى الخليج العربى : فى البصرة وسيراف وعمان(٩٣) .

اشهر انواع السفن الحربية :

احتوى الأسطول الاسلامى على انواع عدة من السفن اختلفت تسمية

---

(٩٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢١٧ .

(٩٣) عن اهمية هذه الموانى ، انظر للمؤلف كتاب تجارة مصر فى البحر الأحمر ، القاهرة ١٩٧٦ ، صفحات ٤٨ — ٥٠ .

كل منها حسب الهدف المستخدمة فيه والغرض المصنوعة من اجـله وكان اهمهـــا :

١ — الشـــوانى :

ومفردها شونة أو شينى او شينية .

وهى اكبر انواع السفن واكثرها استعمالا ، وكانت اهم قطع الأسطول الاسلامى ومتوسط حمولتها ١٥٠ رجلا وتجذف بأكثر من مائة مجداف ، وبهـــا القلاع الكبيرة وابراج الدفاع .

٢ — البوارج :

(ومفردها بارجة) : وهى سفن حربية كبيرة ، أقل من الشوانى .

٣ — القـــراقير :

(مفردها قرقور) وهى سفن عظيمة تحمل الزاد والعتاد للاسطول ، وهى تشبه فى شكلها شكل (قرقور) السمك ولذلك سميت به .

٤ — الصنادل :

(مفرداه صندل) وهى مراكب كبيرة مسطحة لحمل المقاتلة والســـلاح والمؤن ، ويسميها العرب ايضا الشلنديات ، وهى من سفن النقل .

٥ — الطـــرادات :

(الطرائد) (ومفردها طراد أو طريدة) : وهى سفينة صغيرة سريعـــة السير والجرى تستعمل لحمل الفرسان والخيول تتسع لأربعين فارس ، وهى من سفن النجدة والاغاثة السريعة .

٦ — الحراريق :

(ومفردها حراقة) : فيها منجنيقات تلقى منها النيران على العدو ، ويوجد بها النفاطون الذين يجهزون هذه النيران .

٧ — العشاريات :

(مفرها عشارى) : وهى سفن صغيرة حربية ومدنية تركب فى الأنهار ولا تركب فى البحار لخفة وزنها .

٨ — السميريات :

(مفردها سميرية) : وهى ايضا من سفن البحر والنهر وهى معـدة لحمل آلات الحرب والسلاح والمقاتلة من الرماة ، وتستخدم لنزهة الخلفـاء فى الأنهـار .

٩ — الأغـربة :

(جمع غراب) : وهى سفن صغيرة مقدمتها على شكل راس الغراب ، وهى سريعة الجرى فى الماء بسبب دقة تصميمها .

١٠ — الحربيـات :

(جمع حربية) : وهى نوع مصغر من الشوانى تمتاز بسرعتها وخفة حركتهـا .

١١ — البطـس :

(مفردها بطسه) : وهى مراكب كبيرة الحجم مزودة بعـدد كبير من القلوع تصل احيانا الى اربعين قلع ، تستخدم لنقل المؤن والسلاح والمقاتلة وقد تصل سعتها الى ٧٠٠ راكب عدا الحمولة ، ولذلك هى من سـفن النقل الهامة التى تزود الأسطول بحاجته من الرجال والعتاد والمؤن والذخيرة .

أسـلحة الأسـطول :

سلح الأسطول بالأسلحة البرية لاستخدامها عند الرسو فى أرض العدو ، هذا فضلا عن :

١ — الـكلاليب :

وهى تلقى على مراكب العدو وعند الاقتراب منه ويشدون بهـا سفنهم اليهم ويرمون عليها الألواح ليعبروا عليها كالجسر لمقاتلة العدو .

٢ — الباسليقات :

وهى سلاسل فى رؤوسها رمانة حديد تكسر كل ما تقع عليه لشـــدة دفعها ، وهى من أسلحة الهجوم البحرية .

٣ — النـــار اليونانية :

هى مزيج من الكبريت وبعض الدهون فى شكل سائل يطلقونه من أسطوانات نحاسية مستطيلة يشدونها فى مقدم السفينة فيقذفون منهـــا السائل مشتعلا او يطلقونه بشكل كرات مشتعلة ، او قطع من الكتان الملوث بالنفط . وهذه النار تشتعل فى الهواء والماء ، وهى فى الأصل من اختراع السوريين تعلمه البيزنطيون بواسطة رجل من بعلبك اسمه « كالينكوس » فى القرن السابع الميلادى اثناء محاولة المسلمين فتح القسطنطينية(٩٤) ثم استخدمه المسلمون فى اساطيلهم كما استخدمه البيزنطيون ، وصـــار من أسلحة البحر الضرورية للمقاتلين على صفحته .

امـــرة الأســـطول :

كان لكل سفينة قائد ورئيس ، فالقائد يدير امر القتال والجنود ، والرئيس يشرف على الملاحين وامر سير السفينة ، وفى السفينة ايضا المنادى ومهمته تبليغ اوامر الربان الى الملاحين بصوته ومكانه بأعلى سارى السفينة .

وكان يعين على جميع قطع الأسطول امير دعى امير البحر admiral وكان يعلق فانوس على مركبه فتهتدى به بقية السفن وتقنع باقلاعه وترســـو بارسائه(٩٥) وكانت هذه السفينة هدف كل مقاتل لانها سفينة القيادة متى سقطت استسلم الأسطول جميعه ، لذا كانت تحظى بحماية تامة يستخدم فيها أنواع التغطيـــة والتمويه المختلفة .

---

(٩٤) كان استخدام البيزنطيين لهذه النار من اكبر الأســـباب التى عوقت فتح المسلمين للقسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطيـــة اثنـــاء العهد الأموى ، وفشل المحاولات المتكررة التى بذلوها فى هذا الخصوص ، فضلا عن الأسباب الأخرى .

(٩٥) أنور الرفاعى : الاسلام فى حضارته ونظمه ، ص ٢١٥ .

الفصل الثالث

الحيـــاة الاجتماعيـــة
فى الاســـلام

١ ـــ طبقات المجتمع الاسلامى وتطورها:

(أ) الترتيب العنصرى للسكان .

(ب) الترتيب الطبقى .

٢ ـــ اهل الذمة فى الاسلام .

٣ ـــ حيـــاة المدن الاسلامية .

٤ ـــ حالة الترف .

أولا — طبقات المجتمع الاسلامى وتطورها

أ — الترتيب العنصرى للسكان :

احتوى العالم الاسلامى على عنصرين من عناصر السكان ، لم يعيشا منفصلين بل نشأ الاختلاط والتمازج بينهما ، وهـذان العنصران همـا :

١ — العنصر العربى ، ٢ — عنصر الموالى .

العنصر العربى :

هو العنصر الذى كون الدولة ، وهو الذى كان له الحكم فيها ، وهو الذى حقق النصر على اكبر امتين كانتا فى عصره ، وهما : فارس والروم . ولقد اعطاه هذا النصر نوع من الثقة والاعتـداد بالنفس ، جعـله فى ظل الاسلام ، يفتخر بأصله العربى . ولذلك احتفظ العربى بالنزعة القبليـة : نزعته لقبيلته ، ونزعته للجنس العربى عامة . ولقد بارك الحكم الأموى هذه النزعة وقواها عند العرب ، حتى عرف هذا الحكم بتعصبه للعرب ، وبأنه عربى لحما ودما . وتملك العرب الشعور بالسيادة والعظمة . والشى الهام ان عصر بنى امية ، على ارتفاع كلمة الاسلام فيه ، وعلى انه هو العصر الاسلامى بالمعنى الدقيق ، كان فى الوقت ذاته عصرا جاهليا شديدا ، لا فى البلاد العربية . وحدها ، بل فى البلاد العربية الجديدة فى العراق والشام وشمال افريقية والأندلس . وذلك أن العصبية الجاهلية قد استأنفت قوتهـا وعصبيتها فى العصر الأموى ، بل وصلت الى ما لم تصـل اليـه فى العصر الجاهلى(١) . فالعصر الأموى قد استأنف ما كان فى العصر الجاهلى من الصراع والغارات التى عرفتها الجاهلية ، فهناك أيام وقعت فى الاسـلام كما وقـع مثلهـا فى الجاهليـة .

---

(١) طه حسين : من تاريخ الأدب العربى ، العصر العباسى الأول ، جـ ٢ ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ١٠ .

وقامت الدولة الأموية ، منذ أيام معاوية ، على فكرة العصبية العربية فيما يتعلق بالأجانب بالنسبة للعرب ، وعلى فكرة العصبية للعرب فيما يتصل بالعرب أنفسهم . فكل خليفة هو عربى والأصل الذى تقوم عليه فكرته هــو ان يسود العرب ، وكل خليفة له عصبيته الخاصة فهو اما متأثر بالعصـــبية اليمنية أو المضرية ، ولكل خليفة له عصبية اخص من حيث القبيلة فهو يتأثر بهذه او تلك من مضر او اليمن ، فالدولة الأموية دولة عربية بادق معانى الكلمة فى عصـــبيتها(٢) .

ولقد تضاءل وزن العرب السياسى فى العهد العباسى بسبب سياسة هذه الدولة فى الاعتماد على الموالى ، ورغم تضاؤل هذا الوزن للعرب فان التأثير العربى ظل قويا فى المجتمع الاسلامى ، فهو العنصر الذى حـــافظ على المثل والتقاليد والاداب العربية المرتبطة بالاسلام ، وهو ايضا العنصر الذى حارب الزندقة التى تفشت فى المجتمع الاسلامى فى العصر العباسى الأول .

وأخص ما نلاحظ فى هذا العصر الاسلامى هو اتصال العرب بغيرهم بالهجرة وبانتقال الموالى والأسرى الى البلاد العربية ومرابطة الجيـــوش الاسلامية فى الثغور ، ثم تقليد العرب للامم التى غلبوها فى بعض النظـــم السياسية والادارية والاقتصادية . وكل هذا من شأنه أن يغير طبيعة العرب شيئا فشيئا حتى اذا قوى ذلك ظهرت آثاره فى حياتهم الاجتماعية ، واخـــذت هذه الاثار تظهر بحيث نشعر بأن هناك فروقا بين هذا العصر وبين العصر الأول للاسلام حيث لم يكن هناك ترف أو دروس فى مسائل الكلام والفلسفة ولم تكن الادارة العربية قد تأثرت تأثرا بعيدا بالادارة الرومانية فى الشـــام والفارسية فى العراق ، ولم يكن الاتجاه للنقل وللعلوم العملية قد ظهر(٣) .

كل ذلك يدل على أن العرب قد اخذوا ينتقلون من طور الى طور جديد ، هذا الطور هو العصر العباسى الذى اتصل فيه العرب بالثقافات والعقليات الأجنبية . وكان هذا الاتصال من العناصر الخطيرة التى عملت على تكوين هذا الجيل العربى الجديد ، وينتهى الى أن هنالك طبقة من العرب اتصـــلت

---

(٢) طه حسين : نفس المصدر السابق ، ص ٢٤ .
(٣) طه حسين : نفس المصدر السابق ، ص ١١ .

بالأجانب وكونت انفسها عقلية معقدة أشد التعقيد اذا وازنا بينهـــا وبين العقلية العربية قبل الاســـلام(٤) .

ونلاحظ أن العرب فى هذا العصر قد تطورت حياتهم المادية وتعقدت وتباعد ما بينها وبين الجيل الماضى ، كذلك تطورت حياتهم العقلية وزادت معرفتهم عن ذى قبل . الى جانب هذه الظواهر توجد ظواهر اخرى تتصل بالترف الذى عاش فيه العرب فى هذا العصر ، واستنباط فنون هذا الترف فى هذه الامة العربية التى كانت مقتصدة فى حياتها ، وقد أنشأ هـــذا الترف فنونا جديدة كان العرب يعرفون عنها فقط أسماءها فى عصورهم الجاهلية وفى اوائل عهد الأمويين استتبعت معرفتها حياة مادية خاصـــة أثـــرت فى شخصية الفرد العربى فى العصر العباسى(٥) .

المـــــوالى :

اطلق العرب كلمة الموالى على الشعوب العربية التى خضعت لحكمهم من دون العرب . وهى كلمة تحمل فى معناها التبعية والعبودية ولقـــد تغلغل هؤلاء الموالى ، الذين اسلموا ، فى الحياة الاسلامية وشاركوا فيها من جميع فروعها ، ولكنهم يشاركون على انهم موال لا على انهم سادة وعلى انهم تبع لا على انهم حكام ، وهم فيما بينهم وبين انفسهم يستشعرون بأنهم أرقى من العرب ثقافة وحضارة .

كل هذه الأشياء : شعورهم بالقديم ، وتفوقهم القديم على العرب ، ثم مشاركتهم فى كل ما كان العرب ينهضون به ، وغلبتهم فى أمور لم يـــكن العرب يحسنونها كالمال والزرع ، وتدخلهم فى الحياة الدقيقة الخاصـــــة للحكام ، ونهوضهم بالواجبات العسكرية نهوض العرب بها ، ومشاركتهم فى الاسلام الذى رفع شعار المساواة بين المسلمين مهمـــا اختلفت جنســـياتهم والوانهم ولغاتهم — كل هذا اوجد فى نفوس الموالى فكرة ان الأمـــر لا بد ان يتغير ، وانَّ المساواة لا بد وان تتحقق بينهم وبين العرب . وهذه فكرة تقوم على العدل وعلى أساس من الاسلام الذى لم يفرق بين عربى واعجمى . فمن

---

(٤) طه حسين : من تاريخ الأدب العربى ، ج ٢ ، ص ١٢ .
(٥) طه حسين : نفس المصدر السابق ، ص ٢٠ .

اسلم نله جميع الحقوق وعليه جميع الواجبات التى يفرضها الاســـلام ، وما دام هؤلاء الموالى قد اسلموا والتزموا بالواجبات الدينية فلماذا اذن هـــذه التفرقة بين غالب ومغلوب(٦) .

واذا لاحظنا أن العرب كانوا قلة مهما كان امرهم وخاصة عندما تقدم الزمن وازدادت الفتوح الاسلامية وكثر المسلمون من الموالى ، يتبين لنا ان مسألة المطالبة بالمساواة كانت مسألة مطالبة بالرجوع الى اصل الاســـلام الأول والى السنة النبوية الشريفة . وهؤلاء الموالى فى مطالبتهم بالمساواة لم يكونوا يطالبون مطلبا خاصا مميزا وانما كانوا يطالبون العرب الذين نقلوا اليهم الاسلام بأن يكونوا مسلمين حقا وبأن يطبقوا الاسلام كمـــا يجب وأن لا يهملوا ما فى الكتاب والا يعطوهم بعض الاسلام ويمنعوهم بعضه الآخر . ولم ترق هذه الفكرة ، بطبيعة الحال ، للعصبية العربية ، فكان الصراع بين العرب والموالى الذى تمخض عن ثورة دينية ذات شعبتين : ثورة العلويين وثورة الخوارج(٧) .

وفى الحقيقة اذا ناقشنا مسألة التفرقة فى المســـاواة بين العـــرب والموالى مناقشة موضوعية نجد ان هذه المسألة اختلفت من اقليم لاقليم فى اقاليم الدولة الاسلامية . فهى وأن كانت متمثلة تماما وبدقة فى العراق ، وذلك لمكان الجيوش العربية المرابطة فى الثغور هناك والتى استقرت فى مرابطها فى الكوفة والبصرة وكونت ارستقراطية عربية دقيقة ، ولما كان من خصومات سياسية بين العرب انفسهم تجلت فيما تجلت به فى الاحـــزاب الكثيرة من خوارج وشيعة وامويين فكان العرب فى الواقع يستأثرون بكل شىء ويضنون على غيرهم بكل شىء وتكون لهم فى العراق كل مظاهر العظمـــة والسلطان . لكن هذا النوع من المعاملة فى الشام يختلف عما كان عليه فى العراق ، فالموالى فى الشام كان ينظر اليهم على أنهم اتباع لهم شىء من الامتياز والاعتبار وذلك لشدة اتصالهم بالخلفاء وكبار رجال الدولة ، فكانوا يجدون السبيل فى هذا الاتصال للعناية بكثير من الشئون والقيام عليها ، فهم أشبه بالموظفين غير انهم موظفون يعملون على انهم اتباع لرؤسائهم ، وكان

---

(٦) طه حسين : من تاريخ الأدب العربى ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٧) طه حسين : نفس المصدر السابق ، ص ٢٥ .

ذلك شأن كثيرين من الأجانب فى بلاد الشام يعملون فى دوائر سـياسية يساعدهم عليها اتصال وثيق بالرؤساء ورجال الدولة ووجوهها ، غير أنهم لا يعملون على انهم موظفون فحسب ولا على انهم مرؤوسون لرؤساء ، بـل عمل المتبوعين للتابعين بحقوق الجزية والولاء والعتق(٨) .

على العكس من ذلك كان الموالى فى الحجاز ، فلقد كانت الارستقراطية العربية المترفة هناك تعتمد فى ترفها كله على هؤلاء الموالى ، فمنهم كان يعمل لحسابهم فى الزراعة والصناعة والتجارة ، ومنهم كان المغنون ، ومنهـم الخدم الذين كانوا ينظمون حياة الترف لهم ويقومون عليها ويزيدون فيها ممـا استقر فى نفوسهم وعقولهم واوضاعهم الاجتماعية الفارسية او الرومانية او اليونانية . وفى هذه البيئة الحجازية بالذات كان الموالى فى الظاهر عبيدا وفى الحقيقة سادة ، وهم وان كانوا قد فقدوا حقوقهم فى الظاهر لكنهم كانوا يستمتعون بها على اوسع نطاق فى الحياة العملية ووصلوا الى اقصى حـد فى ذلك ، وهو حد التحكم فى سادتهم .

ولقد شمل عنصر الموالى شعوب : الفرس والترك والروم والزنج غير شـعوب الأرمن والبـربر .

أ — الفـــرس :

لقد كسبت دعوى العباسيين الفرس لأنها كانت دعوى تنادى بالمساواة وترفع رايته ، وحيث ان هؤلاء الذين كانوا حديثى العهد بالدولة القوية فكانوا لذلك يطالبون بالمساواة ، يريدون انصافا من جهة ورجوعا لعهدهم القـديم ومجدهم السابق من جهة اخرى . وكان الفرس يعلنون ، بدون موارية ، بانهم اهل الحضارة وانهم اقدر على تدبير امور الملك والسـياسة ، وكانوا مطمئنين الى انهم ان ظفروا وانتصروا فى هذه الحرب واستطاعوا ان يجعلوا المساواة اصلا من اصول الحكم فسيكون لهم الأمر من بعد وسيغلبون هـم العرب . وهذا هو الذى تم بالفعل وانتهى الأمر بالفوز ، ووجدت الخـلافة العباسية التى كان لها مظهران : مظهر عربى وهو ما اقره الفرس حيث ان

---

(٨) طه حسين : من تاريخ الأدب العربى ، ص ٧٠ .

الخليفة عربى ، ومظهر فارسى ، وهو المظهر الذى يأتى من أن الخلفاء اتخذوا من الفرس وزراء او اعوانا .

وهكذا اصطبغت الحضارة بهذه الصبغة الفارسية ، بحكم ان الفرس صارعوا العرب وغلبوهم ، وكانوا اظهر الأجانب الذين ساهموا فى امور الدولة وجاهدوا وانتصروا فيها(٩) .

انتصر الفرس فى السياسة على العرب فأسرفوا حتى كادوا يصنعون سلطان الخلافة ، مما اضطر المنصور الى قتل ابا مسلم الخراسانى ، القائد الفارسى ، والرشيد الى ان ينكب البرامكة ، والمأمون الى قتل ابن سهل ، وذلك مقاومة لهذا الخطر والطموح الفارسى وحفظا للخلافة فى البيت العباسى .

ورغم هزيمة الفرس فى ميدان السياسة ، الا انهم انتصروا فى ميدان الحياتين العقلية والاجتماعية . فأسرفوا فى انتصارهم وظهرت الدعايات الشنيعة ضد الاسلام وضد الأخلاق العربية ودخل المجون والفحش داخل البيوت وظهرت الحركات الفارسية الهدامة التى قصد بها هدم الاسلام كحركات المانوية والخرمية والزندقة . والشيء الذى لا شك فيه ان المجتمع الاسلامى قد تأثر بالفرس وأن العرب قد اخذوا عن الفرس الحضارة المادية وان تأثير الفرس ظهر واضحا وجليا فى السياسة وفى النظم الادارية وفى تكوين الحياة المادية من ملبس وطعام وشراب ولهو وفنون . اما من الناحية الثقافية والناحية الادبية فينكر عميد الأدب العربى الأستاذ الدكتور طه حسين(١٠) ويشكك فى أن يكون للفرس تأثير كبير ويقول بما نصه : « لاننا لا نعرف للفرس ثقافة فارسية بالمعنى الدقيق ، ولا نستطيع من الناحية الأدبية الخالصة أن نقول ان العرب اخذوا ادبا بعينه لا فى الشعر ولا فى النثر من الفرس » . كذلك يقول :

ومن الخطأ ان يقال ان العرب لم يتأثروا بالفرس لأن كثيرا من شعراء العرب وكتاب المسلمين كانوا من الفرس ، ومعظم الشعراء كانوا ينتمون الى

---

(٩) طه حسين : من تاريخ الأدب العربى ، ص ٣٢ .
(١٠) من تاريخ الأدب العربى ، ص ٣٧ .

نسب فارسى واضح او مختلط بين الفرس والموالى . ومن الخطأ ايضا ان نجد تأثير الوراثة فى طبيعة الفنان وفنه ، لأن الشاعر او الفنان يظهر فى شعره وفنه اثر وراثته . فالقول بأن العرب لم يتأثروا بالفرس اطلاقا ليس اقل سخفا من القول بأن العرب تأثروا بكل شىء ، والتوسط هو المعقول(١١) .

٢ — التـــرك :

ينتسب الترك الى منطقة التركستان الروسية ، ولم تكن لهم مدنيـــة أو حضارة قديمة ، بل كانوا مجرد رعاة بدو ، لذلك اطلق عليهم الجاحظ : اعراب العجم(١٢) . وقد اكسبتهم البداوة قوة جسدية وخشونة فى الطبــع وميلا لســفك الــدماء .

ولقد توافدت أعداد كبيرة من هؤلاء الترك على بلاد الدولة الاسلامية على هيئة رقيق . وكان طابع هؤلاء الترك حب الجندية والفروسية ، لذلك استكثر منهم حكام المسلمين ، لتمكين أنفسهم فى بلادهم ، وامتلأت بهم قصور الخلفاء والأمراء والأعيان فى العصر العباسى . وحين ارتفعت مكانة هؤلاء الأتراك فى المجتمع الاسلامى تعالوا على اهل البلاد ، وشاركوا فى اعمـــال العنف داخل المجتمع الاسلامى ، فتركوا بذلك بصماتهم الدموية الواضحة على صــــفحات التـــاريخ الاســـلامى .

هذا ولقد امتلأت قصور الخلفاء وخاصة القوم فى العصر العبـــاسى من جوارى الترك اللائى كن يتميزن بالجمال الظاهر ، وكن يتوافدن فى أعداد ضخمة الى بلاد العالم الاسلامى وبخاصة من مدينة « سمرقند » التى كانت أكبر مراكز تجارة الرقيق الأبيض وصاحبة اشهر اسواق النخاسة فى العصور الوسطى . وكان اهل سمرقند قد اتخذوا تربية الرقيق وتهذيبهم صـــناعة يتعيشون منها ويكونون من ورائها الثروات الطائلة .

---

(١١) طه حسين : نفس المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(١٢) أحمد امين : ظهر الاسلام ، ط ٢ القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٤٤ .

وكان لاجوارى التركيات اثرهن فى المجتمع والبيت الاسلامى فى ادخال مسحة من التأنق فى الأزياء والتفنن فى التجميل ، بسبب ازدياد جمالهن وزيادة اناقتهن وابتكارهن لأزياء جديدة نظرا لما عرفن به من مبالغـــة فى التـــأنق والملـــــبس .

٣ — الـــروم :

ومن العناصر التى دخلت الدولة الاسلامية وكان لها تأثير فى الحياة الاجتماعية الروم . وقد ادت الحروب المتصلة بين المســـلمين والبيزنطيين الى اسر عدد كبير من الروم واسترقاق كثير منهم فانتشر المـــاليك الروم ، تبعا لذلك رجال ونساء وغلمان فى بيوت الخلفاء والأغنياء ، بل ان بعض الخلفاء فى هذا العصر كانت امهم رومية نذكر من بينهـــم : المنتصر بالله بن المتوكل ، والمعتز بالله ، والمعتمد على الله ، والمقتدر بالله(١٣) .

وقد استكثر الخليفة المقتدر من الخدم والماليك الروم ، كما أن احمد بن طولون لما ولى مصر اشترى الرقيق من الروم وأفرد لهم قطيعة فى مدينـــة القطائع عرفت بهم ، ولما اسست القاهرة اقتطعت الروم بها حارتين . وكان فى بغداد دير يسمى « دير الروم » . وكان لبعض الروم الذين اســـتوطنوا الدولة الاسلامية نشاط ادبى وعلمى كابن الرومى ، الذى ينتمى الى اصـــل رومى ، واسمه على بن العباس بن جريج ، وله فى الشعر ميزات قلمـــــا اجتمعت لغيره من شعراء العرب . كذلك كان منهم أبو الفتح بن جنى وكان عالما من علماء النحو والصرف(١٤) .

٤ — عنصر الزنج (السود) :

كذلك كثر فى هذا العصر عنصر الزنج ، وكانوا يجلبون على يد تجار الرقيق الى الدولة الاسلامية من سواحل افريقية الشرقيـــة . ولا ادل على كثرة هذا العنصر وخطره من ثورتهم التى قاموا بها قرب البصرة ، وعرفت

---

(١٣) احمد امين : ظهر الاسلام ، ج ١ ، ص ٦٥ ، ٦٦ .
(١٤) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

باسمهم ، وكلفت الدولة العباسية كثيرا من الأموال والدماء(١٥) . وكان قد تزعم هذه الثورة رجل فارسى يسمى على بن محمد ، من أهالى الطالقان ، ادعى انه من ولد على زين العابدين بن الحسين بن على بن ابى طالب . وقد استغل هذا الرجل العبيد من الزنج الذين كانوا يعملون فى أرض بعض الممالك ، فاستمال قلوبهم وحرضهم على الثورة لتحرير أنفسهم من الأوضاع السيئة التى كانوا يرزحون تحتها ، ومنها عملهم الشاق فى رفع الطبقة المالحة عن الارض فى سهول البصرة مقابل اجور ضئيلة .

ولقد كون هؤلاء الزنج جيشا كبيرا هاجموا بها الأبلة وعبادان (على نهر دجلة) والاهواز والبصرة وواسط والحقوا الهزيمة بقوات الخليفة المعتمد على الله ، فتصدى لقتالهم اخوه الموفق الذى آلت له الخلافة وعرف باسم « المعتضد » . ولقد استمرت ثورة الزنج اربعة عشرة عاما انتهت بمقتل قائدها سنة ٢٧٠ هـ (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ)(١٦) .

هذا ولقد كان الجيش العباسى يضم طائفة من الزنج ، كما اشتغل كثير منهم فى خدمة قصر الخلافة وامتلأت القصور وبيوت أوساط الناس بالزنجيات زوجات وخادمات ومربيات .

ب — الترتيب الطبقى فى المجتمع الاسلامى

اذا ما تركنا التقسيم العنصرى للمجتمع الاسلامى فى العهد الأموى والعباسى (عهد نضوج الدولة) وقسمنا المجتمع تقسيما رأسيا الى طبقات عدة نجده ينقسم الى الآتى :

---

(١٥) ابن الاثير : الكامل ، جـ ٧ ، القاهرة ١٣٠٣ هـ ، ص ٦٧ ، ٦٩ ، ١٣٤ .

المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ١ ، القسم الأول ، القاهرة ١٩٤٣ ، ص ١٧ .

(١٦) عن ثورة الزنج ، انظر : ابن الأثير : الكامل ، القاهرة ١٣٠٣ هـ ، جـ ٧ ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ ، المقريزى : السلوك ، القسم الأول ، الجزء الأول ، ص ١٧ ، ١٨ .

١ — طبقة الحكام :

وهى الطبقة الخاصة التى تشمل الخلفاء والأمراء والوزراء وأفراد البيت المالك وكبار القواد ورجال الدولة ، وتمثل الطبقة العليا فى الدولة والتى نعمت بالحياة المترفة . ولقد كان لرجال الدين السيادة داخل نطاق هذه الطبقة فى العصر العباسى الأول ، وبعد ذلك صارت لقواد الترك فى العصر العباسى الثانى .

وقد استفادت هذه الطبقة من مكانتها الممتازة فى الدولة وعاشت فى ثراء وجمعت الثروة مستغلة سلطتها ومكانتها ، وشيدت القصور الفخمة التى امتلأت بالذهب والفضة والجواهر وفاخر الأثاث . كما امتلأت بالجوارى والغلمان . وكانت تعقد فى هذه القصور حفلات متعددة فى مناسبات كثيرة تمد فيها الموائد والأسمطة وينثر فيها الذهب والدنانير ، كما اشتهرت هذه القصور بمجالس الغناء والطرب والموسيقى ومجالس رجال العلم والأدب والقصاصين والوعاظ .

٢ — طبقة العلماء والتجار :

ولقد اتصلت هذه الطبقة بطبقة الخاصة نظرا لارتباطها بطبقة الحكام . وكان من مآثر هذا العصر تشجيع العلم والعلماء والنهوض بالعلم وتكريم العلماء ، لذلك عاش العلماء فى رغد العيش،وكان لهم زيهم الخاص وطرازهم الخاص . وكان الحكام يغدقون على من اتصل بهم من العلماء والأدباء والشعراء ويخصصون لهم رواتب ثابتة . وكان للعلماء تأثيرهم فى المجتمع وقام بعضهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ووقف بعضهم أيضا ضد الحكام المنحرفين ، وحاربوا الزندقة فى العصر العباسى الأول محاربة شديدة .

ومثل التجار ارستقراطية المال فى الدولة بعد ازدهارها اقتصاديا وكان بعضهم من العلماء ، وتعامل الأثرياء منهم فى السلع القيمة وفى بضائع الشرق الغالية ، وارتبط بعضهم بقصر الخلافة والحكام ورجال الدولة ارتباطا مباشرا ، لذلك مالوا الى الثراء . وكان بعضهم يقرض الدولة اثناء ازماتها ، وتعرض بعضهم ايضا للمصادرات من قبل الحكام والحبس والقتل .

٣ — الحرفيـــون والصناع :

كانوا يؤلفون فئة نشطة فى المجتمع ، وينتمون الى عناصر وطوائف ومذاهب مختلفة . ولقد تكفل اصحاب كل حرفة بتنظيم مصالحهم المشتركة ، وكان الحرفيون والصناع يشكلون الطبقة المتوسطة الخطرة التى ســـكنت المدن ومالت الى العامة فى ثوراتهم ضد الحكومة ، وارتبطت هذه الطبقـــة مع بعضها بروابط المصاهرة . وكان أرباب كل حرفة او صنعة يسكنون فى حى يعرف باســـمهم .

٤ — عـــامة الشـــعب :

كانوا يمثلون غالبية الشعب وينضم تحت لوائها الفلاحين والعمـــال وصغار الحرفيين . ولقد اطلق عليهم المؤرخون اسماء مختلفة : كالدهمـــاء والغوغاء والحشرات والحرافيش . وتألفت من هذه الجماعة جماعة العيارين والشطار الذين تميزوا بالطابع الثورى ضد الحكومة ، وكانت لهذه الجماعات تنظيماتها المدنية والعسكرية ، وكانت تشارك فى الشـــرات وتتســـبب فى الاضطرابات والفوضى فى البلاد . وكانت الدولة تتملقهم فى بعض الأحيـــان وتنعم عليهم بعض الانعامات اتقاءا لشرهم . ولقد شارك عامة الشعب فى الثورات التى قامت ضد الخلافة العباسية وخاصة ثورتى الزنج والقرامطة وقاموا بأعمال السلب والنهب .

٥ — الرقيـــــق :

كلمة تطلق على من فقد حريته من الناس واصبح ملك غيره ، ولقـــد اطلق الكتاب على المسترق ، الأبيض مملوكا والأسود عبدا والنساء البيض جوارى والسود اماء .

وتقضى تعاليم الاسلام ، او على الاقل المبادىء التى استنبطها الأئمـــة من أصول الأحكام وجرى عليها العمل حتى العصر العباسى — بأن ســـبب الرق هو وقوع الكافر اسيرا فى يد المسلمين عند الحرب . فاذا حـــارب المسلمون الكافرين فمن اسر من المحاربين منهم جاز للامام ان يسترقه ، كمـــا يجوز له ان يسترق اهل البلد الذى فتح فى الحرب رجالا كانوا او نســـاء ، وهذا الكفر والوقوع فى الأسر هما سبب الرق . ولا يشترط لأجل بقاء الرق

بقاء سببه ، فلو وقع كافر فى الأسر فاسترق ثم اسلم لا يزول عنه الرق ، وهذا الرقيق يعد مالا شأنه فى ذاك شأن المتاع ، فمن استرق فى الحرب عد جزءا من الغنيمة كالآلات الحربية والنقود والخيل ، وعلى الجملة مثله كمثل كل شيء مقوم وقع فى يد الفاتحين . وشأن هذه الأشياء ان الامام ينقلها الى دار الاسلام ثم يأخذ خمسها يصرفه فى الصالح العام من اعطاء للفقراء والمساكين وصرف فى وجوه البر المختلفة . وأما اربعة الأخماس فتوزع على من اشترك فى القتال . والرقيق يفعل به ذلك فخمسه للصالح العام والباقى يقسم على المقاتلين . وقد ميزوا عند القسمة على المحاربين بين الخيالة والرجالة فجعل للفارس سهمان فى قول بعض الفقهاء وثلاثة فى قول بعضهم وللراجل سهم واحد . على هذا النمط ايا كان توزع الرقيق .

وكانت الحروب فى صدر الاسلام دائمة والنصر مستمر متلاحق والأمم المغلوبة كثيرة ، من أجل ذلك ازداد الرقيق على الدولة الاسلامية وتنوع مع الأمم التى اشترك معها المسلمون فى قتال . وبهذه الطريقة انتشر الرقيق بين المحاربين ودخل فى بيت كل منهم . وبما أن الرقيق يعد مالا تجرى عليه عقود البيع والشراء ، لذلك اصبح الرقيق فى متناول الناس جميعا وله سوق يباع فيه ويشترى .

ولقد أحل للرجل ملك اليمين ، اعنى ملكية الرجل للامة قال تعالى : « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم »(١٧) . « والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم او ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين »(١٨) فمن ملك جارية جاز لهأن يتسراها وهى حل له سواء كان متزوجااو غيرمتزوج، وسواء أكان متزوجا واحدة او اربعا ولا يتقيد الرجل فى ذلك بعدد ، فله ان يملك من الجوارى ويتسرى منهن ما شاء من العدد وان كثر . من أجل ذلك كان البيت الاسلامى فيه — غالبا — زوجة أو زوجات وكان بجانبهن عدد من الجوارى قد تسراهن رب البيت . وكثيرا ما كان يقع الخلاف بين الحرائر والجوارى السرارى وذلك طبيعى حتى ذهب بعض اللغويين الى ان تسميتهن

---

(١٧) النساء : ٣ .

(١٨) المؤمنون : ٥ .

بالسرارى كان سببه الغيرة والسرية منسوبة الى السر وهو الاخفاء لأن الانسان كثيرا ما كان يسرها ويسترها عن حريمه .

وهذا الرقيق من رجال ونساء لا يسترد حريته الا بأن يعتقــه مالكه . واذا ما ولدت الأمة من سيدها سميت « ام ولد » ولقد رفعها الفقهاء فــوق منزلة الجارية التى لم تلد منه ومنحوها حقوقا لم تنلها غيرها اهمهـــا : انه لا يصح لمالكها (وهو مستولدها) أن يبيعها ولا يهبها . وعلى ذلك جـــرى جمهور الفقهاء ، ولكنها تبقى حلا لمالكها حتى يموت ، فاذا مات صارت حرة تجرى عليها احكام الحرائر ، اما الأولاد الذين جاءوا منها فأحرار(١٩) .

هذا هو الوضع القانونى لمسألة الرقيق والنظام الذى كان يسود عصرنا الذى نؤرخه وهو قدر لا بد منه لفهم الدور الاجتماعى لهذا الرقيق فى المجتمـــع الاســـــلامى .

وانتشرت تجارة الرقيق فى المملكة الاسلامية بسبب انتشارها فى عالم ذاك الوقت ، وكان فى بغداد شارع يسمى « دار الرقيق » . وقد ســـمى تاجر الرقيق نخاسا ، وكان فى الاصل لقب يطلق على بائع الدواب . واشتهر فى العصر العباسى الأول فى بغداد كثير من النخاسين ، وسبب شـــهرتهم ما لهم من جوار حسان يأوى اليهن الشعراء والأدباء منهم بالكرخ : نخـــاس يكنى أبا عمير كان له جوار قيان لهن ظرف وكان من جواريه جارية تســـمى عبادة هواها الشاعر عبد الله بن البواب وقال فيها شعرا جميلا . ومنهم أبو الخطاب النخاس كان له جارية مغنية تعرف بذات الخال كان يهـــواها

---

(١٩) قال رسول الله (ص) : أيما امة ولدت من سيدها فانها حرة اذا مات : الا أمة يعتقها قبل موته . « ونحن لا نجد بين خلفاء العباسيين جميعا من ولد من أبوين عربيين سوى ثلاثة : السفاح والمهـــدى والأمـــين وامهات باقى الخلفاء من الجوارى . فأم المنصور : ســـلامة البربرية ، أم الرشيد : الخيرزان تركية ، أم المأمون : مراجل الفارسية ، ام المعتصم : ماردة تركية ، وأم المستعين صقلبية ، وام المستضىء ارمينية ، ولقد الف ابن بطلان الطبيب كتابه العامى فى تجارة الرقيق وعنوانه : رسالة جامعة لفنون نافعة فى شراء الرقيق وتقليب العبيد » .

ابراهيم الموصلى . ومنهم حرب بن عمر الثقفى وكان نخاسا له جارية مغنيـــة كان الشعراء والكتاب وأهل الادب ببغداد يختلفون اليها ليسمعونها وينفقون فى منزله النفقات الواسعة ويقدمون له الهدايا القيمة .

وكان على تجار الرقيق عامل من عمال الحكومة يشرف على اعمالهـــم ويراقب تجارتهم يسمى قيم الرقيق .

وكان هؤلاء الأرقاء من اجناس متعددة والوان مختلفة ، وكان لـــكل نوع منهم ميزات خاصة . ولقد امتلأت قصور الخلفاء والأمـــراء والوزراء بأعداد كبيرة من رقيق مختلف الأجناس والالوان .

واتجه النخاسون فى العصر العباسى الى تعليم الرقيق لرفع اثمانهم عند البيع وكانت اكثر عنايتهم بتعليم الجوارى الغناء ، فقد انتشر الغنـــاء فى هذا العصر انتشارا كبيرا وكان حاجة من حاجات الناس الضرورية آنذاك . فنرى المغنيين والمغنيات فى المحال العامة وفى الشوارع وفى قصور الخلفاء وفى بيوت الأغنياء والفقراء . ونما ذوق الناس فى الغناء نموا كبيرا وملئت الكتب بالحكايات عنه ، ولم يتحرج الخلفاء ولا اولادهم عن سماع الغناء او قيامهـــم بـــه .

وكان ابراهيم بن المهدى (عم المأمون) يغنى وكذلك اخته عليه بنت المهدى ويحدثنا صاحب الاغانى أن الخليفة الواثق والمنتصر كانا يغنيان وكانا يجيدان الغناء كذلك المعتصم . وقد تعهد ابو الفرج الأصفهانى فصلا طويـــلا ممتعا لأولاء الخلفاء وصنعتهم فى الغناء(٢٠) .

ودعا تعليم الناس الغناء للجوارى تعليمهم الأدب ، لأن الناس فى ذلك الوقت يتغنون بالشعر العربى الفصيح مثل شعر ابن ابى ربيعة وبشار وأبى العتاهية ، والمغنية لا تحسن أن تغنى شعر هؤلاء الشعراء الكبـــار الا اذا حفظت كثيرا من الشعر واتقنت مخارج الحروف واطلعت على كثير من الأدب . وسمعنا عن مغنيات كن يغنين بما يخترعن من شعر وما يضعن من لحن .

---

(٢٠) الأصفهانى : الأغانى ، جـ ٧ ، ص ٣٥ .

وكانت عريب المغنية تقول ، الشعر لمغنيات ليتغنين به . وتعلم الجارية الغناء والأدب يرفع من ثمنها ويضاعفه أضعافا ، فقد بيعت جارية بثلثمائة دينار فلما علمها ابراهيم بن المهدى الغناء بيعت بثلاثة آلاف دينار . وبيعت عريب بخمسة آلاف وكان ثمنها ثلثمائة . واشترى الرشيد جارية من الموصل كانت تجيد الغناء حسنة الصوت بـ ٣٦ ألف دينار .

وكان ابراهيم الموصلى مغنى الرشيد من أكثر الناس نشاطا فى تعليم الجوارى وتثقيفهن ومن أسبقهم فى التوجيه الى ذلك ، وكذلك حذا حذوه ابنه اسحق مغنى المأمون(٢١) .

والى جوار الجوارى المغنيات الخاصة كان هناك القيان العامة(٢٢) واكثر ما يكون ان نخاسا يملكهن فيعرضهن للغناء فى محال يأوى اليها الفتيان لسماعهن والانفاق عليهن . من نماذج ذلك ما حكاه لنا صاحب الأغانى عن ابن رامين : فقد كان له نزل بالكوفة وله جوار مغنيات أشهرهن اسمها « سلامة الزرقاء » وكان ابن رامين بالكوفة يجتمع فى بيته الفتيان للسماع والشراب . ويقولون فيه وفى فتياته الشعر وممن كان يختلف اليه معن بن زائدة وابن المقفع ومحمد بن الأشعث وغيرهم يسمعون وينفقون عن سعة وينشدون أشعار الغزل(٢٣) .

وهذا النوع من الجوارى اثر اثرا سيئا فى نشر الخلاعة والمجون وقد انعكست خلاعة الفتيان فى شعر الشعراء الخليعيين فى ذلك العصر من أمثال ابى نواس . وكتب الجاحظ رسالة فى القيان ابان فيها هذا الأمر .

---

(٢١) كان فى بغداد سنة ٣٦٠ هـ اربعمائة وستون جارية تغنى ، واشتهرت وقتها حبابة جارية ابى تمام ، اشتراها معز الدولة البويهى بمبلغ ٣٠ ألف دينار .

(٢٢) احمد امين : ظهر الاسلام ، جـ ١ ، ص ١٢٧ .

(٢٣) أورد النويرى عددا من هؤلاء القيان منهن : جميلة مولاة بنى سليم ، وعزة الميلاء وهى مولاة للانصار ، وسلامة القس ، وشاجى ، وبصبص ، وذات الخال ، ودنانير (النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٥ ، ص ٤١ ، ١١٦) .

ولقد اغتبط الأدباء بما أنتجه نظام الرقيق فى الحياة الاجتماعيـــة من ظهور طبقة الجوارى وما قدمته هذه الطبقة من فن بديع وغناء رفيع وشـــعر رقيق ، لكن رجال الدين والخلق ساءهم ما نتج عن ذلك من لهــو خليــع واستهتار شنيع . وأخذ الأولون يحثون الناس على الاستمتاع بالحيـــاة ، واخذ الاخرون ينعون على الناس لهوهم وفجورهم ويدعون الى الزهد فى الحياة والهرب من لذائذها ، وهما اتجاهان لأزما المجتمع الاسلامى واســـتمر الصراع بينهما زمنا طويلا .

هذا ولقد قام الرقيق على اختلاف أنواعه بأعمـــال كثيرة فى الـــدولة الاسلامية اشتركوا فى الحياة السياسية والاجتماعية ، فمنهم من كانوا جنودا وقوادا تستعين بهم الدولة فى حروبها . وقد وصل كثير من الأرقاء المعتقين الى مراكز سامية ، فمنهم من تولى قيادة الجيوش مثل مؤنس الخـــادم فى العراق وجوهر الصقلى فى المغرب ومصر . ومنهم من حكم الولايات مثـــل كافور الأخشيدى فى مصر وسبكتكين التركى فى بلاد الأفغان ، ومنهـــم من الرجال من قام بالأعمال الصناعية والتجارية لسادتهم .

ثانيا — أهل الذمة فى الاسلام

الذمة فى اللغة هى العهد والأمان والضمان ، وأهـــل الـــذمة هم المستوطنون فى بلاد الاسلام من اهل الكتاب ، وسموا بهذا الاسم لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم واعراضهم واموالهم ، وصاروا امانة فى ذمـــة المســـــلمين .

أهل الكتاب هم اصحاب الكتب المقدسة من النصارى واليهود ، وقـــد الحق بهم فى زمن عمر المجـــوس (الزرادشـــتيون) ، وفى زمن المـــأمون الصابئة(٢٤) (عبدة النجوم) واسم اهل الذمة عم اســـتعماله فى الـــدولة الاسلامية للدلالة على غير المسلمين وبصورة خاصة على النصارى واليهـــود وهم الذين يعيشون فى ذمة المسلمين وحمايتهم .

---

(٢٤) التقى المأمون بجماعة الصابئة أثناء مروره بحران سنة ٢١٥ هـ وهو فى طريقه الى جبهة الروم (ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٢٠) .

موقف الرسول والشرع الاسلامى من الذميين :

يوضح معاملة الرسول للمسيحيين فى عهده لأمير ايله المسيحى ولاقباط مصر ونصارى الشام . ويتلخص ما جاء فى تلك العهود بأن للذميين حق الأمان فى الدولة الاسلامية على نفوسهم وأموالهم ، وحق الحماية الدينية فى الاعتقاد وممارسة الشعائر وحق السكن وممارسة الأعمال المختلفة . الا أنهم مقيدون فى تغيير الدين فلا تغيير الا للدخول فى الاسلام ولا يسمح بزواج المسلمة من غير المسلم ، ولا يسمح بتوارث أهل ملتين(٢٥) .

وواجب على اهل الذمة دفع الجزية ، وعدم الاجتماع على قتال المسلمين وعدم فتن المسلم عن دينه وقطع الطريق عليه او قتله او معونة المشركين فى قتال او تجسس او ايواء اعداء الدولة ، وعدم التعرض لكتاب الله ولنبيه او للاسلام بما لا ينبغى .

أهل الذمة والدولة الاسلامية :

كان رئيس النصارى اليعاقبة هو البطريق ورئيس النساطرة الجاثليق النسطورى(٢٦) كذلك كان لليهود رئيسان : رئيس سياسى هو رأس الجالوت ورئيس دينى هو الجاعون(٢٧) .

ولقد عادت لرؤساء النصارى واليهود مكانتهم الرسمية فى الدولة الاسلامية وصار الذميون ينتخبون رؤسائهم بأنفسهم ، وكان الخلفاء يصدرون مراسيم يقرون انتخابهم كأنهم موظفون حكوميون . كما كانوا يعتبرونهم

---

(٢٥) عطية القوصى : اليهود فى ظل الحضارة الاسلامية ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٩ .

(٢٦) المذهب النسطورى هو المذهب البيزنطى الرسمى ، وهم اليوم طائفة الروم الأرثوذكس .

(٢٧) عن وظائف اليهود الدينية والسياسية فى ظل الدولة الاسلامية ، انظر للمؤلف كتاب اليهود فى ظل الحضارة الاسلامية ، صفحات ٣٥ — ٦٤ .

الممثلين الرسميين لطوائفهم . وكان يطلق فى يوم ما على حاخام اليهــود فى دار الخلافة ببغداد لقب « سيدنا راس الجالوت ابن داود » . وتركت الدولة لهؤلاء الرؤساء الدينيين حق القضاء بين رعاياهم وحق تعيين القضاة الشرعيين بينهـــم .

وقد استخدمت الدولة فى وظائفها اهل الذمة على نطــاق واســع واستعملوهم فى مختلف وظائف الدولة وفى الوزارة . وقد اشتهر من موظفى الـــذمة :

فى العهد الأمــوى :

سرجون الرومى كاتب معاوية واثناسيوس الرهاوى رئيس الدواوين فى مصر أيام عبد الملك وكان ينعت بالكاتب الأفخم .

اما فى العهد العباسى :

نجد عددا كبيرا من كتاب بلاط الخليفة من النصارى ونجد منهم بعض الوزراء مثل عبدون بن صاعد ونصر بن هارون (وزير عضد الدولة البويهى). كذلك وزر الذميون للفاطميين مثل منشا اليهودى وكــذلك ايام الأيــوبيين والمماليـــك .

كذلك نجد من اليهود كبار اطباء البلاط الخلافى . ونرى منهم كبــار الصيارفة والجهابذة ، ونرى من وصل منهم الى الوزارة مثل يعقوب بن كلس وزير العزيز الفاطمى .

اهل الذمة فى المجتمع الاسلامى :

برغم الموقف الشرعى السمح الواضح فان علاقات الذميين بالمجتمــع الاسلامى لم تمض على نسق واحد خلال العهد الاسلامى الطويل وفى بقاع الاسلام المختلفة لأنها كانت تتأثر احيانا بالأوضاع الداخلية او بأهواء الحــكام او بالأحداث الخارجيـــة .

وظهرت بعض القيود وحدثت بعض الاضطهادات لفترات وجيزة كانت تمر سراعا وتلغى فحدث ذلك ايام الرشيد والمتوكل والحاكم بأمر الله وفى عصور الحروب الصليبية على ان حسن المعاملة كانت هى الصفة الدائمة .

ولقد استمرت الكنائس والمعابد اليهودية تبنى فى البلاد الاسلامية برغم مما تذكره العهود من عدم السماح للذميين ببناء كنائس ومعابد جديدة فى الاسلام .

كذلك أظهر الذميون شعائرهم الدينية العامة فى امصار المسلمين ، فكانت النواقيس تقرع والأبواق تنفخ والمواكب الدينية تسير بالصلبان والمجامر دون اعتراض ، ولدينا أوصاف كثيرة لاحتفالات الأعياد المسيحية واليهودية والمجوسية فى مصر والعراق وفارس . وكانت هذه الأعياد فرصة للهو جميع الناس وكثيرا ما كان الخلفاء والحكام يشاركون فيها تكرمة لأصحابها(٢٨) .

ولقد تميز الذميون فى معظم العهود بنوع خاص من اللباس وبوضع منطقة أو نحوها حول الوسط (الزنار) وقد كانوا يفعلون ذلك من تلقاء انفسهم ايام الراشدين . ولقد شدد بعض الحكام عليهم فى اتباع ذلك مثل عمر بن عبد العزيز والرشيد والمتوكل والحاكم بأمر الله الفاطمى تمييزا لهم عن المسلمين(٢٩) .

وقد تخصص اهل الذمة فى بعض الأعمال فى المجتمع الاسلامى . وعملوا فى الزراعة وتخصصوا فى بعض الصناعات كالصباغة والدباغة والنسيج . وكان معظم الصيارفة من اهل الذمة وبخاصة اليهود .

---

(٢٨) تحدث المقريزى كثيرا عن الأعياد المسيحية فى مصر فى كتابه المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بكتاب الخطط .

(٢٩) عطية القوصى : اليهود فى ظل الحضارة الاسلامية ، ص ١٢ ، ١٣ .

ثالثا — حيـاة المـدن الاسـلامية

اخذت الحياة المادية للعرب فى التطور عند سكنى المدن فى تبـاعد ما بينها وبين الجيل الماضى ، فالعرب الأوائل كانوا اقرب الى البساطة فى حياتهم منه الى التعقيد . وكان العصر الأموى عصر صراع بين حياة البداوة الأولى الجافة وبين حياة المدنية المنعمة ، وكان هنالك خلفاء اتقياء يقضون ايامهم فى الجد وادارة الملك والعبادة وخلفاء غارقون فى الغناء والموسيقى والشراب . وكان من ورائهم الشعب ، فى المدن خاصة ، يقلدهم ويقفى اثرهم وتتنازعهم حياة اللهو والترف وحياة التقوى والزهد .

ولقد ظهر التغير واضحا على المسلم ساكن المدينة ، لم يقتصر الأمـر على الناحية المادية بل تعداه الى الناحية العقلية ، فما كان يعرفه العـربى فى البادية صار خلاف ما يعرفه فى المدينة ، كان الأول يعرف من الشـئون العقلية فقط الأدب الجاهلى والشعر الذى كان يقال فى الاسـلام وما كان يقوله الشعراء الشبان كجرير والفرزدق ، ولم يكن يعرف اكثر من هذا الا القرآن وبعض السنن واخبار بعض البلاد . لكن هذا الجيل الذى عاش فى المدن ونشأ فيها نشأة مختلفة اختلافا شديدا ، « خصوصا » فى الطبقـات الارستقراطية ، هو شباب عربى لكن عروبته لم تعد صافية وانما صـارت مختلطة اختلاطا شديدا . لقد عاش فى المدينة وفى داره نساء من بيئـات مختلفة عربيات وغير عربيات ، حرائر واماء ،وكان تأثير هؤلاء النسوة فى تكوين هذا الشباب وتثقيفه العقلى شديدا ، كذلك كان تأثير البيئات الجديدة المغايرة التى عاش فيها فهذا الجيل الثالث لم يكن جيلا عربيا خالصا بالمعنى الدقيق من ناحية التكوين العقلى ومن ناحية التثقيف كما كان الجيـل الأول والثانى(٣٠) . عاش هذا الجيل فى ترف لم يكن يعرفه فى شبه الجزيرة ، وتدفقت على دولته ثروات لم يكن يحلم بها ، وقد استتبع ذلك الوانا من الترف المادى كمجالس الغناء والطرب والشراب ، ومعرفة الوان جديدة مختلفة من الطعام واللباس ، وسكنى قصور فسيحة ، واقامة حفلات ومآدب حافلة ، والتسلية بأنواع جديدة من ضروب التسلية لقتل وقت الفراغ .

---

(٣٠) طه حسين : من تاريخ الأدب العربى ، ص ١٩ .

ولا نبالغ اذا قلنا ان المدن العربية الكبرى كبغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة كانت فى تلك العصور أشبه بعواصم العالم المتمـــدن فى العصر الحاضر من حيث سعتها وعظمتها واحتوائها على المتناقضات . فالى جانب القصور الشاهقة والحدائق الغناء توجد الأكواخ الفقيرة والبيوت الحقيرة ، والى جانب طبقة غنية مترفة تصرف الأموال بدون حساب ، طبقة فقيرة معدمة تكدح ليل نهار للحصول على القوت الضرورى .

وتمثلت مظاهر التغير فى المدن فى المظهر المادى فى أمور الطعـــام والشراب والملبس والمسكن وفى الاحتفالات بالأعياد وفى اتخاذ أنواع جديدة من التسـلية .

ففى الطعام والشراب ، ظهرت أنواع جديدة من الأطعمة الفارسية والتركية التى لم يكن يعرفها العرب الأوائل . وفى كتب الأدب ذكـر لكثير من أنواع هذه الأطعمة وطريقة صنعها . ومن هذه الأطعمة الجديدة : السكباج ، وهو لحم ضأن مطبوخ بالخل ، والهريسة ، والفالوذج ، والجلاب . ومن أنواع الشراب ظهر العدبد ، ولم يتحرج الناس ولا بعض الخلفاء من شرب النبيـذ(٣١) .

أما المسكن ، فلقد شهدت هذه المدن المبانى الفخمة والقصور الواسعة المحاطة بالحدائق الغناء ، وبخاصة قصور الخلفاء وقصور خاصة القـوم ، وقد فرشت هذه القصور بأفخم أنواع الأثاث والفرش . وتعددت انـواع الملابس فى المدن للرجال والنساء بما كان يصنع فى دور الطراز من الحرير والقطن والكتان(٣٢) .

وفى الحفلات والأعياد : تجلت مظاهر الاحتفال بعيدى الفطر والأضحى، فضلا عن الاحتفال بالأعياد القومية وأعياد اهل الذمة وبخاصة عيدى النيروز والمهرجان ، وهما من أهم اعياد الفرس القديمة .

واحتفل الفاطميون فى مدن مصر بأعياد آل البيت ، والأعياد القومية وبالغوا فى تزيين هذه المدن فى هذه الأعياد بالزينات والأضواء . وكان سكان

(٣١) طه حسين : من تاريخ الأدب العربى ، ص ١٤١ .
(32) Ashtor : Histoire des prix, p. 164, FF.

المدن يخرجون فى هذه الأعياد الى الحدائق والمنتزهات ويتزاورون ويتبادلون الهدايا ويقيمون المآدب(٣٣) .

انواع التسلية :

ظهرت انواع التسلية المختلفة فى المجتمع الاسلامى ، وكان منها الخاص والعام ، كالنرد والشطرنج واللعب بالكرة والصولجان والرمى بالبندق والنشاب والصيد والسباحة والسباق بأنواعه المختلفة . ولقد ذكر المسعودى(٣٤) عند حديثه عن العاب الخلفاء ما نصه : « ان العاب الخلفاء كثيرة بعضها كان معروفا ؛ فى الجاهلية كالصيد والسباق ، وبعضها اقتبسوه من الأعاجم كاللعب بالكرة والصولجان والرمى بالبندق واللعب بالنرد والشطرنج ونحوها . وأسبق الدول الى الاحتفاء بهذه الالعاب العباسيون فى ايام الرشيد ، فانه اول من لعب بالصولجان والكرة واول من رمى بالنشاب فى البرجاس وأول من لعب الشطرنج والنرد وقرب اللاعبين واجرى عليهم الأرزاق » .

وكان خلفاء الأمويين مغرمين بالصيد والسباق ، فكان يزيد بن معاوية أشد الناس كلفا بالصيد ، وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب والحلل المنسوجة منه ويهب لكل لاعب عبدا يخدمه(٣٥) كذلك كان مولعا بسبق الخيل وذكر المسعودى انه كان له قرد يكنى بأبى قيس يسابق بها الخيل يوم الحلبة(٣٦) كذلك كان الخليفة هشام بن عبد الملك يستجيد الخيل ويقيم الحلبة فاجتمع له فيها من خيله وخيل غيره اربعة آلاف فرس ولم يعرف ذلك فى جاهليته ولا اسلام لأحد من الناس(٣٧) .

---

(٣٣) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ١٧٦ — ١٧٨ .
(٣٤) مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٢٥ .
(٣٥) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٥٥ .
(٣٦) ممروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٦٧ .
(٣٧) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ .

وذكر المسعودى ان الخليفة المهدى كان يخرج للصـــيد(٣٨) ، كذلك ذكر ان الفضل بن يحيى البرمكى كان يتشاغل بالصيد(٣٩) ، وان الرشـــيد كان يجرى حلبة الخيل(٤٠) .

كذلك شغل خلفاء الفاطميين فى مصر وسلاطين الأيوبيـــين بالصـــيد وســـبق الخيـــل(٤١) .

وتروى النصوص أن الناس فى مجتمع الدولة الاسلامية فى العصرين الأموى والعباسى كانوا مولعين بمعارك الديكة ، وكانوا يمارسون بانتظـــام الملاكمة والمصارعة والمبارزة بالسلاح والفروسية والبولو الذىعرف عنـــدهم باســـم الحجف(٤٢) .

أما عن اللعب بالنرد (الطاولة) والشطرنج ، فقد شاع اللعب بهما بين العامة والخاصة ، وبخاصة فى العصر العباسى ، بعد ان تعلموا لعبهمـــا من الفرس . ونبغ كثير من اللاعبين المسلمين فى الشطرنج ، وكانت لهـــم الشهرة العظيمة بفضل ما طوروا فى طريقة لعبه وما وضعوه فيه من خطط جديدة . واشهر الاسماء فى لعب الشطرنج هى : الصولى والرازى والماوردى واللجلاج وغيرهم . هذا وكانت لهؤلاء اللاعبين المكانة الخاصة عند خلفـــاء العباسيين الذينشغف معظمهم باللعب بالشطرنج وقربوا رجالهالىمجالسهم واجذلوا لهـــم العطـــــاء .

رابعا — ترف الخلفاء وكبار رجال الدولة

ذكر ابن خلدون فى مقدمته فصلا بعنوان : « فصل فى أن من طبيعـــة الملك الترف »(٤٣) ، قال فيه ما نصه : « وذلك ان الأمة اذا تغلبت وملكت

---

(٣٨) مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٣١١ .
(٣٩) نفس المصدر السابق ، ص ٣٦٢ .
(٤٠) نفس المصدر السابق ، ص ٣٦٨ .
(٤١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، طبعة بريســـتون ١٩٣٠ ، ص ١٩١ ، ٢٠٩ .
(٤٢) جاك ريسلر : الحضارة العربية ، ترجمة غنيم عبدون ، ص ٦٣.
(٤٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٢٠ .

ما فى يدى أهل الملك قبلها كثر رياشها ونعمتها فتكثر عوائدهم ويتجاوزون ضرورات العيش وخشنته الى نوافله ورقيه وزينته ، ويذهبون الى اتبـــاع ما قبلهم فى عوائدهم وأحوالهم ، وينزعمون الى رقة الأحوال فى المطـــاعم والملابس والفرش والآنية ، ويتفاخرون فى أكل الطيب ولبس الأنيق وركوب الفاره ، وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك وترفهم فيه الى أن يبلغوا من ذاك الغاية التى للدولة ان تبلغها بحسب قوتها » .

ولقد استمتع خلفاء الأمويين والعباسيين بترف زائد ، فاق ترف ملوك فارس وقياصرة الروم قبل الاسلام . وشهد على هذا الترف ما ورد عنهـم فى كتب التاريخ والأدب وما تركوه من آثار قصورهم وبقايا عمائرهم . ولقـد كان هذا الترف انعكاسا للثروة الهائلة التى كانت تتفق على عاصـمة الدولة بغداد فى العصر العباسى الأول .

وفى العهد العباسى الأول بنى خلفاء بنى العباس ورجال دولتهم قصورا كثيرة تميزت بفخامة البناء والاتساع وأحيطت بالحدائق الغناء واحتوت بداخلها كل ما يلزم حياة اللهو والترف من احتياجات . ولم يبن أحد من الخلفاء ما بناء الخليفة المتوكل من قصور بسامرا وبغداد ، فلقد ورد أنه ابتنى بها تسـعة عشر قصرا منها : قصر البرج والعروس والجعفرى والتاج والثـريا ، وكان البرج من أحسنها (٤٤) .

ومن روائع قصور العباسيين ودورهم الدار المسماة بدار الشـجرة والتى بناها الخليفة المقتدر وكان بهذه الدار شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم وعليها طيور مصنوعة من الفضة تصفر بطريقة معينة اذا ما حركها الهواء . ووضعت هذه الشجرة وسط بركة كبيرة مدورة من الماء الصـافى وجعل على يمينها تماثيل خمسة عشر فارسا ألبسوا الديباج والسلاح وكذلك بالمثل على يسارها . وكان عدد الخدام فى هذه الدار سبعة آلاف خادم ، منهم ٤ آلاف بيض وثلاثة آلاف سود وبها من الغلمان اربعـــة آلاف خادم وسبعمائة حاجب . وقد بلغ عدد الستور التى نصبت على حيطان هذه الدار ثمانية وثلاثين ألف ستر من الديباج . اما البسط فى الممرات والصحون فكان عددها اثنين وعشرين الفا .

---

(٤٤) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٤٠٦ .

كذلك ظهر الترف فى حياة الوزراء ، ويحكى عن الوزير على بن الفرات وزير الخليفة المقتدر العباسى انه كان يملك اموالا كثيرة تزيد على العشرين مليون دينار وكانت داره مدينة قائمة بذاتها ، وكانت مطابخ داره تعمل ليـــلا ونهارا لما كانت تزود به المقيمين فيها والواردين عليها من الكتاب واصـــحاب الـــدواوين .

ولقد بنى عضد الدولة البويهى له قصرا بشـــيراز بلغ عدد حجـــراته ثلاثمائة وستين كان الأمير يجلس كل يوم فى واحدة منها على مدار الســـنة وقد احاط هذا القصر ببستان بلغت نفقة وصول الماء اليه خمســـة ملايين درهم(٤٥) .

كذلك كان بقصر خماروبه بركة من الزئبق طولها ٥٠ ذراع وعرضـــها ٥٠ واحاطت بقصوره البساتين المزهرة .

وبلغ ترف الفاطميين مداه وتجلى ذلك فما ذكره عنهم الكتاب وعما خلفوه من خزائن للفرش والأمتعة والسلاح ما خلفوه من حلى وأحجار كريمة وما بنوه من قصـــور لهـــم ولأفـــراد اسرتهم(٤٦) .

---

(٤٥) تكلف بناء هذه القصور ٢٤٧ مليون درهم فضة و ١٠٠ مليون دينار ذهب

(Coitien : studies in Islamic History and Institutions, Leiden 1968, P. 226.)

(٤٦) أورد المقريزى فى خططه الكثير عن هذه المخلفات . وعلى من يريد التوسع فيها الرجوع الى هذا المصدر التاريخى الهام بصـــدد هذا الأمـــر .



الفصل الرابع

الحيـــــاة الاقتصـــــادية
فى
الدولة الاســلامية

١ ـــ الزراعـــة

٢ ـــ الحرف والصناعات

٣ ـــ التجـــارة ٠

(أ) الأسواق والتجارة الداخلية

(ب) التجـــارة الخارجيـــة والمؤسسات التجـــارية

(د) النقود والمعـــاملات المـــالية فى التجـــارة

١ ـ الزراعـــة

ضمت الدولة الاسلامية بين جنباتها اقاليم زراعية ، كانت الزراعة هى الحرفة الرئيسية فيها ، مثل : بلاد الشام والعراق وخراسان وبلاد ما وراء النهر ، ومصر وشمال افريقية وبلاد الأندلس .

ولقد تأثرت هذه البلاد ، فى بادىء الأمر ، بهجرة العرب البدو اليها واستقرار اعداد منهم بينهم ، وكان العرب لا يحترفون الزراعة ، فقل انتاج الأرض من المحاصيل ، بادىء الأمر ، بسبب جهل العرب بالزراعة وعدم حذق اصولها ، اضافة الى ترك عدد من مزارعى البلاد المفتوحة ارضهم وخلو هذه الأرض من العاملين فيها ، اما بسبب الموت فى الحروب ، أو الهرب وترك الأرض الى بقاع اخرى تكون اكثر امنا لهم .

ولما استقرت الأحوال فى البلاد المفتوحة وأمن الناس الحكم الجديد وعرفوا عدالته وانصافه ، استقرت احوال الزراعة ، وعادت الأرض تنتج ما كانت تنتجه من حاصلات ، بل ان عدد هذه الحاصلات قد زادت نتيجة للامن والأمان اللذين وفرهما الحكم الجديد(٤٧) .

ولقد تقسمت الأرض الزراعية فى البلاد المفتوحة الى ثلاثة انواع(٤٧) ارض خراج ، وارض عشرية ، وارض وقف او (حبوس) ، واختلفت الفدية المحصلة على كل نوع من هذه الأراضى حسب التشريع الاسلامى وحسب ما كانت تغله وتنتجه من حاصلات(٤٨) .

ولقد عملت الدولة الاسلامية على تقدم الزراعة ، لأن الخراج الذى كانت تحصله منها كان يشكل الدخل الرئيسى لبيت المال . ومما يؤيد ذلك ، ان جباية السواد ، وهو جزء من العراق ، بلغت زمن المعتصم ثلث خراج الدولة بأكملها ، حسب رواية قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى(٤٩) .

---

(٤٧) راجع النظام المالى فى الدولة الاسلامية .

(48) Cahen : Economy, Society, P. 51.

(49) Cahen : Op. Cit., P. 518.

ولنهوض الزراعة ، عمل الخلفاء الأمويون والعباسيون ، على نشر الأمن وتأمين الطرق فى البلاد ، وقاموا بانشاء المشروعات التى تساعد على تقدم الزراعة ، مستفيدين فى ذلك من خبرات الفرس والمصريين . ومن هذه المشروعات التى اولوها عنايتهم وخدمت الزراعة . تنظيم الرى والاهتمام بأمره ، وبخاصة فى بلاد فارس والعراق ، حتى ان الدولة العباسية افردت ديوانا خاصا للرى كان يشرف عليه موظف مسئول كبير يعاونه عدد كبير من الموظفين والعمال . كذلك عملوا المصارف وشقوا الترع والقنوات واقاموا القناطر والسدود وبنوا الجسور ، وحفروا الآبار ، ورفعوا الماء الى الأراضى المرتفعة بالنواعير والطواحين الهوائيـــة .

وقد قام العرب بتطوير زراعة بعض المحاصيل وبخاصة قصب السكر والقطن لحاجة الدولة لهما ، كذلك نقلوا الى الأقاليم الغــربية فى الدولة زراعة بعض حاصلات لم يكن يعرفونها ، مثل البرتقال وبعض توابل الشرق . وقد لقى الاهتمام بزراعة القمح والشعير عناية خاصة . ذلك لأن القمح كان الغذاء الأساسى للسكان ، وكان الشعير غذاء الحيوان الرئيسى . وتوســـع العرب فى زراعة الخضراوات فى الحدائق والبقول واشجار الزيتون واشجار النخيــــل .

وكان اهتمام خلفاء الدولة عظيما بالزراعات الصناعية وذلك لتـــزويد الصناعة الهامة لهم بمادتها الخام الأولية ، ومن هذه المـــزروعات القطن والكتان والقصب والسمسم ونباتات الصباغة والزهور والعنب .

وكان توسعهم فى زراعة القطن لحاجة مصـــانع الطراز له لصـــنع الملبوسات المختلفة ، كذلك الكتان الذى كان يصنع منه أرقى الثياب ، فضلا عن صناعة الورق منه بعد استغنائهم عن أوراق البردى التى كانت تستورد من مصر . اما القصب فلقد كانت الدولة تستخرج منه السكر ، وكانت الدولة تتولى زراعته فى أراضيها الواسعة ، وذلك نظرا لزيادة تكلفته وحاجتها له . اما السمسم فكانوا يستخرجون منه الزيت اللازم لطعامهم واضاءتهم . ومن الزهور صنعوا الروائح والعطور ، وكانت أهم مزارعه فى بلدة جور من بـــلاد فارس . وكانت بلده جور تدفع ما عليها من خراج عطورا ترسلها لعاصمة الخلافة . ومن العنب استخرج العرب النبيذ ، للنصارى ولخاصة النـــاس وبخاصة فى العصر العباسى .

واقد اهتم بأمر الزراعة عدد من كتاب المسلمين ، فكتبوا عنهـا وعن انواعها ومحاصيلها وظروف زراعتها وكيفية العمل على تطويرها فى بـلاد مختلفة ، ومن هؤلاء : ابو بكر احمد بن وحشية الكسدانى ، فى كتابه «الفلاحة النبطية» عن الزراعة فى العراق(٥٠) كذلك كتب عن الزراعة فى المغـرب والأندلس الكاتب ابو زكريا يحيى بن احمد بن محمد بن العوام الأشبيلى(٥١). وكتب ايضا عدد من الكتاب فى فارس واليمن(٥٢) ، مما يدل على الاهتمـام الكبير بأمر الزراعة فى الدولة الاسلامية على النطاقين الحكومى والشعبى .

٢ـ الحـرف والصـناعات

تقدمت الحرف والصناعات فى العالم الاسلامى بسبب كمـال عمرانه الحضارى . ولقد عقد ابن خلدون فى مقدمته فصلا بعنوان « فصل فى أن الصنائع انما تكمل بكمال العمران الحضارى وكثرته »(٥٣) ، وبين ابن خلدون فى هذا الفصل مدى تقدم الصنائع فى الدولة الاسلامية ، واستدل على مقدار عمران العالم الاسلامى من جودة صناعته وكمال تأنقها لأنه على حد تعبيره : « على مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ واسـتجادة ما يطلب منها بحيث تتوخى دواعى الترف والثروة .»

ولقد تعددت الحرف والصناعات فى العالم الاسلامى ، حتى انه قد وردت خلال وثائق الجنيزة(٥٤) حوالى أكثر من ٢٦٥ حرفة وصنعة مختلفـة

---

(٥٠) هذه المخطوطة محفوظة بمكتبة المتحف البريطانى بلندن ، تحت رقم Add. 22, 371 ، وهى تقع فى ٢٥٧ صفحة من الحجم الكبير .

(٥١) وكتابه عن الزراعة والفلاحة موجود مخطوط فى مكتبـة المتحف البريطانى بلندن تحت رقم Add. 10,461 ، وقد قسم مؤلفه الى ٣٥ باب .

(52) Cahen : Op. Cit., P. 517.

(٥٣) المقدمة ، ص ٣٤٣ .

(٥٤) هى وثائق تتصل بحياة اليهـود الذين عاشـوا فى مصر فى فى العصرين الفاطمى والأيوبى ، وقد أفادتنا هذه الوثائق فى القاء الضـوء على الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر خلال هذين العهدين . لمعـرفة المزيد عن هذه الوثائق .

أنظر كتاب المؤلف : تجارة مصر فى البحر الأحمر ، صفحات ٨٤ — ٩٠ .

واورد المقريزى فى خططه ٢٤ صنعة اعطت اسماءها للاسواق التالية مثل : سوق النحاسين ، الصوافين الروايحيين ، الحلاوانيين ، الخراطين ، القفاصين ، الفرائين ، الدباغين ، الرزازين ، الشماعين ، القشاشين ، سوق السلاح وغيرها .

ولقد توفرت فى بلاد العالم الاسلامى العوامل التى تساعد على تقدم الصناعة وهى :

— وفرة الثروة المعدنية .

— وفرة الأيدى العاملة ورخصها .

— وجود الطاقة الحرارية .

— سهولة تصريف الصناعات فى الأسواق الخارجية .

ولقد اشتهرت بعض مناطق العالم الاسلامى بثروتها المعدنية مثل :

١ — المغرب العربى : الذهب والفضة .

٢ — مصر والسودان : الذهب والفضة والزبرجد والشب والنطرون .

٣ — الشام : الحديد (حلب ولبنان) ، الرخام (فلسطين) الكبريت (الغور) .

٤ — بلاد الخليج : اللؤلؤ .

٥ — الحجاز : الذهب .

٦ — اليمن : العقيق والعنبر .

٧ — كرمان : الذهب والفضة والحديد والنحاس .

٨ — فارس : الفضة والحديد والرصاص والكبريت والنفط والزئبق والملح .

٩ — بلاد ما وراء النهر : الذهب والفضة والفحم الحجرى والزئبق .

١٠ — خراسان : الذهب والفضة والفيروز والرخام والنشادر والزئبق .

١١ — الأندلس : الحديد والذهب والفضة والنحاس والرصاص والكبريت والبلور .

ولم تقتصر الصناعات فى العالم الاسلامى على الصـــناعات الدقيقة والصغيرة التى اشتهر بها الصانع اليدوى المسلم الذى كان يبدى صبرا وذكاءا فى اخراجها فى الورش والمحلات الصغيرة ، وانما صنع الصناعات الثقيلة مثل السلاسل الضخمة التى كانت تغلق مداخل الابواب ، فضـــلا عن الأبواب الحديدية الضخمة التى كانت فى اسوار المدن وكانت من الحـــديد المطروق(٥٥) . كذلك كان صناع الأوانى النحاسية فى سمرقند يصنعون قدورا تسع أكثر من الف لتر فضلا عن صناعة الأسلحة الثقيلة والخفيفة التى برعوا فيها . ولقد اقيمت فى غرناطة وطليطلة بالأندلس معامل الصـــلب والحديد الكبيرة وقد اشتهرت الأندلس بفولاذها فى كافة أنحاء العالم .

ولقد انتشرت دور الصناعة فى المدن الاسلامية المختلفة ، وكان لـــكل حرفة وصنعة سوق خاص بها فى هذه المدن . ويقال انه فى بغداد وحـــدها ٤ آلاف مصنع لصنع الزجاج وثلاثة آلاف مصنع لصنع الخزف على ســـبيل المثال لا الحصر . هذا فضلا عن المصانع الكثيرة المتنوعة التى أشـــير الى ذكرها فى مدن الدولة الاسلامية المختلفة .

اهم الصناعات ومراكزها :

أ ــ صناعة الزجاج والخزف :

كانت صناعة الزجاج من أصل فينيقى ، ثم تقدمت فى مصر وســـوريا حتى بلغ من تقدمها ان كانت تباع وتوزع بضائع لا حصر لها فى قوارير زهيدة الثمن . وعثر على بقايا تحمل شواهد عن هذه الصناعة مؤرخة من القرن الرابع الهجرى . وصنع الزجاج اولا فى فينيقية وصدرت مصر وسوريا الى حوض البحر المتوسط كل مصنوعاتها الزجاجية ، وسرعان ما ورث المسلمون عن الفينيقيين والسوريين والمصريين مهارتهم فى صنع الزجاج(٥٦) . ومنذ القرن الثالث الهجرى كانت مصنوعات حلب الزجاجية زائدة القيمة ، فكانت هذه المدينة تصنع أكوابا وقوارير وزجاجات متداولة الاستعمال واوانى وآلات من زجاج من اجل الكيمياء مثل انابيب التقطير وغيرها .

---

(٥٥) بعض هذه الأبواب الحديدية لا يزال موجودا الى الآن على حالته الأولى فى بقايا العواصم الاسلامية القديمة .

(٥٦) أبو صالح الألفى : الفن الاسلامى ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٢٥١.

وكانت دمشق تصنع الزجاج المذهب والفسطاط تصنع اقداحا مذهبة . ويحتفظ متحف اللوفر والمتحف البريطانى بتحف زجاجية فاخرة من سـامرا والفسطاط من أقداح واوانى واباريق وقناديل موشاه بألوان براقة ومغطـاه بطلاء ملون بألوان الطيف او ببلاتين معدنى . بلغ صفاء صناعة الزجاج حده فى مدن صيدا وصور . واستخدم المسلمون من بداية القرن الخامس الهجرى صحائف الزجاج فى زجاج النوافذ ، كذلك بدىء فى صناعة قناديل المساجد من عجينة زجاجية مزخرفة ذات الوان متنوعة ، وصنعت المصابيح الزجاجية (الأباجورات) المزينة بنقوش وخطوط ورسوم زاهية . وقد زينت المساجد والقصور بحواجز زجاج دقيقة الصنع جدا متعددة الالوان .

وحدثنا الرحالة الفارسى ناصرى خسرو عن تقدم صناعة الزجاج فى بلدان العالم الاسلامى ، وما وصل الينا الآن فى المساجد الاسلامية المتبقية وما حفظ فى المتاحف العالمية لهو شاهد حقيقى على تقدم المسلمين فى هذه الصناعة الدقيقة .

وفن الخزف هو من أهم الفنون التطبيقية الاسلامية . ولقد تقـدمت الصناعة الخزفية عند المسلمين تقدما كبيرا بما كان معروفا عند اقطار البلاد التى شكلت اجزاء من الدولة الاسلامية فى فارس والعراق والشام ومصر ، وتبادل الخبرات المتعلقة بهذه الصناعات . والدليل على كثرة اسـتخدام الخزف فى بلاد العالم الاسلامى ان الرحالة الفارسى المسلم ناصرى خسرو ذكر انه راى اثناء رحلته فى مصر التجار من بقالين وعطارين وبائعى خردوات كانوا يعطون الأوعية اللازمة لما يبيعون من زجاج او خزف حتى لا يحتاج المشترى ان يحمل معه وعاء(٥٧) .

ولم يكتف الصناع المسلمون بالمحافظة على التقاليد القديمة فى فن الخزف بل أخذوا فى تطويرها وابتكار اساليب عديدة لم تكن معروفة من قبل سواء فى مجال الصناعة او الزخرفة واستفادوا فى تطوير فنهم من الخزف الصينى الذى كان يستورد بكثرة الى العالم الاسلامى . وعرف المسلمون

---

(٥٧) روى ذلك الرحالة الفارسى ناصرى خسرو ضـمن ما روى عن مشاهد رحلته فى كتابه سفر نامة (زاد المسافر) ، ترجمة يحيى الخشاب ، القـاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٠٥ .

صناعة أنواع كثيرة من الخزف مثل الفخار والقاشانى والفسيفساء الخزفية ، وتختلف هذه الأنواع عن بعضها من حيث نوع الطينة او العجينة المستعملة ومن حيث التشكيل(٥٨) .

وكانت بغداد وسامرا والموصل اشهر مراكز صناعة الخزف فى العراق، والرى وقاشان فى فارس ، والفسطاط والقاهرة والفيوم فى مصر ، ودمشق والرقة فى الشام ، ومالقة وغرناطة فى الاندلس .

ب — صناعة المنسوجات :

عندما فتح الاسلام بلاد الشرق كانت به منسوجات مصرية وسورية ومن بلاد ما بين النهرين ومن ايران وحرير مصنوع من بلاد ما وراء النهر . وكانت الأقمشة البيزنطية والقبطية والساسانية لها شهرتها القديمة ، وعرف العرب هذه الأقمشة واستوردوها فى تجاراتهم قبل الاسلام . وفى ظل الاسلام نشطت صناعة المنسوجات فى هذه المراكز وان تميزت بالطابع الاسلامى .

وبدات العناية بالنسيج فىالعصر الأموى ثم ارتقت وتقدمت تقدما سريعا فى العصر العباسى . واتجهت صناعة النسيج اتجاهين : اتجاها شخصيا واتجاها رسميا ، فضلا عن المناسج والأنوال وادوات النسيج الخاصة وجدت مناسج تشرف عليها الدولة ، وكان يطلق عليها اسم الطراز .

والطراز كلمة معربة عن لفظة ترازيدن الفارسية بمعنى يطرز اى اى يوشى ، وقد استخدمت لفظة طراز لتدل على العبارة الرسمية التى كانت تنقش على النسيج أو العملة او غير ذلك من الاشياء ذات الطابع الرسمى . اذ جرت العادة ان تتخذ كل دولة لنفسها طرازا او عبارة متميزة كشعار خاص

---

(٥٨) وصلت الينا امضاءات على قطع من الخزف الفاطمى يظهر فيها أسماء بعض اعلام هذه الصناعة فى ذلك الوقت مثل : مسلم ، سعد ، ابراهيم المصرى ، ابو الفرج وغيره (زكى حسن : كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٥١) .

بها(٥٩) . وكان الطراز المستعمل فى مصر والشام عند فتح العرب لهما هو طراز الدولة البيزنطية واستمر مستعملا الى ان نقله عبد الملك بن مروان الى العربية وجعله « لااله الا الله » واستخدم الطراز العربى فى سائر اقطار الدولة الاسلامية وظل كذلك فى جوهره وكان يتضمن عادة اسم الخليفة او السلطان او ذوى النفوذ من الوزراء والأمراء .

ونظرا الى أن اكثر المواد التى كان يرد عليها الطراز هو النسيج ، كما كان يعمل منه الثياب التى كان يخلعها الخلفاء على رجال الدولة ويهدونها لهم من باب التشريف وعلامة رضاهم عنهم واقرارهم فى مناصبهم ، صارت دور النسيج أو مصانع النسيج تسمى بالطراز وصار المشرف على هذه الدور يسمى صاحب الطراز .

وبدات الدولة تنشىء مصانع النسيج او الطراز منذ اواخر العصر الأموى . ثم تطورت هذه المصانع وازداد تنظيمها فى العصر العباسى وفى الفاطميين . وعرف العالم الاسلامى نوعين من الطراز او من مصانع النسيج هما : طراز الخاصة اى الدور التى تقوم باعداد نسيج الخلفاء والسلاطين وكبار رجال الدولة ، وطراز العامة ، اى الدور التى تقوم بعمل نسيج عامة الشعب .

مراكز صناعة النسيج :

اشتهرت كثير من المدن فى العالم الاسلامى بصناعة النسيج ولا سيما فى مصر وفارس والعراق . وكان للنسيج الاسلامى شهرة عالمية فى العصور الوسطى ، ولا تزال بعض قطع النسيج الاسلامى محفوظة ضمن كنوز الكنائس فى أوروبا كتحف عينية(٦٠) .

---

(٥٩) يقول ابن خلدون عن الطراز (المقدمة ، ص ٢٥٢) : « من أبهة الملك والسلطان ومذاهب الدول ان ترسم اسماؤهم او علامات تختص بهم فى طراز اثوابهم المعدة للباسهم من الحرير او الديباج تعتبر كتابة خطها فى نسج الثوب لحما وسدى بخيط الذهب أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناع » .

(٦٠) الالفى : الفن الاسلامى ، ص ٢٦٤ .

ومن أهم مراكز صناعة النسيج فى مصر : دمياط والاسكندرية وتنيس والفيوم والبهنسا . وكان القطن والكتان ينسجان فى مراكز الصناعة المصرية المختلفة . ومن المعروف ان الولاة المصريين كانوا يرسلون الى الخلافة العباسية كثيرا من المنسوجات النفيسة ضمن الأموال المقررة او الهدايا التى كانوا يبعثون بها الى الخلفاء .

وفى متحف برلين قطعة من النسيج المصرى باسم الخليفة المعتمد مؤرخة ٢٧٨ هـ (٨٩١م) . وقطعة أخرى باسم الخليفة المكتفى والأمير هارون إبن خماروية مؤرخة ٢٩١ هـ (٩٠٤ م) اى قبل سقوط الدولة الطولونية بسنة واحدة .

وكانت أفخم الأقمشة الكتانية تصنع فى مصر فى اقليم دمياط ،(٦١) وتنيس كما ورد على لسان ناصرى خسرو(٦٢) .

وفى مدينة تنيس . ولم يحفظ فى التاريخ من ان قطعة نسيج من الكتان بلغت قيمتها ١٠٠ دينار الا فى تنيس ودمياط مما يدل على تقدم هذه الصناعة ودقتها فى ذلك العصر . واشتهرت هذه المدن بصناعة المنسوجات الموشاة بالحرير والذهب . ووصلتنا مجموعة من قطع النسيج من الصوف والكتان ترجع الى اقليم الفيوم تاريخها حوالى القرن الرابع الهجرى . وقد صنعت هذه المدن القصب الملون والبوقلمون (وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار)(٦٣) وتحمل أثوابه من تنيس الى المشرق والمغرب(٦٤) .

---

(٦١) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، جـ ٢ ، القاهرة ١٩٤١ ، ص ٢٩٧ .

(٦٢) ناصرى خسرو : سفر نامة ، ترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٧٧ ، وللمؤلف بحث عن مدينة تنيس منشور بمجلة العلوم العربية الانسانية التى تصدرها جامعة الكويت ، العدد الثانى ، المجلد الأول ١٩٨١ ، صفحات ٥٧ — ٩٥ . فى هذا البحث برز دور تنيس كأهم مركز لصناعة المنسوجات ايام الفاطميين .

(٦٣) عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر ، ص ٢٠٩ .

(٦٤) ناصرى خسرو : سفر نامة ، ص ٧٧ .

هنالك قطعة حرير عليها كتابة اسم الخليفة الفاطمى المستعلى بالله ووزيره الأفضل شاهنشاه وترجع للفترة ما بين ٤٨٧ و ٤٩٥ هـ/ ١٠٩١ — ١١٠١ م ، اكتشفها فى ١٩٣٤ R. T. Francez وهى محفوظة بكنيسة ببيركيجو بجنوب فرنسا(٦٥) .

والقطعة مساحتها ٢٨١ سم × ١١٣ سم .

وكتب عليها بالخط الكوفى المشجر باسم الخليفة المستعلى بالله ووزيره الأفضل شاهنشاه ما نصه :

أ — ١ — (بسم الله) الرحمن الرحيم لا ا (له الا الل) ه وحده لا شريك له محمد رسول الله ، على ولى الله صلى الله عليهما وعلى أهل بيتهما الأئمة الطاهرين .

٢ — الامام المستعلى بالله امير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين سيف الاسلام ناصر (الأنام) كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين ابو القاسم شـ (اهنشاه الم) ستعلى عضد الله به الد (ين) .

ب — ١ — (بسم الله) الرحمن الرحيم لا اله الا (الله وحده) لا شريك له محمد رسول (الله) على ولى الله صلى الله عليهما وعلى أهل بيتهما الأئمة الطاهرين الامام احمد أبو القاسم المستعلى بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه (الطا) هرين وأبنائه الأك (رمين) .

٢ — (ما امر) بعمله السيد الأجل الأفضل أمير الجيوش المستعلى سيف الاسلام ناصر (الا) مام (كافل) قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبو القاسم شاهنشـ (اه المستع) لى عضد الله به الد (ين)

وفى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة قطعة منسوجة من الكتان بها شريط من الكتابة العربية مرسومة بأسلوب زخرفى جميل يرجع صنعها الى العهد الفاطمى .

---

(65) Wiet, G : Un nouveau rissu farimide,
* Oorientalia, V. V, Roma 1936, PP. 385 - 387.

ووصلتنا نماذج كثيرة من نسيج العراق شهدت بارتفاع مستوى صناعة النسيج به وتقدم صناعة ثياب القطن الفاخرة وعلى الأخص الطيالس ، ومن هذه النماذج قطعة محفوظة فى احدى كنائس مدينة ليون بأسبانيا ترجع الى القرن الرابع الهجرى بها زخرفة هندسية ورسوم طيور وحيوانات جميلة عليها كتابة كوفية نقرأ فيها : « البركة من الله » و « عمل فى بغداد » .

وكانت اكبر مراكز القطن فى فارس تقع فى شرقها فى بلاد مرو ونيسابور وبم (شرقى كرمان) . وفى فارس ازدهرت مراكز كثيرة للنسيج فى مدن مرو وأصفهان وشيراز ونيسابور(٦٦) . وفى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة عدة قطع من نسيج مرو ونيسابور ، نجد على واحدة منها اسم الخليفة العباسى المعتمد على الله وعلى اخرى اسم المقتدر بالله . وفى متحف اللوفر قطعة منسوجة من الحرير والقطن قوام زخرفتها فيلان متواجهان تحتهما شريط من الكتابة بالخط الكوفى نصه « عز واقبال للقائد ابى منصور بختكين اطال الله بقاءه » .. « وهذه القطعة من صنع خراسان ويرجع تاريخها الى القرن الرابع الهجرى .

وكانت مراكز نسيج الكتان بفارس عند مدينة كازرون اكبر المدن الفارسية التى اشتهرت بصنع الثياب الكتانية حتى كانت تسمى دمياط الأعاجم(٦٧) .

هذا وقد بدات فى عصر السلاجقة نهضة كبرى فى صناعة النسيج سواء من حيث ازدياد مراكز النسيج وانتشارها فى سائر الأقاليم التى خضعت لحكم السلاجقة .

وقد استقرت صناعة الحرير بصفة خاصة فى ايران (خوزستان) وجرجان وسجستان ، كما ازدهرت فى طبرستان وارمينيا والعراق . وكان اقليم خوزستان قد اشتهر بصناعة الحرير الديباج ، حيث نقلها اليه الساسانيون من بلاد الروم(٦٨) كذلك اشتهرت مدينة تستر فى هذا الاقليم

---

(٦٦) سرور : تاريخ الحضارة ، ص ١٣١ .
(٦٧) آدم متز : الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٣٠١ .
(٦٨) نفس المصدر السابق ، ص ٣٠٣ .

بحريرها المشجر ذى الشهرة العالمية فى الأسواق ، وينسب اليها الحرير التسترى(٦٩) .

وكانت تصنع الأقمشة الحريرية بدمشق وهى التى عرفت باسم الدمشقى . وليس ادل على ارتقاء صناعة الحرير فى ذلك العصر من الانواع التى اشتهرت وذاعت اسماؤها مثل : الثياب العتابية نسبة الى عتاب احد أحياء بغداد المنسوب الى امير اموى بهذا الاسم ، والخسروانى نسبة الى خسرو شاه احد ملوك الفرس ، والتسترى ، فضلا عن الكوفيات الحريرية المنسوبة للكوفة ، وهى غطاء للراس وللرقبة .

وكانت القاهرة فى عصر الفاطميين مركز صناعة المنسوجات الحريرية، وكانت دار صناعتها فى عهدهم تعرف بدار الكسوة فى عهد المعز ودار الديباج فى عهد الأفضل بن بدر الجمالى . وخزانة البنود التى كان يعمل بها ١٠ آلاف صانع لصنع الثياب الفاخرة .

واشتهرت بعض مدن مصر بصناعة الملابس الصوفية والفرش الصوفية مثل مدن اسيوط والقيس وطحا — احدى قرى الصعيد — التى اشتهرت بصنع الثياب الصوفية الرفيعة التى كانت تصدر الى فارس وعرفت هناك باسم « المصرى » .

كما اشتهرت أصفهان وارمينيا وبلاد ما وراء النهر بصناعة البسط والفرش الصوفية والسجاجيد الغالية الثمن . وكان للبسط التى تصنع فى اصفهان شهرة خاصة منذ زمن بعيد . كما حازت البسط الأرمينية اعجاب الناس فى القرن الرابع الهجرى ، حتى انهم كانوا يفضلونها على غيرها من البسط ، وكان الخلفاء ورجال الدولة وغيرهم من الأثرياء يحرصون على اقتناء البسط الأرمينية(٧٠) .

---

(٦٩) للمؤلف بحث عن مدينة تستر وأهميتها فى العصر العباسى الأول، منشور بمجلة الجامعة الاسلامية بالرباط ، العدد الأول ، ١٩٧٥ .

(٧٠) آدم متز : الحضارة الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ٣٠٣ .

جـ ـ صـناعة الـورق :

كان ورق البردى يجهز للكتابة بمصر منذ زمن بعيد وكان يصنع منـه القراطيس والطوامير ، ويبلغ طول الواحد منها ٣٠ ذراع وعرضها شبر .

ويعزى اختراع الورق الى الصين التى يقال انها ظلت محافظة على سر صناعته ، وكانت الصين تصنعه من ورق الكتان وأطلق عليه « الكاغد » عندما انتقل الى البلاد الاسلامية فى أوائل القرن الثانى . وحدث فى سنة ١٣٥ هـ (٧٥٣ م) ان وقعت معركة عند سمرقند بين القوات الصينية والقوات العربية بقيادة زياد بن صالح الخزاعى واسفرت المعركة (على نهر طراز) عن انتصار العرب وهزيمة القوات الصينية ، وكان ضمن اسرى الصينيين بعض صناع الورق ومنهم عرف العرب سر هذه الصنعة التى ازدهرت فى العـالم الاسلامى ازدهارا كبيرا اثر فى تقدم الحضارة فى الشرق والغرب(٧١) . وأيا ما تكون الصحة فى هذه القصة ، فان الورق لم تصبح له أهمية حضارية كبيرة الا بعد ان صنعه العرب وادخلوا عليه كثير من التحسينات .

ويقال ان انشاء مصانع الورق بدأ فى سمرقند بعد ان احتلها العرب سنة ٩٤ هـ . ٧١٢ م ، وفى شمال شرقى العالم الاسلامى ، ثم اخذت مصانع الورق تنتشر غربا ، فانشئت فى بغداد ثم فى سائر اقطار العالم الاسلامى . وعن طريق العرب انتقلت صناعة الورق الى أوربا حيث كان لها اثر كبير فى النهضة الأوربية ثم فى اختراع الطباعة (وذلك فى القرن ٦ هـ عن طـريق الشام ايام الحروب الصليبية وعرفوها باسم الصحائف الدمشقية) .

ولقد اشتهرت كواغيد سمرقند شهرة فائقة(٧٢) ، حتى انها حلت محل قراطيس مصر حتى قيل (ان كواغيد سمرقند غطت على قراطيس مصر) . ويقول بعض الكتاب ان صناعة الورق البردى انتهت حـوالى منتصف القرن الرابع الهجرى حيث نجد ان ورق البردى المـؤرخ ينتهى فى عام ٣٢٣ هـ

---

(٧١) شاكر مصطفى : دولة بنى العباس ، جـ ١ ، الكويت ١٩٧٣ ، ص ٣٤٨ .

(٧٢) متز : الحضارة الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ٣٠٩ .

(٩٣٥ م) على حين ان الوثائق المكتوبة على الكاغد بدأ تاريخها منذ عـــام ٣٠٠ هـ/٩١٢ م .

ويوجد بمكتبة جامعة ليون أقدم كتاب عربى على الكاغد وهو كتـــاب « غريب الحديث » لأبى عبيد القاسم بن سلام وتاريخ نسخ الكتاب ســـنة ٢٥٢ هـ (٨٦٦ م)(٧٣) .

ولقد أقام الوزير الفضل بن يحيى البرمكى الصناعة الأولى للورق فى بغداد ١٧٨ هـ / ٧٩٤ م . كذلك انتشرت صنعة الوراقة فى مصر فى عهـــد الفاطميين وكانت تشمل صنع الورق ونسخ الكتب وتجليدها ، وانتشرت فى مصر محلات الوراقين . وكان ورق مصر يعرف بالمنصورى . كذلك اقيمت مصانع للورق على مثال مصانع سمرقند فى دمشق وطبرية بفلسطين وطرابلس الشام ، وظلت سمرقند أكبر مركز صناعته فى العالم الاسلامى .

د — الصـــناعات المعدنيـــة :

كانت المعادن تصهر وتطرق وكانت تصـــــنع منها الأباريق والأوانى والأقداح والاكواب والصينيات والمرايا والمصابيح والشمعدانات والمـــواقد والمباخر والآلات الفلكية وأغلفة مصاحف القرآن . وفى العصر الفاطمى فى مصر(٧٤) وسوريا ازدهرت صناعة التحف المعدنية ، وقـــد عرفنا ذلـــك من المخلفـــات القليلة الباقية(٧٤) .

كما قامت فى بلاد العراق صناعات نحاسية مطعمة بالفضة وكـــذلك فى دمشق . وصنعت الأسلحة والدروع من الحديد وكان يطلق عليها اســـم « الدمشقيات » ، وكان الحديد والصلب يجهزان للصـــناعة فى ســـمرقند وأذربيجان والبرونز فى بخارى ونيسابور والنحاس فى الموصل وديار بكر ، كذلك كان تصنيع الرصاص يستخدم فى بناء سقوف المساجد وأنابيب المياه(٧٥)

---

(٧٣) يعد هذا المخطوط من أقدم المخطوطات الموجودة ضمن قســـم المخطوطات بجامعة ليون بفرنسا .

(٧٤) كذلك مما ذكره الرحالة الفارسى المسلم فى كتاب رحلته وما ذكره المقـــريزى فى خططه .

(٧٥) ابن خلدون : المقدمة : ص ٣٩٨ ، ٣٩٩ .

وتدخل جميع هذه الصناعات فى اطار الصناعات المستخدمة الخفيفة ، ذلك لأن الشرق الاسلامى لم يعرف الصناعات المعدنية الكبيرة بالشكل الموجودة عليه اليـــوم .

هـ — الصناعات الخشبية :

كانت صناعة الخشب مزدهرة عند المسلمين وشاهد ذلك ما خلفـــوه للعالم من مشربيات مصنوعة من الخشب المفرغ كانت تكسو النوافذ . وكذلك ما خلفوه من زخرفة خشبية فى مساجدهم وقصورهم فى محاربهـــا ومنابرها وأثاثها وابوابها ونوافذها ومقاعدها . كذلك اجادوا فن الزخرفة على الخشب من نقش وتطعيم(٧٦) .

وكانت الدولة الاسلامية تستورد خشب الساج الهندى ، وكان هـــذا النوع من الخشب يعد احسن ما يستعمل فى بناء البيوت ببغداد وجميع بلاد الشرق . اما أثاث المنازل فكان يصنع فى القرن الرابع الهجرى من اخشـــاب غابات مازندران التى تتميز ببياض لونها المائل الى الحمرة . كذلك اشـــتهر سكان طبرستان بصناعة الأوانى المنزلية من خشب شديد الصلابة عندهم .

أما خشب بناء السفن فكان يجلب من لبنان من شجر الأرز التى كانت تنمو على جباله ومن مناطق الغابات فى كثير من جهات صعيد مصر . كمـــا كان يستورد الخشب الذى يتميز بصلابته من اوربا عن طريق البنادقة . وقد تفوق المسلمون فى صناعة السفن وعملوا على تطويرها لاستخدامها فى السـلـــام والحـــرب .

و — الصناعات الكيميائية :

كان علماء المسلمين يفترضون ان جميع المعادن من نوع واحد ، وكانوا يعتقدون فى امكان تحول هذه المعادن . وعلى هذا بحث علماء الكيمياء فى تحويل هذه المعادن « الخسيسة » مثل الحديد والنحاس والرصاص والقصدير الى ذهب او فضة وذلك بمعونة حجر الفلاسفة وهو مادة تعـــالج بطريقـــة خاصة ، وظلوا يبحثون عن حجر الفلاسفة هذا لكنهم لم يكتشفوه بعد .

---

(٧٦) الألفى : الفن الاسلامى ، ص ٢٥٥ .

واشتهرت العراق ومصر بصناعة الذهب والفضة وشاهد على ذلك ما خلفوه من حلى جميل محفوظ فى المتاحف .

وكان للمسلمين معامل كيماوية تعاملوا فيهـا مع المعـادن والأمـلاح والأحماض ومواد التلوين والصباغة . وكانت مواد التجربة مكونة من آلات، تقطير ومن أفران ومن مواقد للتقطير موازين ومن جميع الأجهـزة الضرورية من الأحجار الرملية ومن الزجاج او من المعدن(٧٧) .

وكانت مهارة الكيميائيين المسلمين ومعارفهم اداة صالحة وجدوا بهـا اصباغا لتلوين النسيج والفسيفاء وصناعة الأوانى الفخارية وكانت هـذه الأصباغ ثابتة حافظت على رونقها سنين طويلة .

ز — صـناعة العطـور :

ولم يكن العالم القديم يعرف غير العطور الشرقية مثل المسك والبخور، ولكن المسلمين عرفوا العالم طريق استخراج العطور وصنعها من الأزهار . وفى مدينة سابور بفارس كانوا يقطرون جميع الروائح من النرجس والبنفسج والياسمين واشتهرت مدينة جور بمياهها المعطرة التى كانت تصنع من زهر البرتقال وماء الورد المجلوب من ورد اصفهان(٧٨) .

وصنع المسلمون الصابون بمزج الصودا مع شحم الأغنام او الزيت ، وانتشرت صناعته من بغداد الى مصر وسوريا والمغرب والأندلس .

٣ — التجـــارة

أ — الأسواق والتجـارة الداخليـة :

يعرف ابن خلدون الأسواق بقوله : « اعلم ان الأسواق كلها تشتمل على حاجات الناس ، فمنها الضرورى وهى الأقـوات من الحنطـة وما فى معناها كالباقلا والبصل والثوم واشباهه . ومنها الحاجى والكمالى مثل الادم والفواكه والملابس والماعون والمراكب وسائر المصانع والمبانى »(٧٩) .

(77) Claude Cahen : Economy, Society, P. 527.

(٧٨) متز : تاريخ الحضارة ، ج ٢ ، ص ٣٠٥ .

(٧٩) المقدمة ، ص ٣٤٠ .

والحقيقة ان كلمة سوق تعنى فى المدن مجموعة من الحوانيت والمصانع التى تتركز فيها الحياة الصناعية والتجارية . كما تعنى الأسواق البسيطة الأسبوعية التى تنتشر فى القرى . ولم يكن من الضرورى أن تتجمع الاسواق معا فى جزء واحد من المدينة الاسلامية ، فكل صنف له سوقه الخاص المفصل عن الأسواق الأخرى . وقد حوت الأسواق كثيرا من المخازن لحفظ أنواع التجارة بها وحظائر لايواء الدواب(٨٠) .

ولقد لعبت الأسواق دورا كبيرا فى حياة الدولة الاسلامية سواء الاقتصادية أو الاجتماعية او السياسية . فكانت السوق مركز البيع والشراء وبها تعقد الصفقات وتقرر حالة البلاد الاقتصادية ، اذ ان السوق هى أبرز ميادين تصريف الانتاج الزراعى والصناعى . كما أثرت السوق فى الحالة الاجتماعية ففيها يلتقى الناس بعضهم ببعض ويتعارفوا ويتحادثوا وفيها تختلط عناصر السكان المختلفة . وكانت السوق مركزا من مراكز الحياة السياسية ففيها يلتقى الناس تحت ستار التجارة بعيدا عن عيون رقباء الولاة والحكام فيدبرون المؤامرات ويحيكون خيوط الفتن .

عرف العرب كثيرا من الأسواق فى الجاهلية والاسلام وكان لسوق عكاظ شهرة عظيمة فى الجاهلية حيث كان مركزا للتجارة والأدب . ولذا حرص العرب بعد انتهاء الفتوحات العربية والاسلامية على انشاء الأسواق فى الأمصار المفتوحة لكى تكون مراكز للتجارة والادب . فأصبحت الأسواق بذلك الى جانب أغراضها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مكانا لمناظرات الشعراء ومجالس الخطباء كما كان عليه الحال فى مربد البصرة وكناسة الكوفة وغيرها .

ووضعت الأسواق الاسلامية تحت مراقبة دقيقة ، فبعد ان تغرب الشمس ويخيم الظلام تنتهى الحركة من السوق فيحمل التجار تجارتهم الى مخازنها . وتخلو السوق من أهلها الا من الحراس الذين يجوبون فيها لحراستها من اللصوص . واهتم ولاة المسلمين بالتفتيش على الأسواق

---

(٨٠) ذكر الشيزرى طبيعة الأسواق الاسلامية وما ينبغى ان تكون عليه هذه الأسواق فى كتابه ، (أنظر الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق السيد الباز العرينى ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١١) .

وخاصة فى الأسعار والمكاييل والموازين . وكان يجلس فى السوق رجـل يدعى الناقد وكان عمله تمييز الدراهم بعد فحصها حتى يعرف جيـدها من رديئها ويضمن تمام وزنها . وكان على المحتسب مهمة الاشراف على السوق ومراقبة عمليات البيع والشراء ومنع الغش والتدليس والبخس والتطفيف . وكان فى السوق على ارباب كل حرفة وصنعة من الصنائع عريف يتـولى امرهم . وكان الصيارفة يوجدون فى الأسواق لتسـهيل التعاملات الماليـة بداخلهـا(٨١) .

وكان الرسول (ص) يهتم بمراقبة الأسواق بنفسه او يـكلف بعض صحابته بهذه المهمة . ويخضع الحياة الاقتصادية لتشريع العـدالة والأمانة والصدق وحفظ حقوق الناس ومنع الربا . ولقد نهى الرسـول (ص) عن المنابذة وهى طرح الرجل ثوبه بالبيع الى رجل قبل أن يقبله او ينظر اليه . ونهى عن الملامسة : يلمس الرجل الثوب لا ينظر اليه .

كذلك منع (ص) تلقى الركبان قبل ان يهبطوا بسلعهم الى الأسواق ، ونهى عن الاحتكار .

كذلك نهى عن السمسرة فقال (ص) لا تلقوا الركبان ولا يبيع حاضر لبـاد .

موازين الأسواق ومكاييلها :

تعددت الوحدات القياسـية للوزن والمكيـال فى الدولة الاسـلامية واختلفت اعيرتها رغم وحدتها بالاسم بين مختلف مناطق الـدولة والعهـود المتعاقبـة .

واشهر الموازين التى استعملت فى العصور الاسلامية هى :

الأوزان :

١ ــ الحبـة :

تساوى وزن حبتين من الشعير .

---

(٨١) عن الأسواق فى مصر ، أنظر للمؤلف كتاب : تجـارة مصر فى البحر الأحمر القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ١٨٣ ــ ١٩١ .

٢ — القيراط :

يساوى أربع حبات (اى ٨ حبات شعير) . والكلمة من اصل يونانى .

٣ — الدانق :

يزن قيراطين ونصف والكلمة من اصل فارسى .

٤ — المثقال :

يعادل ٨٦ حبة (١٧٢ حبة شعير) وهو وزن الدينار الذهبى ، ووزن الدينار يسارى ١ $\frac{٣}{٧}$ درهم ، وكل درهم يزن ٦ دوانيق .

٥ — الأوقية :

(الأونسة) كلمة يونانية الأصل . واختلفت زنتها باختلاف الأقطار .

٦ — الرطل :

يساوى ١٢ أوقية واختلف التقدير باختلاف الأقطار .

٧ — المن :

يساوى رطلين .

٨ — النواة :

تساوى ٢٠ أوقية (وتستخدم فى وزن الذهب والفضة والمعادن الثمينة) .

٩ — القنطار :

أصل الكلمة يونانى وتدل على المائة ويزن ١٠٠ رطل .

المكاييل :

١ — المد :

يونانية الأصل واختلفت كميته .

٢ ــ الصــاع :

اربعة امداد .

٣ ــ القفيــز :

١٢ صاعا .

٤ ــ الوســق :

٥ اقفزة ويعادل ٦٠ صاع وهو فى الأصل ما يعادل حمل حمار .

٥ ــ الكــر :

٦ أوســاق .

٦ ــ الجــريب :

٤٠ قفــيزا .

المقـــاييس :

١ ــ الاصــبع :

يعادل البوصة وتساوى ٦ حبات شعير مرصــوصة الواحــدة وراء الأخــرى بعرضـــها .

٢ ــ الشــبر :

يعادل المسافة بين طرفى الابهام والخنصر ممتدين ليد رجل متوسط .

٣ ــ الــذراع :

٢٤ اصبعا .

٤ ــ القصــبة :

تساوى ١٠ اصبع .

٥ ــ البـــاع :

قامة رجل متوسط .

٦ ـ الميـــل :

٤٠٠ ذراع .

٧ ـ الفرســخ :

٣ أميــال .

٨ ـ الجــريب :

وحدة لقياس المساحات . وهو وحدة المسافة الرسمية المعمول بهـا لقياس الأراضى الزراعية وتحديد الأموال والتى كان على أساسها تقـدير الوحدة الضرائبية . وهى حوالى ٣٦٠٠ قدم مربع أو ٣١٤٫٨٦ متر مربع .

٩ ـ الفـدان :

٣½ جـريب .

ب ـ التجارة الخارجية والمؤسسات التجارية

تجارة العرب الخارجية قبل الاسلام :

كان سكان الجزيرة العربية يعتمدون فى حياتهـم الاقتصـادية على التجارة بالدرجة الأولى ، ولقد ركز سكانها جهودهم فى استثمار موقع بلادهم التجارى الممتاز . فالجزيرة تمثل مركز القلب من العالم القديم ، ولا يمـكن أن يتم اتصال فى البر والبحر الا عن طريقها او بواسطة سكانها .

والمصادر القديمة بينت اهمية العرب فى تجارة العصـور القديمة وعددت المواد الضرورية التى كانوا ينقلونها على قوافلهم وفى سفنهم . وهى تشير الى ان تجارة اليمن بقيت مزدهرة طيلة عدة قرون . وكان اكثر اشتغال ملوك اليمن بالتجارة لتوسط بلادهم بين الهند والحبشة والصـومال ومصر والشام والعراق ، فكانوا ينقلون التجارة بين هذه البلاد بعد دخولهـا الى جزيرة العرب فى طرق خاصة . ولم يكن عالم التجـارة يسـتغنى عنهـم فازدهرت بلادهم واتسعت ثروتهم وامتدت سيادتهم الى أطراف الجـزيرة شمالا وشرقا وكانوا واسطة التجـارة بين الشرق والغـرب والشـمال والجنـوب .

وبقيت الحال على ذلك الى ان سيطرت الامبراطورية الرومانية الشرقية على طرق التجارة وورثت فى ذلك ما كان للعرب .

وكان لعرب الحجاز وخاصة بعد سيطرة قريش على مكة نصيب وافى من تلك التجارة التى حمل اليمانيون لواءها . ونظموا رحلتين ، رحلة الشتاء الى اليمن ، ورحلة الصيف الى الشام وعقدوا اتفاقات تجارية مع الحبشـــة واليمن والفرس والمناذرة والغساسنة والرومان(٨٢) .

تطور التجارة بعد الاسلام :

لم تنقطع تجارة قريش ولم تتوقف قوافلها الا بعد هجرة النبى (ص) الى المدينة وفى دور التوسع والفتوحات . ولما استتب الأمر للدولة الاسلامية وتمت حركة الفتوح الواسعة عادت التجارة الى ازدهارها الكبير خاصة زمن العباســـــيين .

ولقد أتقن التجار العرب التجارة علما وعملا حتى الفوا الكتب فيهـــا وفى الاقتصاد العباسى . فقد وضع ابو الفضل جعفر بن على الدمشقى من اهل القرن الخامس للهجرة كتابا عنوانه :

« الاشارة الى محاسن التجارة » فيه شرح لبعض الفوائد الاقتصادية لم يسبقه احد اليها . كما يحوى بحوثا فى النقود والسلع والأثمـــان وهى ابحاث قيمة لا تقل عما بلغ اليه علماء الاقتصاد فى هذا العصر .

وقد دفعت كثرة الأرباح التجار العرب الى ان يطـــوفوا فى الدنيـــا بشجاعة ، ويغامروا بقوة فكانوا رواد العالم الأول فى البر القديم ، كمـــا عرفوا سواحل افريقية الشرقية ومناطقها الوسطى النائية والهند والصـــين وجزر الهند الشرقية . وجابت قوافلهم قارة أوربا ولم تردهم عقبة ولم يمنعهم خطـــــر .

وكانت لرحلاتهم وأسفارهم التجارية الفضل الكبير على تقـــدم عـــالم

---

(٨٢) ذكر القرآن الكريم رحلتى الشتاء والصيف فى سورة قريش المكية (لايلا ف قريش ايلا فهم رحلة الشتاء والصيف) .

الجغرافية وذلك لاتساع مداها وبعد آفاقها . واثرت قصص التجـار من عجائب وغرائب المناطق التى شاهدوها فى خروج بعض العلماء فنشـطوا للقيام برحلات علمية تمت بواسطة سفن تجارية .

ولقد انعكس النشاط التجارى والملاحى فى الاعمال الأدبية التى تركها لنا الكتاب المسلمون الذين ركبوا البحر وعملوا فى التجارة ومن أشهرهم :

سليمان التاجر : صاحب كتاب صلة الصين والهند (٢٣٧ هـ) وهو من سيراف قام برحلات كثيرة الى الهند والصين .

أبو زيد السيرافى(٨٣) : الذى حدثنا عن مدينة خانفو وهى اهم المدن التجارية بالصين وعن الجالية الاسلامية بها فى كتابه « تكملة الصلة » .

السندباد البحرى : ورحلاته من قبل الرشيد الى ملك الصين والهند ، وهى رحلات سبع حفلت بالكثير من الحكايات والصور عن بلاد الهند والصين . واعطت هذه الرحلات شهرة السندباد حتى صار مثال للبحار الماهر الواسع المعـرفة(٨٤) .

ابن ماجد : (عاش فى القرن التاسع الهجرى) وهو من رأس الخيمة وصاحب كتاب : « الفوائد فى علم البحر والقواعد » الذى تحـدث فيـه عن الملاحة فى المحيط الهندى والبحر الأحمر منذ القرن الثالث الهجرى .

ولقد شملت تجارة العالم الاسلامى الخارجية الاتجار مع أوربا والهنـد والصين وجزر الهند الشرقية وسواحل افريقية الشرقية والحبشة .

---

(٨٣) عاش أبو يزيد السيرافى فى النصف الثانى من القرن الثـالث الهجرى ومات فى النصف الأول من القرن الرابع ، وكان معاصرا للمـؤرخ الجغرافى العربى المسعودى ، ولقد نشر كتابه فى سلسلة جـامع التواريخ التى نشرها Reinaud فى باريس سنة ١٨٤٥ ، وقد أكمل فى كتابه ما كان قد بداه سليمان التاجر عن بلاد الهند والصين
(Heyd : Histoire du Commerce, T. I, Leipzig 1923, PP. 28 - 29).

(٨٤) حدثنا الزمخشرى عن رحلات السندباد فى كتـابه : تاريخ السندباد ، وهو مخطوط محفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس ، تحت رقم ١٢٢٧ .

أهم السلع والمنتجات التى كان يتاجر بها وأهم مراكزها :

من الهند : الذهب والقصدير والأحجار الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل كالبهار والفلفل .

من الصين : المسك والكافور والعود والخزف والورق والأحجار الكريمة .

من روسيا : الجلود والرقيق .

من بلا ما وراء النهر : الورق والنوشادر والسنجاب والمسك .

من بلاد فارس : الدهون والزيوت العطرية ، منسوجات الكتان والصوف والحرير ، وسبائك الفضة والبسط .

من الحبشة : العقيق والعاج والجلود المدبوغة .

من سواحل افريقية الشرقية : العطور والطيب وخشب الأبنوس والذهب والعاج والرقيق .

من أرمينيا : اجود اصناف البسط والوسائد والمقاعد .

هذا عدا ما تنتجه بلاد العراق والشام ومصر والمغرب العربى والأندلس(٨٥) .

أساليب التعامل التجارى والمؤسسات التجارية :

كانت العادة فى تلك العصور أن يتجمع اصحاب الحرفة الواحدة وتجار الصنف الواحد فى حى من الأحياء الخاصة مؤلفين بذلك سوقا ، ولا تزال بقايا هذه العادة موجودة حتى الآن فى كثير من المدن الشرقية والغربية . وكانت الثقة قائمة بين التجار فى التعامل ، وكانوا يتعاملون نقدا او بالصك ، وبالسفتاجه عند سفرهم البعيد ، والسفتاجة كلمة فارسية ، تسمح للتاجر

---

(85) Naviq R : Industry and commerce under the Abbassids, JPUS, 1963 Part I. P. 257.

المسافر أن يأخذ نقودا من تاجر آخر فى البلد الذى يرحل اليه بتوســيط من تاجر ثالث يعرف التاجرين(٨٦) .

وكانت تقام للتجار الأغراب مؤسسات تجارية هى الحانات والفنادق والوكالات والقيسريات(٨٧) . وهى أبنية واسعة لها صحن واســع اقيمت حوله اسطبلات ومخازن يعلوها طابق ثان يحوى غرفا تفتح على الفنــاء فقط وتتصل ببعضها عن طريق ممر دائرى .

ولقد سمح للأوربيين بشرب الخمر فى فنادقهم واقامة صــلواتهم فى كنائس صغيرة بنيت بداخلها كما سمح لهم بتربية الخنازير فى أفنيتها . وكانت هذه الفنادق تغلق بالليل خوفا من تعدى المسلمين على من بداخلها .

وقد أنشأ التجار فى كل مركز تجارى هام نقابة مســئولة عن مراقبة المعاملات التجارية ومنع الغش والتدليس . وكان رئيسها ينتخب من بين الأعضاء الممتازين ويسمى برئيس التجار (شاهبندر التجار) كما كان يسمى أعضــاء النقــابة بالأمنــاء .

وكان للمؤسسات التجارية دور هام فى تجارة العــالم الاســلامى الداخاية والخارجية ، ففى مجال التجارة الداخلية كانت تعرض فى هــذه المؤسسات البضائع التى ترد على بلاد العالم الاسلامى وكافة سلع الشرق الغنية ، وكانت تتم فيها الصفقات الكبيرة وكان التجار المسلمون يعرضــون بضاعتهم أمام التجار الأجانب الذين ينزلون هذه المؤسسات .

وفى مجال التجارة الخارجية كانت هذه المؤسسات محطات راحــة للتجار الأجانب ومراكز استقبال لهم على طول الطريق التجارى العالمى(٨٨) .

---

(86) Cahen : Economy, Socicty, Insritutions, The Cambridge History, of Islam, P. 525.

(٨٧) كلمة قيسارية مشتقة من لفظ يونانى معناه السوق الامبراطورية مما يدل بوضوح على أنها كانت من انشاء الدولة ،

(Goitein : A Mediterranean Society, ~~Institutions The Cambridge History of Islam, p. 525.~~ of the High Middle Ages, New York 1967, p. 194.

(٨٨) للتوسع فى دراسة هذه المؤسسات التجارية ، أنظر كتــاب تجارة البحر الأحمر للمؤلف ، صفحات ١٩٢ — ٢٠٦ .

ثـراء التجـار :

كانت التجارة مورد رزق واسع لأصحاب المـواهب التجـارية ولمن يخدمهم التوفيق منهم بالتقرب من أهل البلاط ، وتجاوزت ثروة بعض التجـار الملايين من الدنانير . منهم على سبيل المثال الحسن بن عبد الله الجصاص الذى كان له بيت كبير فى بغداد لبيع المجوهرات صادر منه الخليفة المقتـدر (أوائل القرن الرابع الهجرى) ١٦ مليون دينار ، وبقى عنده رغم ذلك كثير من الأمـوال والـدور والضـياع .

وذكر المؤرخون أن ثروة احد اصحاب السفن التجار بلغت ٢٠ مليون دينار . وقد ذكر (ابن حوقل) خبر تاجر من البصرة اسمه حسن بن العباس له مراكب تسافر الى اقصى بلاد الهند والصين بلغ ما يتحصل من ضرائبها ١٠٠ الف دينار فى العام .

العلاقات مع الصين والهند :

جاء فى كتب الجغرافيين المؤرخين والرحالة المسلمين قصص وحوادث كثيرة عن مغامرات التجار وتكبدهم المشاق والأخطار . وورد فى هذه الأخبار ارسال الخلفاء العباسيين وفودا لهم الى امبراطور الصين ورسو سـفن التجار العرب على شواطىء الصين تحمل السلع المختلفة . وكانت تقيم فى ميناء كانتون جالية عربية كبيرة .

وكان الذهاب من الجزيرة العربية الى الهند يقتضى من الملاحين العرب قرابة شهر وكانوا يأخذون شهرا آخر حتى يصلوا الى جنوب شرق آسـيا وشهرين للطواف حول شواطىء الصين . وكانت رحلة العودة تتطلب هـذا الوقت تقريبا . ولكن كان عليهم أن ينتظروا الرياح الموسمية وان يتحمـلوا المعاناة التى تعترض سبيلهم(٨٩) .

---

(٨٩) يفسر ابن خلدون سر اقبال التجار على حاصلات الشرق بقوله : « ان نقل السلع من البلد البعيد المسافة او فى شدة الخطر فى الطـرقات يكون اكثر فائدة للتجار واعظم ارباحا لأن السلعة المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة لبعد مكانها او شدة الضرر فى طريقها فيقل حاملوها ويعـز وجودها واذا قلت وعزت غلت أثمانها » (المقدمة ، طبعة القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٣٤٠) .

وكانت السفن المشيدة عادة للاتجار فى أعالى البحار تتألف من نوعين : سفن سريعة وخفيفة مخصصة لنقل الركاب وحدهم ، وسفن ضخمة مخصصة لنقل البضائع . ولقد جهزت هذه السفن باسطرلابات ومجسات ومصابيح واطالس توضح تيارات المياه والمد المحددة . وكانت لهذه السفن اشرعة قوية محكمة تهيىء لها السرعة الخاصة . وكان بها رجال مسلحون للدفاع عنها ضد خطر القراصنة الذين كان مأواهم الأصلى جزيرة سوقطرة عند منفذ خليج عدن .

ازدهار الموانىء الاسلامية :

من الموانى التى ازدهرت ميناء سيراف على الخليج(٩٠) وجزيرة كيش وكان لسيراف أسطول تجارى هام ، وكان اهلها ملاحين مهرة وتجار حاذقين لهم توكيلات تجارية فى افريقية وجنوب شرق آسيا وفى ميناء كانتون بالصين . ولقد زاد رخاء اهل هذه المدينة بسبب اعمال التجارة الخارجية العالمية وكان سكانها فى غاية الثراء وكان تقدير ثرواتهم مرتفعا للغاية . ولقد احب اهل سيراف ركوب البحر ونبغوا فيه ويروى عن احدملاحيها انه مكث فى البحر ٤٠ سنة لم يخرج فيها الى البر . لكن المدينة دمرت فى نهاية القرن الرابع سنة ٩٧٨ م نتيجة هزات أرضية مما ادى الى انتقال المكانة الى جزيرة كيش التى تقع على صخرة مواجهة لسيراف وسرعان ما اصبحت كيش اهم موانى التجارة العالمية .

لكن عدن بعد ذلك نافست كيش المكانة . وتنافس اسطول المدينتين على الأسواق فى الصين ، وحققت عدن السيادة فى النهاية على تجارة الشرق حين تحولت هذه التجارةالى البحر الأحمر أيام الفاطميين والأيوبيين وشهدت نشاط تجار المسلمين(٩١) .

---

(٩٠) تقع سيراف على مسافة ميل من غربى مدينة بندر طاهرى ومسافة ٢٠٠ ميل جنوبى شرقى ميناء بوشهر الايرانى الشهير ، وهى الآن اطلال وخرائب :
(Lamb : Avisit to siraf, JRAB, v. 37, Part I, 1964, P. 2.).

(٩١) عن ازدهار تجارة سيراف وكيش ، انظر للمؤلف مقالا بمجلة الجمعية التاريخية المصرية ، العدد ٢٠ لسنة ١٩٧٥ .

ومن الموانى التى ازدهرت فى التجارة العالمية : ميناء جـدة وميناء عيذاب وميناء القلزم ، فضلا عن ازدهار ميناء الاسكندرية الذى كان يستقبل سفن التجار الايطاليين والأوربيين الذين كانوا يتـاجرون مع بلاد العـالم الاسلامى حتى زمن الحروب الصليبية .

جـ — النقود والمعاملات المالية فى التجارة

كان التعامل المالى فى تجارة العالم الاسلامى يتم بالدنانير(٩٢) الذهب والدراهم الفضة(٩٣) ، ولقد حلت العملة الاسلامية التى سكها الخليفـة عبد الملك بن مروان منذ سنة ٧٦ هـ محل العملات البيزنطية والفارسية فى العهدين الاموى والعبـاسى(٩٤) .

وكان وزن دنانير الذهب يتغير بالطبع مع تغير العهود والحكام وحسب حالة الـدولة الماليـة صـعودا وهبـوطا .

وكان التعامل المالى يتم عينا وورقا ، فالعين هو العملة الذهبية والورق هو العملة الفضية . وكان التجار يبيعون الدنانير ويشـترونها اما من دار الصرف أو من الصيارفة . وكانت النقود يتسلمها التجار احيـانا فى صرر مقفلة يكتب عليها من الخارج قيمتها ووزنها وكان ذكر وزن نقود هذه الصرر هاما للغاية لأنه هو الذى يحدد قيمتها . وكان سعر الوزن يتغير حسب تغير

---

(٩٢) كلمة دينار العربية مشتقة من الأصل اللاتينى Denarius, Deni اليونانى وهو ينقسم الى ٢٤ قيراط ، وينقسم القيراط الى ثلاثة حبـات وستة دوانيق :

(Ashtor : Histoire de Prix et des Salaires dans l'orient Medieval, Paris 1969, P. 39).

(93) Ehrenkreutz : Byzantine Tetartera. and Islamic Dinars, JESHO, Part II, 1964, P. 189.

(٩٤) أول من ضرب الدنانير الذهب الاسلامية هو عبد الملك بن مروان سنة ٧٥ هـ ، وكتب على وجه الدينار قل هو الله احد وعلى الوجه الآخـر لااله الا الله ، وطوق عبد الملك الدينار بطوق فضة وكتب فيه ضرب بمدينـة كذا . وكتب خارج الطوق محمد رسول الله أرسله بالهـدى ودين الحـق (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ١٤٥) .

أنظر فصل العملة الاسلامية ، ص ٦٣ .

حالة العملة وكان التجار يحاولون بقدر امكانهم أن يرسلوا دنانيرا كاملة الوزن الى اســـواق التجـــارة العاليـــة .

ولقد راج فى المعاملات المالية فى اسواق تجارة العالم الاســـلامى فى عهد الأمويين دينار الخليفة عبد الملك بن مروان الذى كان يعرف بالدينـــار الأبيض وظل قاعدة التعامل المالى بها طوال عهد الأمويين . كـــذلك راجت فى هذا العهد الدنانير الخالدية واليوســـفية .

وفى العصر العباسى اقبل التجار على الدنانير التى سكها الرشـــيد والمأمون وكما راجت الدنانير الذهبية التى ضربها احمد بن طولون فى مصر ، وعرفت بالدنانير الأحمدية ، وقد لقيت هذه الدنانير اقبالا من التجار لنقاوتها وانتشر التعامل بها عالميـــا(٩٥) .

كذلك اقبل التجار على الدينار الراضى الذى سكه الخليفة الراضى العباسى والدنانير المعزية الذى سكها قائد الخليفة الفاطمى المعز جـــوهر الصقلى بعد فتحه مصر(٩٦) . وقد ظل الدينار المعزى أساس التعامل الثابت فى مصر وفى انحاء كثيرة من العالم الاسلامى طوال عهد الفاطميين ، ذلك لثبات كمية الذهب فى هذا الدينار طوال حكم الفاطميين .

وكان الدينار المعزى يساوى ½ ١٣ درهم نقرة ، وتراوح ســـعره من الدراهم السوداء ما بين ٣٠ و ٤٠ درهم أسود خلال القرنين الخـــامس والسادس الهجريين(٩٧) .

وكان تبادل العملة وتغييرها من اهم مظاهر العمل بالأســـواق وكان الطلب دائما على العملة الحديثة العهد الكاملة الوزن من الذهب والفضة . وكان تغيير العملة يتم فى دار الصرف او لدى الصيارفة .

---

(95) Ashtor : Histoire de Prix, P. 76.

(٩٦) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ١٥٧ .

(97) Goitein : The exchange of gold and silver money in Fatimid and Ayyubid times, JESHO, V. VIIII, 1965, P. 47.

وقد تحدثت المصادر عن اسلوب التعامل بالشيك (الصك) ، وهــذا النظام فارسى الأصل دخل العالم الاسلامى حين وفد تجار الفرس الى بغداد فى العصر العباسى الأول واستخدموا فيها هذا النظام المالى المتبع عنــدهم منذ أمد بعيد . ولقى هذا النظام قبولا عند الناس فى بغداد وفى الــكوفة ايضا وانتقل من بغداد الى سائر الأمصار(٩٨) .

كذلك تحدث عن نظام التعامل (بالرقاع) وهى أن يرسل شخص الى تاجر بقال او خلافه بأوراق فيها اسم السلع التى يريدها وثمن هذه الســلع وتحمل هذه الأوراق توقيعه فيرسل له التاجر ما يريد ويحتفظ لنفسه بهــذه الرقاع وفى آخر الشهر يرسلها الى صاحبها ليتسلم منه ثمن ما أخذه .

ولقد نشط الصيارفة فى الأسواق الاسلامية فى عملية تغيير العملة وكانوا يأخذون فائدة على الأموال التى يغيرونها ، كذلك كانوا يأخذون فوائد على القروض التى كانوا يقدمونها لتجار . كانوا يجلسون عنــد مــداخل الأسواق وفى بعض المدن الاسلامية كانت لهم اسواق خاصة بهم(٩٩) .

ومن المعروف كذلك ان الصيارفة خضعوا فى معاملاتهم مــع النــاس لمراقبة المحتسب ، وحذر الشيزرى من خطورة وظيفة الصرف لأنه كما قال :

« خطر على دين متعاطيه بل لا بقاء للدين معه اذا كان الصيرفى جاهلا بالشريعة غير عالم بأحكام الربا فالواجب الا يتعاطاه أحد الا بعد معرفتــه بالشرع ليتجنب الوقوع فى المحظور من أبوابه(١٠٠) » .

وكانت المعاملات المالية الضخمة تتطلب وسائل لادفــع مأمونة مــن الضياع خفيفة الحمل وبعيدة عن تناول اللصــوص ومن هــذه الوســائل

---

(98) Navdi : Industry and commerce, PP. 28 - 29.

(99) Goitein : Banker accounts from the eleventh century A. D., JESHI, V. IX, 1966, P. 29.

(١٠٠) نهاية الرتبة ، ص ١٢ .

السفتاجات(١٠١) (الحوالات) التى كثر استعمالها فى الدولة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى(١٠٢) . وقد قام الصيارفة ووكلاء التجـــار فى الدولة الاسلامية مقام البنوك ، فكان التجار يأخذون رقاعا منهم وسفاتج بما لديهـــم من الأموال ثم يشترون ما يلزمهم ويحولون ثمنه عليهم(١٠٣) .

---

(١٠١) السفتاجة وجمعها سفاتج ، وهى كلمة فارسية تقابل ما يعرفه اليوم بالشيك السياحى .

(100) Goitein : Op. Cit., P. 29.

(١٠٣) كان هذا النظام قد لقى قبولا عند الناس فى بغداد وعند حكومة الخلافة أيضا ومن بغداد انتقل هذا النظام الى مصر .

(Navdi : Industry and commerce, PP. 28,29).

الفصل الخامس

الحيـــاة الفـكرية

تـكوين الفكر العـربى والاسـلامى

❋ العلم فى الاسلام وطرق نقله

١ ـ العلوم النقليـة :

(أ) علوم القرآن والحديث والفقه

(ب) علوم اللغة والادب

(ح) التـاريخ

٢ ـ العلوم العقلية (العملية)

❋ حركة الترجمة والنقل

(أ) العلوم الفلسفية

(ب) علوم الطب والصيدلة

(ح) علوم الفلك والرياضيات والكيمياء والفيزياء والميكانيكا

العـلم فى الاسلام وطرق نقله

دعا الاسلام الى العلم ، وحض القرآن الكريم على ضرورة التعلم ، وكانت اول سورة تدعو آياتها الى ذلك وهى سورة العلق :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم »(١) .

كذلك حضت آيات اخرى على العلم والتعلم واعلت مكانة المتعلمين . ففى سورة يوسف(٢) ، يقول الله تعالى : « نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم » . وفى سورة طه(٣) : « وقل رب زدنى علما » وفى سورة فاطر(٤) : « انما يخشى الله من عباده العلماء » . وفى سورة الزمر(٥) : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وفى سورة الرحـمن(٦) : « الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان » . وفى سورة المجادلة(٧) : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات » .

كذلك حثت احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على طلب العلم ، فقال عليه السلام : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ، وقال : « انمـا العلم بالتعلم والحلم بالتحلم » ، وقال : « لا شرف كالعلم ولا عز كالحلم » ، وقال : « العلماء ورثة الانبياء » : « من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا الى الجنة » .

---

(١) العلق : ١ ــ ٥ .
(٢) يوسف : ٧٦ .
(٣) طـه : ١١٤ .
(٤) فاطـر : ٢٨ .
(٥) الزمر : ٩ .
(٦) الرحمن : ١ ــ ٤ .
(٧) المجادلة : ١١ .

ومن المعروف أن الاسلام جاء وفى قريش سبعة عشر رجلا فقط يعرفون القراءة والكتابة ، لذلك جعل رسول الله فى غزوة بدر فداء بعض الأسرى نظير تعليم الأسير القراءة والكتابة لعشرة من صبيان المدينة .

ولقد بدات حركة التعليم والتعلم فى الدولة الاسلامية منذ نشأتها ، وتطورت مراكز نقله من المسجد الى الكتاتيب ثم المدارس والجامعات . ولقد خرجت هذه المراكز جماعة من أعظم الرجال العلماء ، الذين علموا وخرجوا من تحتهم الفقهاء والعلماء وكبار المفكرين .

ولقد ظهر من علماء مكة رعيل الصحابة الأول مثل : معاذ بن جبل ، وعبد الله بن العباس ، ومن التابعين : مجاهد بن جبير وعطاء بن ابى رباح وطاووس بن كيسان . وقد تخرج من مدرسة مكة طائفة من العلماء كان منهما الامام الشافعى .

وفى المدينة تعلم الصحابة علوم الدين على يد رسول الله وتخرجوا من مدرسته ، وكان أشهر من تخرج من هذه المدرسة من الصحابة : الامام على بن ابى طالب ، معاذ بن جبل ، زيد بن ثابت ، عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن مسعود وغيرهم . وقد ارتحل بعض هؤلاء العلماء وغيرهم الى الأمصار لتفقيه الناس فى أمور دينهم ، وعقدوا مجالسهم العلمية فى المساجد ، فكانوا اساس الحركة العلمية فى الأمصار(٨) .

وكانت عناية المسلمين فى صدر الاسلام مقصورة على العلوم الدينية والشرعية ، ولكن مع قيام الدولة الأموية أخذ الاهتمام بالعلوم الأخرى . وقد بلغت الحركة العلمية ذروتها فى المجالين النقلى والعقلى فى العصر العباسى .

مراكز نقل العلم فى الدولة الاسلامية :

١ — المسجد :

كان المسجد هو المدرسة الأولى فى الاسلام ، وقد عقدت فيه حلقات الدرس والتدريس الى جانب كونه دارا للعبادة ومقرا لادارة الدولة والنظر فى أمورها .

---

(٨) أحمد امين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ٧٣ ، ٧٤ .

ولقد كان الرسول هو المعلم الأول فى الاسلام ، وكان يتخذ مسجده بالمدينة مقرا للدرس والتعليم . وقد ظل مسجد الرسول بالمدينة كذلك مقــرا للتعليم على عهد الخلفاء الراشدين . وكان المعلم يجلس فى جزء من المسجد ومن حوله يلتف طلاب العلم فى حلقات . وكان طالب العلم يحضر حلقــــة استاذه وشيخه وعندما يستكمل محاضرات استاذه وينجح فيها يجيزه استاذه ويسمح له بتعليم الفرع الذى درسه واتقنه فى حلقة مستقلة يقوم بالتدريس فيهـــا(٩) .

وكان العلماء الذين يدرسون فى المساجد لا يتقاضـــون أجـــرا على تدريسهم ويبتغون الأجر من الله تعالى . وكان الطلاب يفدون اليهم من البلاد النائية تاركين أوطانهم واهاليهم ابتغاء تحصيل العلم والدروس .

ولقد اتسعت المساجد فى العهد الأموى وازداد عددها ، وكانت حلقات هذه المساجد النواة العامية للدراسات الجامعية فى أسلوبها الذى يعتمـــد على المناقشة والمناظرة . وكان القرآن الكريم هو محور علم المسلمين ، ومن مدارسته ظهر علم التفسير وعلم الحديث ، كذلك ظهر الاهتمام بعلوم اللغة والتاريخ . وتشعبت الدراسة عند المسلمين بعد ذلك الى بقية العلوم العمليـــــة .

واضافة الى التعليم فى المساجد عرف المسلمون ، منذ العصر الأموى، التعليم فى الكتاتيب وفى المـــدارس .

٢ — الكتـــــاتيب :

أنشئت الكتاتيب ، ومفردها « كتاب » لتعليم مبادىء القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم ومبادىء علم الحساب . وكان الكتاب اســـبق انواع المعاهد التعليمية وجودا فى العالم الاسلامى بعد المسجد . وكان بداية ظهور الكتاتيب فى العصر الأموى ، وكان المعلمون بالكتاتيب لا يتقاضون اجرا ولكنهم كانوا يبتغون من وراء ذلك ابتغاء مرضاة الله ، وكان هدف أى تلميذ يحضر الكتاب هو حفظ القرآن الكريم ، ومن ينجح فى ذلك يجاز من شـــيخه ويسمى حافظـــــا .

---

(٩) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، جـ ٢ ، ص ٥٢ .

ولقد استمرت هذه الكتاتيب قائمة تؤدى دورها التعليمى على احسن وجه فى العالم الاسلامى حتى العصر الحديث ، ولكن للاسف الغى نظـام الكتاتيب فى القرن الحالى من كثير من بلاد العالم الاسلامى وان ظلت بعض الكتاتيب فى بعض البلدان وحملت اسم الزوايا أو الخلاوى(١٠) . وقد ورد عدد كبير من اسماء معلمى الكتاتيب الذين كانت لهم شهرتهم فى التاريخ ، وذكر ان الحجاج بن يوسف الثقفى يأتى على رأس القائمة(١١) .

وفى العصر الأموى ، ظهر المؤدب الخاص فى البيوت ، وكانت الأسر الغنية ، التى لم ترض لأبنائها مخالطة الأولاد الفقراء فى الكتاتيب ، تـكلف أحد المعلمين او الشيوخ بتأديب اولادها فى غرفة من غرف البيت مقـابل اجر معين كل شهر . وقد حذت هذه الأسر فى ذلك حذو الخلفاء الـذين كانوا يخصصون مربين خصوصيين لأبنائهم فى قصورهم يعلمونهم أصول اللغـة والدين ويغرسون فيهم الخصال الحميدة . وكان من أشهر هـؤلاء المؤدبين لأبناء الخلفاء : الكسائى مؤدب الأمين والمأمون ابنى الرشيد ، والفراء مؤدب أولاد المأمون .

٣ ـ مـدارس الكبـار :

وهى مدارس ينتقل اليها الطلاب بعد اكمال دراستهم بالكتاتيب من اتمام للقرآن ومعرفة لقواعد اللغة والحساب ، وهى مدارس متخصـصة يذهب اليها التلاميذ للتخصص فى نوع من أنواع العلوم .

وكانت بداية نشأة هذه المدارس فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، وكانت اول مدرسة انشئت من هذا النوع « المدرسة الصادرية » ، التى انشئت فى الشام سنة ٣٥٠ هـ واسست فى منتصف القرن التـالى سلسلة من المدارس على نسق المدرسة الصادرية ، وتأتى فى مقدمتهـا :

---

(١٠) تسمى الكتاتيب بالزوايا فى ليبيا ، بينما تسمى بالخـلاوى فى السـودان .

(١١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جا ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٣٤٢
ذكر ابن خلكان ان الحجاج ووالده كانا من أشهر معلمى الصبيان ايام الدولة الأموية وان كان ابن خلدون لا يتفق معه فى هذا الرأى .

المدرسة البيهقية فى نيسابور والمدرسة السعدية بها(١٢) . وتاتى المدرسة النظامية فى بغداد كاشهر مدرسة اسست على نظام نموذجى نسجت على منواله المدارس فى مدن العالم الاسلامى الرئيسية . وتنتسب المدرسة النظامية ، الى الوزير نظام الملك ، وزير السلطان السلجوقى الشهير « الب أرسلان » سنة ٤٥٩ هـ(١٣) .

وكان يدرس فى هذه المدارس علوم القرآن والحديث والفقه والتشريع والأدب واللغة والتاريخ والفلك والرياضيات والكيمياء والموسيقى . وكانت هذه المدارس تزود بكل احتياجاتها من مدرسين وكتب وأدوات علمية ، كذلك كانوا يعطون الطلاب الذين يدرسون بها راتبا شهريا لمصروفاته قدره دينار .

ولقد استمر تأسيس المدارس فى بغداد حتى بداية القرن السابع الهجرى ، فقد أسس الخليفة العباسى المتنصر بالله سنة ٦٢٥ هـ فيها المدرسة المستنصرية . ووصل عدد هذه المدارس ببغداد عام غزو المغول لها (سنة ٦٥٦ هـ) ثمان وثلاثين مدرسة(١٤) .

ولقد شاع تأسيس مثل هذه المدارس فى جميع الحواضر الاسلامية ، وحدثنا بذلك الرحالة المسلم ابن جبير ، الذى زار الشام والعراق ومصر فى أواخر القرن السادس الهجرى ، وكتب عن هذه المدارس ووصفها فى كتاب رحلته الشهير .

وكان نصيب مصر كبيرا من هذه المدارس فى عصر الفاطميين والأيوبيين والمماليك ، فلقد بلغ عدد مدارس القاهرة وحدها ، فى عهد الفاطميين ، نحو عشرين مدرسة ، وأسس الخليفة الحاكم بأمر الله بها دارا عامة للعلم اسماها دار العلم او دار الحكمة ، قرر لها المدرسين والمعيدين وألحق بها مكتبة كبيرة امتلأت بالمؤلفات النادرة ، تقليدا للدار التى انشأها الخليفة المأمون فى بغداد .

---

(١٢) ناجى معروف : نشأة المدارس المستقلة فى الاسلام ، بغداد ١٩٦٦ ، ص ٤ ، ٥ .

(١٣) احمد الشطى : مجموعة ابحاث فى الحضارة الاسلامية ، دمشق ١٩١٣ ، ص ٩٠ .

(١٤) ناجى معروف : نشأة المدارس المستقلة ، ص ٥ .

ومن أشهر مدارس الأيوبيين : المدرسة الصلاحية بالقدس ، وكان قد انشأها السلطان صلاح الدين أيوب ، والمدرسة العادلية بدمشق ، التى بناها اخوه الملك العادل ، والمدرسة المهذبية بالقاهرة والناصرية بالفسطاط . وقبل ان مدارس الأيوبيين فى مصر قد وصلت الى نحو خمسة وعشرين مدرسة .

وكان فى بعض المدن الرئيسية فى الأندلس مدارس كبرى فى قرطبة وأشبيلية وغرناطة . وبلغ عدد المدارس فى قرطبة وحدها ، فى خلافة الحكم المستنصر (الثانى) بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) ثمانون مدرسة . وكان فى غرناطة سبع عشرة مدرسة اضافة للجامعة العلمية الكبرى التى أسسها يوسف ابو الحجاج سابع سلاطين بنى نصر .

مجالس العلم :

والى جانب الكتاتيب والمدارس النظامية ، كانت مجالس العلم الخاصة تساهم فى نشر العلم والثقافة فى المجتمع الاسلامى . وكانت هذه المجالس تعقد فى قصور الخلفاء والوزراء والأمراء والولاة ، وكان يحضر اليها كبار العلماء . وكانوا يعقدون مجالس المناظرة والمساجلة التى كانوا يحضرونها ويشاركون فى بعض الأحيان بالرأى فيها ، وكانت تتناول القضايا المختلفة ويدور النقاش فيها بحرية تامة .

وكانت هذه المجالس ميدانا لتنافس العلماء الذين يريدون أن يحققوا الحظوة عند الخلفاء ، أو يريدون شغل المناصب الهامة فى الدولة ، او العمل كمربين ومعلمين لأبناء الخلفاء .

وكان بعض هؤلاء الخلفاء من العلماء ، وقد اشتهر الخليفة المأمون بحبه للعلم وتشجيعه للعلماء حتى قيل عنه انه ان لو لم يكن خليفة لكان عالما ، ويعد عصره العصر الذهبى للعلم فى الدولة الاسلامية .

وقد ناقشت هذه المجالس قضايا خطيرة دار الجدل والنقاش حولها وقتا طويلا مثل قضية خلق القرآن التى طرحها المأمون للمناقشة وامتحن فيها العلماء(١٥) .

---

(١٥) اخذ المأمون برأى المعتزلة القائل بخلق القرآن .

المكتبـــــات :

اشتهرت كل من القاهرة وبغداد ودمشق وقرطبة بمكتباتها العامة التى حوت الآلاف من الكتب والمخطوطات النادرة ولقد ساعد انشاء المكتبات على اطراد الحركة العلمية وتقدمها ، كذلك ساعد الباحثين فى بحوثهم وادى الى حركة الترجمة الواسعة التى شهدها العصر العباسى الأول ، وبخاصة عصر المـــــأمون .

وقد أنشئت المكتبات أول الأمر فى المساجد ، ثم الحقت بها . لـــكن انشاء المكتبات المستقلة بدأ يظهر فى عصر العباسى الأول ، واستمر بعد ذلك فى بقية العهود الاسلامية . وقد احتوت هذه المكتبات على خزائن كبيرة لحفظ الكتب ، كذلك حوت على قاعات مخصصة للمطالعة ، اضافة لحجرات خاصة للنسخ والترجمـــة .

وتعد مكتبة بيت الحكمة ، أو خزانة الحكمة التى اسسها الرشـــيد واكتملت فى عهد المأمون ، من اشهر مكتبات بغداد . وقد احتوت هذه المكتبة على اعداد كبيرة من الكتب ، وكانت تضم غرفا خاصة للترجمة والنسخ ، وكان المأمون قد راسل قيصر الروم وجلب من بلاده ما عنده من كتب نادرة وأمر المترجمين فى هذه المكتبة بترجمتها من الاغريقية والسريانية(١٦) .

ومن مكتبات بغداد الشهيرة المكتبة التى الحقت بالمدرسة النظاميـــة ، وكانت ذات قاعات واسعة للمطالعة ، وهى مزودة بصهاريج تمدها بميـــاه الشرب . وقد بلغ عدد الكتب التى كانت تحويها هذه المكتبة نحو ٨٠ ألـــف مجـــلد .

ومن أشهر مكتبات القاهرة خزانة الحكمة التى انشأها الفاطميون ، وكان خلفاؤها يزودونها بالعديد من الكتب حتى وصل عـــددها الى حـــوالى المليون ونصف المليون كتـــاب .

ومن أشهر مكتبات بلاد الشام المكتبة التى انشأها الفاطميون فى

---

(١٦) أحمد امين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ٦١ .

طرابلس بالشام ، كذلك الخزائن النورية التى انشأها نور الدين زنكى ، ومكتبة انطاكية ، ومكتبات دمشق وحلب التى كانت ملحقة بمدارسها .

مكتبات الاندلس :

قلد الأندلسيون المشارقة فى اقامة المكتبات ، فلقد اسس الحكم بن الناصر (ت ٣٦٦ هـ) مكتبة قصره فى قرطبة ، وزاد عدد كتبها عن الأربعمائة الف كتاب . وكان بالاندلس ، فى اواخر القرن الخامس الهجرى ، نحو سبعين مكتبة عامة . ويقول الكاتب الأوربى « كوندى » Condé ان الأسبان ، عند استيلائهم على قرطبة من يد المسلمين ، احرقوا فى يوم واحد نحو سبعين خزانة للكتب حوت اكثر من مليون مجلد .

واضافة للمكتبات العامة ، كانت هنالك المكتبات الخاصة التى يمتلكها الوزراء والأمراء والعلماء والأعيان من التجار الذين شغفوا بالعلم وبالاطلاع وجمع الكتب لتكون هذه الكتب فى متناول ايديهم ومتناول من يطلبها من الدارسين تيسيرا لأمورهم فى مواصلة مسيرة البحث العلمى .

١ — العلوم النقلية

أ — العلوم الدينية :

القرآن وتفسيره :

نزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نحو ثلاثة وعشرين عاما ، هى عمر الرسول من بعد البعثة . وتوقف نزول الوحى بانتقال الرسول الى الرفيق الأعلى ، وترك القرآن غير مجموع فى مصحف واحد ، بل كان فى صحاف متفرقة كتبها كتاب الوحى وفى صدور الحفاظ من الصحابة . ولقد تم جمع القرآن فى صحف مخلفة فى عهد الصديق ابى بكر الى الخليفة عمر بن الخطاب ، ثم الى ابنته حفصة بعد وفاته ، حتى اذا تولى عثمان الخلافة اخذ الصحف من حفصة وعهد الى جمع من الصحابة بجمعها فى مصحف واحد ، وهم زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص . وبعد أن اتموا جمع المصحف الواحد ، كتبت منه نسخ كثيرة وزعت على الأمصار واحرق ما خالفه ، وعرف هذا المصحف بمصحف عثمان .

وتألفت سور القرآن من ١١٤ سورة ، ٨٨ منها مكية ، و ٢٦ مدنية ، وعدد آياته ٦٢٣٦ آية ، وعدد كلماته ٧٧٤٣٩ كلمة ، وعدد حروفه ٣٢٠٧٤٠ حرفا . ولم يكن القرآن منقطا ولا مشكلا ، وقد تم تنقيطه على يد نصر بن عامر الليثى بأمر والى العراق الحجاج بن يوسف الثقفى(١٧) . وتم تشكيله على يد ابى الأسود الدؤلى بتكليف من زياد بن بن أبيه(١٨) فى عهد حكم معاوية بن ابى سفيان .

وقد تشرفت اللغة العربية بنزول القرآن بها ، فألفاظه عربية الا ألفاظا قليلة اخذت من اللغات الأخرى وعربت ، وأساليبه هى اساليب العرب فى كلامها فيه الحقيقة والمجاز والكناية وغير ذلك على نمط العرب فى حقيقتهم ومجازهم(١٩) وهذا أمر طبيعى ان ينزل القرآن بلسان القوم الذين بعث الرسول من بينهم ليفهموه ، وقد قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » . ومع هذا لم يكن كل العرب على مستوى من الكفاءة العقلية والثقافية ليفهموا كل الكتاب لمجرد معرفتهم العربية ، لأن فهم القرآن لا يتطلب المعرفة باللغة وحدها بل يتطلب درجة عقلية خاصة تتفق ودرجة الكتاب فى رقيه . وفوق ذلك ففى القرآن آيات كثيرة لا يكفى فى تفهمها معرفة ألفاظ العربية وأساليبها فحسب بل يحتاج تفهمها الى ثقافات واستعدادات خاصة . وكان من البديهى ان يتفاوت الصحابة رضوان الله عليهم مقدرة فى فهم القرآن ومعرفة معانيه ، وكان الصحابة ، على العموم ، أقدر الناس على فهم القرآن لأنه نزل بلغتهم ، ولأنهم صحبوا رسول الله وعايشوه ، كذلك لأنهم شاهدوا الظروف التى نزل فيها القرآن وعرفوا أسباب التنزيل .

ولم يكن كل الصحبة على درجة واحدة فى فهم القرآن ، فقد اختلفوا فى الفهم على حسب اختلافهم فى أدواته . فقد تفاوتوا فى الفهم لتفاوتهم فى التعمق فى اللغة وفى معرفة الأدب الجاهلى وتاريخ الأمم السابقة . كذلك منهم من كان يلازم النبى أكثر من غيره فتكون مشاهدة اسباب نزول الآيات أوضح له من غيره واكثر عونا له على الفهم .

---

(١٧) ابن خلدون : وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص ٣٤٤ .
(١٨) ابن النديم : الفهرست ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٤٠ ، ٤١ .
(١٩) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤١٥ .

لهذه الاسباب ، ولغيرها ، جاء الاختلاف بين الصحابة فى فهم القرآن وتفسيره ، وبالقطع كان الاختلاف أشد عند التابعين الذين تتلمذوا على يد الصحابة ، وعند اجيال تابعى التابعين .

ولقد انقسم التفسير الى قسمين : قسم عرف بالتفسير المنقول ، والقسم الثانى عرف بتفسير الاجتهاد او الراى .

والنوع الأول من التفسير يعتمد على ما ورد بالنص نقلا عن رسول الله صلى ا لله عليه وسلم وأحاديثه الشريفه . وبمرور الزمن تضخم هذا التفسير المنقول فدخل فيه ايضا ما ورد على لسان الصحابة والتابعين .

اما النوع الثانى من التفسير ، وهو تفسير الراى أو الاجتهاد ، فهـو يعتمد على اختلاف التفسير فى معانى الآيات وفى معانى الالفاظ ، وعـدم التسليم بالتفسير فقط بظاهر اللفظ .

ولذلك نرى الصحابة ينقسمون بين هذين الفريقين وكذلك التابعين من بعدهم ، فنجد فريقا يتورع ان يقول فى القرآن شيئا برايه اذا سئل ، مثل سعيد بن المسيب وابن سيرين(٢٠) ، وفريق آخر يرى حل ذلك واستباحته ، بل يرى ان كتمان ما وصل اليه اجتهاده كتمانا للعلم ، مثل عبد الله بن مسعود وعبد الله بن العباس .

وهذا الاجتهاد هو الذى سبب الاختلاف بين الصحابة والتابعين فى تفسيرهم لألفاظ ومعانى القرآن وآياته اختلافا واضحا نلمسه فى معظم كتب التفسـير .

ومن أشهر رجال التفسير من الصحابة : الامام على بن ابى طالب ، وعبد الله بن العباس ، وعبد الله بن مسعود ، وأبى بن ابى كعب ، وزيد بن ثابت ، وابو موسى الأشعرى ، وعبد الله بن الزبير .

ومن أشهر المفسرين من التابعين : مجاهد ، عطاء بن ابى رباح ،

---

(٢٠) احمد امين : فجر الاسلام ، ص ٢٤٠ .

عكرمة مولى ابن العباس ، سعيد بن جبير ، مسروق بن الأجدع ، وقتادة بن دعـــامة .

ومن علماء الأجيال التالية : سفيان بن عيينة ، وكيع بن الجراح ، محمد بن جرير الطبرى(٢١) ، البغوى(٢٢) ، الزمخشرى(٢٣) ، الرازى(٢٤)، البيضاوى(٢٥) ، والسيوطى(٢٦) .

وأشهر التفاسير الحديثة : تفسير الشيخ رشيد رضا نقلا عن استاذه الشيخ محمد عبده ، وتفسير محمد فريد وجدى ، وتفسير فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ، والتفاسير الجزئية لعلماء الاسلام فى الأزهر ولغيرهم من المفسرين المحـــدثين .

علم الحديث (السنة النبوية) :

يراد بالحديث أو السنة ، ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول او فعل او تقرير ، على لسان التابعين نقلا عن الصحابة . للحـــديث قيمة كبرى فى الدين الاسلامى ، فهى رتبته رتبة القرآن ، ذلك لأن رسول الله لم يكن ينطق عن الهوى (ان هو الا وحى يوحى)(٢٧) ، وكثير من آيات القرآن مجملة أو مطلقة او عامة فجاء قول رسول الله او عمله فبينها او قيدها او خصصها . كذلك كانت تعرض لرسول الله حوادث ومواقف كان عليه ان يقض فيها ، ويتعرض لأسئلة واستفسارات كان عليه ان يجيب عليها ، وامور تتعلق بالسلم او الحرب كان عليه ان يبت فيها . فكان عليه السلام ينتظر ، فى أى منها نزول الوحى ، فاذا نزل اخذ بحكم الله دون تردد ، واذا لم ينزل تصرف برأيه او استشار صحابته ، فاذا نزل قرآن يصحح له المسار التزم

---

(٢١) كتاب جامع البيان فى تفسير القرآن .
(٢٢) معالم التنزيل .
(٢٣) الكشـــاف .
(٢٤) مفتاح الغيب .
(٢٥) أنوار التنزيل واسرار التأويل .
(٢٦) كتاب الجـــلالين .
(٢٧) النجـــم : ٤ .

به ، واذا لم ينزل كان يفهم ان الله ارتضى بحكمه وبتصرفه . ومن هنا كانت معرفة اصول الاسلام واحكامه لا تتم الا بدراسة الحديث مع دراسة القرآن ، ومن هنا كانت السنة ضرورة للمسلم ضرورة القرآن . وقد قال عليه السلام : « اثنان ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا ابدا : كتاب الله وسنتى » .

ولم يدون الحديث ، فى عهد رسول الله ، كما دون القرآن ، بل وجدنا احاديث تنهى عن تدوين الحديث خشية اللبس بينها وبين القرآن ، من ذلك قوله عليه السلام(٢٨) « لا تكتبوا عنى ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه » . وقد نشأ عن عدم تدوين الحديث فى كتاب خاص فى عهد الرسول أو عهد الراشدين ، والاكتفاء باعتماد المسلمين على الحفظ والذاكرة ، ونظرا لصعوبة حصر كل ما قاله رسول الله او فعله مدة ثلاثة وعشرين عاما هى مشوار حياته بعد البعثة ، ان وضعت احاديث كثيرة ونسبت كذبا الى رسول الله(٢٩) .

واقد ادى الى وضع الحديث امور اهمها :

١ — الخصومات السياسية ، كتلك التى كانت بين على ومعاوية ، وبين عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ، وبين العلويين والأمويين ، وبين الأمويين والعباسيين ، وبين العلويين والعباسيين . وقد عمد كل فريق من هؤلاء الى وضع أحاديث تؤيد موقفه فى الصراع من خصمه وتدعم حجته .

٢ — الخلافات الكلامية والفقهية ، وهو الخلاف الذى وقع بين علماء الكلام المجتهدين ورجال الفقه الذين التزموا بالسنة .

٣ — رغبة العلماء فى الحث على الفضائل والترغيب فى الأعمال الصالحة والتخويف من النار ، وكان بعضهم لا يحضره حديث فى ذلك المعنى فيؤلف حديثا من عنده ليؤيد به رأيه .

---

(٢٨) رواه مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى .

(٢٩) محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص ٢٢ .

٤ — الأحاديث التى قصد بها الوضع لهدم الدين وافساده ، وبخاصة تلك الأحاديث التى وضعها الزنادقة وبعض أحبار اليهود .

وقد روعت هذه الفوضى فى الحديث عن رسول الله جماعة من العلماء الصادقين فنهضوا لتنقية الحديث مما علق به من شوائب واظهار الصحيح منه والموضوع وسلكوا فى ذلك عدة مسالك منها : انهم طالبوا بضرورة اسناد الحديث وتعيين رواته ، وذلك بأن يقول المحدث : « حدثنى فلان عن فلان عن فلان .. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال كذا ... » ليتمكنوا بذلك معرفة صدق المحدث او كذبه . وكانت هذه طريقة أهل الحجاز ، وكان سيد هذه الطريقة الحجازية ، بعد السلف ، الامام مالك ثم أصحابه الامام الشافعى والامام احمد بن حنبل(٣٠) .

كذلك اخذ هؤلاء العلماء يشرحون الرجال ، فيجرحون بعضهم ويعدلون البعض الآخر ، ومن هنا جاء علم « الجرح والتعديل » فى الحديث الذى كان يكشف عن معايب رواة الحديث وناقلى الأخبار .

وكان للاختلاف المذهبى أثره فى الجرح والتعديل ، ونشأ عن هذا ان من يعدله قوم قد يجرحه آخرون . ولقد عنى علماء الجرح والتعديل بنقد الاسناد أكثر مما عنوا بنقد متن الحديث ، وكان الامام البخارى واحدا من هذا الفريق .

كذلك قسم هؤلاء العلماء الحديث ، بحسب قوة اسناده ، الى قسمين : متواتر أو غير متواتر (آحاد) .

فالمتواتر هو ما رونه جماعة يؤمن جانبها من التواطؤ على الكذب عن جماعة أخرى مثلها الى رسول الله ، ويكون له اسانيد كثيرة (من عشرة الى اكثر) .

اما احاديث الآحاد فهى غير المتواترة ، وهى يجوز العمل بها عند الفقهاء عند ترجيح صدقها ، وقد قسمت هذه الأحاديث ، حسب قوتها ،

---

(٣٠) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٧٧ .

الى درجات فمنها : الحسن ، والضعيف (واقسامه الموضوع والمقلوب(٣١))، والشاذ ، والمنكر ، والمضطرب(٣٢) .

وهنالك كتب وضعها علماء الجرح والتعديل لبيان الأحاديث الصحيحة من الأحاديث المقلوبة ، ومنها :

كتاب تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى ، وكتاب ميزان الاعتدال للحافظ الذهبى ، وكتاب التاريخ الكبير للامام البخارى ، وكتاب الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ، وكتاب الجرح والتعديل لجمال الدين القاسمى ، وكتاب الثقات لابن حيان ، وكتاب الموضوعات لابن الجوزى ، وكتاب الآثار المرفوعة فى الأخبار الموضوعة لعبد الحى اللكنوى ، وكتاب اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة للسيوطى ، وكتاب ناصر الدين الألبانى : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وغيرها .

وكان أكثر الصحابة رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ابو هريرة ، عائشة ام المؤمنين ، عبد الله بن عمر ، عبد الله بن العباس ، جابر بن عبد الله ، انس بن مالك ، وعبد الله بن عمرو بن العاص . ويعد أبو هريرة(٣٣) أكثرهم رواية للحديث ، فقد ثبت عنه انه روى عن رسول الله (ص) ٥٣٧٤ حديثا ، وتأتى بعده فى عدد الأحاديث التى رويت ، السيدة عائشة(٣٤) رضوان الله عليها فقد ثبت انها روت ٢٢١٠ حديثا . وكان عمر ابن الخطاب اقل الصحابة رواية للحديث ، فقد ورد انه روى على لسانه فقط خمسين حديثا(٣٥) .

---

(٣١) الحديث المقلوب هو ما وقعت فيه المخالفة بالتقديم والتأخير .

(٣٢) الحديث المضطرب ، هو الذى تختلف الرواية فيه ، فيرويه بعضهم على وجه ويرويه البعض الآخر على وجه آخر مخالف . وقد يقع الاضطراب فى الاسناد أو فى متن الحديث .

(٣٣) هو عبد الله أو عبد الرحمن ، لقب بأبى هريرة لأنه كانت له هرة صغيرة تلازمه وهو صغير ، اسلم سنة ٧ هـ ، ولازم رسول الله ، وتوفى سنة ٥٧ هـ .

(٣٤) هى ام المؤمنين عائشة بنت ابى بكر الصديق ، زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، توفيت سنة ٥٨ هـ .

(٣٥) ابن حزم : الملل والنحل ، ص ٢٤ ، ص ١٣٨ .

وكان لهؤلاء الصحابة تلاميذ يروون عنهم ، فكان قيس بن حازم يروى عن الصديق ابى بكر ، والزهرى عن عمر ، وسعيد بن المسيب عن ابى هريرة، وعبيد الله بن عمر عن السيدة عائشة ، وعكرمة عن عبد الله بن العباس .

تجميــع الحــديث :

عرضت فكرة تجميع الحديث الخليفة عمر بن الخطاب ، ولكنه عــدل عنها خوفا من وقوع اللبس بينه وبين القرآن . وعرضت ، بعــد ذلك ، للخليفة عمر بن عبد العزيز ، لكن قصر مدة خلافته (٩٩ — ١٠١ هـ) لم تمكنه من اتمام المشروع الذى كان قد بدأ بالفعل فيه . لكن خلفاء بنى امية من بعده لم يهتموا بالأمر .

وفى العصر العباسى الأول ، اراد ابو جعفر المنصور ان يجمع الحديث، واراد ان يكون « موطأ » الامام مالك هو الأساس الرسمى للحديث ، لكنه صرف فكره عن ذلك بعد وقوع الجفوة بينه وبين الامام مالك .

وفى القرن الثانى الهجرى ، بدات جماعة من الأمصار المختلفة تجمع الحديث ، فجمع كل عالم منهم الأحاديث التى توصل اليها وصحت عنــده . وقال ابن حجر فى شرح البخارى : « ان أول من جمــع ذلك الربيــع بن صبيح(٣٦) وسعيد بن ابى عروبة(٣٧) » .

وصنف الامام مالك بعد ذلك كتابه « الموطأ » بالمدينة ، وضمنه خمسمائة حديث من اصل عشرة آلاف حديث قام بجمعها ، وقد انتهى الامام مالك من ضبطه سنة ١٤٨ هـ فى اواخر عهد الخليفة المنصور العباسى .

وجمع عبد الملك بن جريج الأحاديث بمكة ، وكذلك جمــع الأوزاعى بالشام ، وسفيان الثورى بالكوفة . ثم جمع صحيحى مسلم والبخارى وكتب الســـنن .

ويعتبر الصحيحين (مسلم والبخارى) اصح الحديث عند جمهــرة

---

(٣٦) توفى سنة ١٦٦ هـ .

(٣٧) توفى سنة ١٥٦ هـ .

المسلمين ، كذلك مسند الامام احمد بن حنبل . ولقد رتب مسند الامام احمد على حسب الاسناد ، اما الصحيحان فقد رتبا على ابواب الفقه . وصحيح البخارى ينسب الى الامام محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة المعروف باسم البخارى نسبة الى بلدته بخارى التى ولد بها سنة ١٩٤هـ(٣٨) . وعدد احاديث البخارى ٢٧٦٢ حديث اعتمد فيها على صحة الاسناد ، ولقد استغرق الامام البخارى ست عشرة عاما فى جمع كتابه هذا الذى اسماه : الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وصحيح مسلم ، ينتسب الى الامام مسلم بن الحجاج القشيرى(٣٩) ، وعدد احاديثه بالمكرر ٧٢٧٥ حديث ، وبدون المكرر ٤ آلاف حديث .

اما كتب السنن الأربعة فهى : سنن ابى داود السجستانى (٢٠٢ — ٢٧٥ هـ) ، وهو يحوى على ٤٨٠٠ حديث ، وسنن الترمذى (ابو عيسى محمد بن عيسى ٢٠٩ — ٢٧٥ هـ) ، وسنن ابن ماجه (ابو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ٢٠٩ — ٢٧٣ هـ) ، وسنن النسائى (احمد بن شعيب ت ٣٠٣ هـ) .

وكتاب الصحيحين وكتب السنن هما اشهر كتب الحديث المعتمدة حتى يومنا هذا .

ولقد كان للحديث أكبر الأثر فى نشر الثقافة فى العالم الاسلامى ، ومن اجل طلبه ارتحل العلماء بين بلدان العالم الاسلامى وتعارفوا وتدارسوا ، وكان الحديث اساسا لبعض علوم جديدة عرفها المسلمون مثل علم التاريخ ، كذلك كان الحديث اوسع منبع للتشريع فى العبادات والمسائل المدنية والجنائية .

الفقه والتشريع :

لم تكن للعرب فى الجاهلية حكومة منظمة ولا ملوك يفصلون فى الحكم بينهم بل كانوا قبائل ، تدين كل قبيلة بالطاعة لشيخها ، ويرتبط افرادها فيما

---

(٣٨) توفى الامام البخارى سنة ٢٥٦ هـ .

(٣٩) توفى الامام مسلم سنة ٢٦١ هـ بنيسابور .

بينهم برباط الدم . وكان العرب يتحاكمون ، عند تخاصمهم ، الى شيخ القبيلة او الى الكاهن او الى اصحاب الراى من اهل قبيلتهم ، الذين لم يكن لديهم قانون مدون يحكمون بمقتضاه ، بل كانوا يرجعون الى العرف والتقاليد .

وجاء الاسلام وألغى حكم الجاهلية ، مع اقراره ببعض اعراف العرب وتقاليدهم التى تتماشى مع الدين الجديد . ولم تقم للرسول حكومة بمكة قبل الهجرة ، لكن الحكومة قامت فى المدينة . وفى المدينة نزلت آيات التشريع ولذلك فان العصر الذى عاش فيه الرسول بعد الهجرة هو عصر التشريع الاسلامى الحقيقى . فلقد نزل القرآن فيه بالأحكام وصدرت الأحاديث (والسنة) عن رسول الله تفسر الأحكام وتطبقها وتقرها وتنفذها . ولذلك صار الكتاب والسنة المصدرين الرئيسيين للتشريع الاسلامى .

التشريع بالقرآن :

قضت السور المدنية فى أمور التعامل بين المسلمين ، وحددت الأحكام فيها بعد قيام الدولة الاسلامية بالمدينة ، ولعل خير ما يوضح هذا النوع من التشريع سورتا البقرة والنساء المدنيتان(٤٠) .

وكان التشريع الاسلامى أكثر ما يكون بمناسبة حوادث تحدث فيتحاكم فيها المتخاصمون الى الرسول فتنزل الآية او الأيات ناطقة بالحكم . وكانت آيات الأحكام بالمدينة تنزل حسب تطور جماعة المسلمين بالمدينة ، فتشريع الجهاد والحرب ، مثلا ، نزل أول الأمر فى المدينة ، ثم جاء التوسع فى أحكام الحرب بعد ذلك ، كذلك الزكاة نزل ، اول الأمر ، اقرارها ، ثم جاء ، بعد ذلك ، تحديد قدرها وبيان مصارفها ، كل هذا ونحوه كثير كان تابعا لنمو جماعة المسلمين ورقيهم وتطور حالهم .

كذلك جاء التشريع فى القرآن « بالنسخ » مفسرا لنا مراعاة التدرج فى حال جماعة المسلمين . يقول الله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها

---

(٤٠) سورة البقرة ، هى السورة رقم ٢ فى القرآن الكريم ، وهى مدنية ، وأطول السور فعدد آياتها ٢٨١ نزلت بمنى فى حجة الوداع ، وسورة النساء ، سورة رقم ٤ ، مدنية وعدد آياتها ١٧٦ نزلت بعد الممتحنة .

نأت بخير منها أو مثلها »(٤١) . وقد علل الفقهاء جواز النسخ باختلاف مصلحة المسلمين مع اختلاف الأوقات . ومن الأمور التى جاء النسخ فيها ، على سبيل المثال ، أمر عدة الزوجة التى يموت عنها زوجها . ففى اول الأمر كانت المرأة تعتد لمدة عام بعد موت زوجها ، لقوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا وصية لأزواجهم متاعا الى الحول »(٤٢) . ثم جاء بعد ذلك التشريع بالنسخ وصارت مدة العدة أربعة شهور وعشرة ايام ، وذلك لقوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن اربعة اشهر وعشرا فاذا بلغن اجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف »(٤٣) .

التشريع بالسنة :

كل ما قاله النبى أو فعله او حدث امامه فأقره واستحسنه كان تشريعا ، ومتى ثبت ذلك عن رسول الله ، كان عند علماء التشريع ، فى القوة بمنزلة القرآن . ويتصل بهذا النوع من التشريع ما ارتضاه أكثر الأصوليين من ان رسول الله كان يجتهد برأيه حيث لا يكون وحى ، كذلك كان يستشير أصحابه فاذا جاء الحكم كما أراد الله تعالى لا ينزل فى الأمر وحى ، اما اذا كان هنالك تصحيح للمسار نزل الوحى . وآية ذلك ، مثلا ، ما صدر عن رسول الله بصدد أسرى بدر ، اذ اخذ الرسول برأى ابى بكر فى قبول الفداء عن الأسرى ، فنزل قول الله تعالى مؤيدا رأى عمر الذى كان يرى ضرورة قتل الأسرى ، اذ قال تعالى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم »(٤٤) .

---

(٤١) البقرة : ١٠٦ .
(قرأ ابو عمرو بن العلاء : « ما ننسخ من آية او ننسها » على معنى « نؤخرها » والعرب تقول « نسأ الله فى أجلك » ، اى : « اخر الله اجلك » (ابو على القالى : الأمالى ، ج ١ ، القاهرة ١٣٢٤ هـ ، ص ٥) .

(٤٢) البقرة : ٢٤٠ .

(٤٣) البقرة ٢٣٤ .

(٤٤) الأنفال : ٦٧ ، ٦٨ .

وأحاديث الأحكام كثيرة وردت فى كل الامور والأحوال التى تعرض لها المسلمون فى عهد الرسول ، منها فى أمور وردت فى القرآن ، ومنها فى امور لم ترد فيه . وقد عنى العلماء قديما بجمعها وترتيبها ترتيبا فقهيا ، وأوردوها فى كتب الحديث .

هذان الأصلان — الكتاب والسنة — هما مصدر التشريع فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك يتبين أن اساس القانون والتشريع الاسلامى اساس ربانى ومصدره الله تعالى فيما نص عليه من كتاب وما ورد على لسان رسوله من حديث بوحى منه سبحانه وتعالى ، وليست لأية سلطة الحق فى مخالفتهما ولا الخروج عما ورد فى نصوصهما ، وانما فقط له حق الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص صريح مسترشدا بما ورد فى الكتاب والسنة من قواعد كلية . وبذلك يخالف التشريع الاسلامى القوانين الوضعية التى تكون السلطة التشريعية فيها فى منتهى الحرية فى تفسير قانون أو تعديله او الغائه . وليس الشأن كذلك فى القوانين الالهية ، فحرية الفقهاء والعلماء محدودة ففى دائرة فهم نصوص القرآن والتوثق من السنة ، لهم حق الافتاء فيما لم يرد فيه كتاب ولا سنة صحيحة(٤٥) .

التشريع بالرأى (الاجتهاد والقياس) :

واجه المسلمون مسائل كثيرة فى كل شأن من شئون الحياة ، بعد وفاة الرسول وانقطاع الوحى ، وكانت تحتاج الى تشريع لم يكونوا فى حاجة له وهم فى جزيرة العرب ، فقد اتسعت الدولة وكثرت مشاكلها وتشعبت أمورها وتعددت اجناسها . لذلك توصل علماء المسلمين الى اصل آخر من اصول التشريع وهو التشريع بالاجتهاد والرأى والعمل بالقياس .

وكان الخليفة عمر اظهر الصحابة فى استعمال الرأى ، ذلك لاتساع الدولة فى عهده ، ومواجهته لمسائل جديدة فى امور السياسة والاقتصاد والعمران والمعاملات . فكان عمر يجتهد برايه ، حيث لا نص من كتاب ولا سنة ، مسترشدا بما ورد فيهما . وكان كذلك يأخذ برأى صحابته وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(٤٥) أحمد امين : فجر الاسلام ، ص ٢٨٢ .

ويعتبر عمر مؤسسا لمدرسة الراى والاجتهاد فى التشريع ، ولقد انتشر اتباع هذه المدرسة وازداد فى القرنين الأول والثانى للهجرة ، وكان كثير من التابعين وتابعى التابعين من تلاميذ هذه المدرسة ، التى كانت العراق أكبر موطن لهـا .

ولقد اعتمد علماء هذه المدرسة على الراى والاجتهاد والقياس اعتمادا كبيرا ، وفرعوا الفروع واستنبطوا الأحكام ، وقد حدوا من التوسع فى الاعتماد على الحديث ، ووضعوا شروطا شديدة فى الأخذ بها .وقد تصدت لهذه المدرسة مدرسة مضادة هى « مدرسة الحديث » او « اهل السنة » ، الذين لم يعملوا الراى فى التشريع ولم يجتهدوا ، واعتمدوا على نص الحديث اعتمـادا كليـا ، وتساهلوا فى شروطه ، وقدموه على الراى والاجتهاد والقياس ، وكان الحجاز أكبر موطن لهذه المدرسة .

أئمـة التشريع :

كان الرسول عليه الصلاة والسلام هو مشرع الأمة ، كذلك كان الخلفاء الراشدون مع استشارتهم لكبار الصحابة فيما لم يرد فيه كتاب ولا سنة . وكان الخلفاء يقومون بتطبيق التشريع بين المسلمين . وفى عهد عمر عـين القضاة فى الأمصار ليطبقوا التشريع وجعل الى جانبهم جملة من الصـحابة والتابعين يستفتوهم فيما يعرض لهم فيفتون .

وفى عهد الدولة الأموية ، وجد أئمة التشريع الذين كان لهم اجتهادهم الخاص مثل الأوزاعى ، وفى اواخر عهد الدولة ظهر امامان من أئمة التشريع الأربعة المعتمدين عند المسلمين وهما :الامام ابو حنيفة فى العـراق والامام مالك بن انس فى المدينة .

الأئمـة الأربعـة :

١ ــ الامام أبو حنيفة النعمان بن ثابت التيمى (٤٦) :

ولد الامام أبو حنيفة بالكوفة سنة ٨٠ هـ ، فى ولاية الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، وتوفى سنة ١٥٠ هـ ببغداد ، وقبره لا يزال هناك فى

---

(٤٦) احمد امين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٧٧ .
(كان الامام ابو حنيفة مولى لبنى تيم الله ، ولذلك يقال له ابو حنيفة التيـمى) .

حى الأعظيمة . وهو من اصل فارسى ، اشتغل بتجارة الثياب ، وتتلمذ على يد فقهاء الكوفة وبخاصة على يد الشيخ حماد شيخ فقهاء الكوفة ، واخذ الفقه عن الامام جعفر الصادق وعن ابراهيم النخعى ، وسمع الحديث عن الشعبى والأعمش وقتادة وتردد على حلقات علماء الكلام وأعجب بمكرهم الحر . تعرض للافتاء والتشريع ، واشتهر بقدرته على استخراج الاحكام وقوة حجته وحسن منطقه ودقة استنتاجه . نظر فى الامور الدينية وعالج القضايا بمنظار المصلحة العامة ، وقام بتفريع الفروع مستخدما القياس والراى والاجتهاد اوسع استخدام ، ومن اجل ذلك فهو يعتبر امام اهل الراى . وقد افتى الامام ابو حنيفة فيما لم يقع وما يستبعد وقوعه ، وكانت طريقته تعتمد : اولا على القرآن ، ثم الحديث المعتمد الذى كان يتشدد فيه بالنظر الى المتن وفحصه فحصا جيدا ، ثم اعمال الراى والاجتهاد والقياس .

وللأسف لم تصلنا تآليف الامام الشرعية ، ولكن ما وصلنا عنه جاء على يد اخلص تلميذين له ، وهما : ابو يوسف قاضى قضاة الرشيد وصاحب كتاب الخراج الشهير(٤٧) ، ومحمد بن الحسن(٤٨) ، وزفر(٤٩) وقد نسبت الى الامام ابى حنيفة كتب كثيرة ، ضاع للاسف معظمها ، منها : كتاب الفقه الكبير ، وكتاب العالم والمتعلم ، وكتاب الرد على القدرية .

٢ — الامام مالك بن أنس :

هو الامام مالك بن أنس بن ابى عامر الأصبحى ، وهو عربى الاصل ، ولد بالمدينة سنة ٩٣ هـ ، وكان ابوه فقيرا ، وكان لذلك يصنع النبال ويعول منها نفسه واهله . تعلم بالمدينة وعلم بها ، ولم يروى عنه انه غادرها الا الى مكة حاجا . تلقى العلم على يد الشيخ ابن شهاب الزهرى ، وكان الأساس فى تنشئته وتكوين فكره ، كذلك على يد الامام جعفر الصادق .

اشتهر الامام مالك بجمع الحديث ، وانه حجة فيه ، ويعتبر امام اهل الحديث . وكان مذهبه يعتمد على الحديث تماما ، ولم يعمل بالراى مخالفا

---

(٤٧) ت ١٨٢ هـ
(٤٨) هو محمدبن الحسن الشيبانى ، ت ١٨٩ هـ .
(٤٩) توفى سنة ١٥٨ هـ .

فى ذلك منهج الامام ابى حنيفة . وكان يحتج بعمل اهل المدينة ويعتمد عليهم فى الأحاديث لادراكه ان الرسول عاش بينهم وأنهم حفظة الحديث .

الف الامام مالك كتابه الذى اسماه « الموطأ » بمعنى « المحرر » أو « المنقح »(٥٠) ورتبه على ابواب الفقه ، واشتهر بأنه كتاب حديث ، مع انه فى الحقيقة كتاب فقه وتشريع وان كان قد ملىء بالحديث . وكان غرض الامام مالك من وضعه الاتيان بالتشريع مستدلا عليه بالحديث ، ولذلك نجـد فيـه فتاواه الشخصية وآراءه فى بعض المسائل استنادا على الحديث . وكان الامام مالك قد حفظ وجمع مائة الف حديث ، جمع منها فى الموطأ عشرة آلاف ، ثم اخذ فى عرضها على الكتاب والسنة واختبارها بالآثار والأخبار حتى خلصت عنده الى ٥٠٠ حديث .

وكان الخليفة ابو جعفر المنصور معجبا كل الاعجاب بالامام مالك ، واراد ان يجعل كتاب الموطأ اساسا للسنة النبوية ، لكنه غضب عليه وانصرف عن رايه حين شايع الامام مالك ثورة محمد النفس الزكية (محمد بن عبد اله ابن الحسن) من آل البيت العلويين ضد المنصور(٥١) ، فضربه المنصـور بالسياط مائة سوط حتى انخلعت كتفه ، وحمل على بعير للتشهير به . وكان هذا الضرب سبب موته ، اذ توفى ، فى أعقابه ، سنة ١٧٩ هـ . ويقـال ان المنصور حاول الاعتذار له عن ذلك ولكن الامام مالك لم يقبل عذره .

٣ — الامام الشـافعى :

وتلى هذين الامامين ظهور الامامين الشافعى واحمد بن حنبل . والامام الشافعى هو محمد بن ادريس الشافعى ، وهو عربى من قـريش ، يلتقى نسبه ، من جهة أبيه ، مع نسب الرسول صلى الله عله وسلم فى عبـد مناف .

---

(٥٠) قال الامام الشافعى عن هذا الكتاب : « مافى الأرض كتاب فى الفقه والعلم أكثر صوابا من كتاب مالك » ، ويقول اهل الصحاح واصحاب الأسانيد : ان الموطأ هو الأصل الأول وصحيح البخارى هو الأصل الثانى .

(٥١) كان محمد النفس الزكية قد بايع المنصور عند توليه الخلافة ، ولكنه حين ثار عليه اراد ان يرتد فى بيعته ، فسأل الامام مالك فى امر رد البيعة واليمين ، فأفتاه الامام بقوله انه « ليس على مكره يمين » ، فقام برد البيعة . ووصل أمر ذلك الى المنصور فكان سبب غضبه على الامام مالك .

ولد الامام فى غزة سنة ١٥٠ هـ(٥٢) ، وتوفى والده وهو صغير ، فأخذته أمه الى مكة حيث درس الحديث هناك على علمائها ، ثم وفد الى المدينة والتقى هنالك بالامام مالك وتتلمذ على يديه وحفظ عنه كتاب الموطأ . وبعد ذلك أخذ فى الرحلة لتحصيل العلم وجمع الحديث ، فنزل الكوفة ودرس هناك فقه الامام ابى حنيفة على يد تلاميذ الامام . ولقد اتهم الامام بمشايعته للعلويين ، ولذلك قبض عليه الرشيد وساقه الى بغداد فى الأغلال ، وعفا عنه بعد أن تأكد من براءته ، وسمح له الرشيد بالاقامة فى بغداد ، لكن الامام استأذن الخليفة فى الذهاب الى مصر . فارتحل اليها سنة ٢٠٠ هـ وظل بها هنالك يعلم ويدرس حتى توفى بعد اقامته بها بأربع سنوات (ت ٢٠٤ هـ) ، ودفن بها هناك خارج مدينة القاهرة(٥٣) .

وجاء مذهب الامام الشافعى فى التشريع ، وسطا بين مذهبى الامام مالك والامام ابى حنيفة ، لا هو شديد التوسع فى الرأى ولا هو المعتمد كلية على الحديث . ولعل مذهب الامام هذا جاء نتيجة تتلمذه على مذهبى الامامين ، كذاك كان لسفره الكثير وتجاربه المتعددة ومشاهداته المختلفة فى الأمصار التى زارها ، الأثر فى وضع هذا المذهب الذى حاول التقريب بين مذهبى الامامين الجليلين وتضييق الشقة بنهما .

وكانت طريقة الامام الشافعى فى الاجتهاد والتشريع أن الأصل هو القرآن والسنة ، فان لم يكن فقياس عليهما ، واذا اتصل الحديث عن رسول الله وصح الاسناد منه فهو سنة ، واذا تكافأت الأحاديث فأصحها اسنادا هو أولاها . ويقاس الفرع على الأصل فاذا صح قياسه صح واخذ به وقامت به الحجة(٥٤) .

وقد جمع الامام الشافعى آراءه وأحكامه فى كتاب اسماه « الرسالة » . وللامام كتب كثيرة منها : كتاب المبسوط فى الفقه ، واحكام القرآن ، وكتاب المناسك ، وكتاب البيوع ، ويعد كتاب « الأم » أشهر كتبه جميعا .

---

(٥٢) وفى رواية انه ولد بعسقلان .
(٥٣) لا زال قبره ومشهده هنالك فى منطقة تعرف باسمه بها جامعه الشهير ، وهو من أشهر جوامع القاهرة .
(٥٤) ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ .

٤ — الامام احمد بن حنبل :

وهو احمد بن محمد بن حنبل بن هلال ، عربى الأصل من شيبان ، ولد فى بغداد سنة ١٦٤ هـ(٥٥) ، تعلم على يد كبار الفقهاء والمحدثين فى عهده ، وكان كالإمام الشافعى ، كثير الرحلة ، زار الحجاز واليمن والشام وتنقل فى العراق واتصل بالعلماء فى كل بلد يزوره . عاصر المأمون وحركته العلمية ولم يقل بقول المعتزلة ، وكانت بينه وبين المعتزلة مناقشات علمية وفقهية كثيرة تشدد برأيه فيها ونقض حجج المعتزلة ، لذلك تغلبوا عليه لنفوذهم السياسى عند الخليفة ، فضرب وعذب وسجن فى محنة القرآن وتمسك برأيه ان القرآن ازلى وليس بمخلوق محدث ، مناقضا فى ذلك لرأى الخليفة . وظل الامام سجينا حتى وفاة المأمون وافرج عنه اخوه المعتصم ، وتوفى فى خلافة المتوكل سنة ٢٤١ هـ(٥٦) .

ولقد نحا ابن حنبل نحو استاذه الشافعى ، الا انه انكر عليه اخذه بالرأى ، واعتبر الحديث افضل من الرأى فعاد الى رأى الامام مالك وصار ابن حنبل امام اهل الحديث فى عهده .

وكان الامام الشافعى يحب تلميذه ابن حنبل ويقدره ، ولقد قال عنه وهو يودع بغداد : « خرجت من بغداد وما خلفت فيها رجلا افضل ولا اعلم ولا افقه ولا اتقى من احمد بن حنبل » .

ولقد جمع الامام احمد فقهه والأحاديث التى توصل اليها فى كتابه « المسند » ، وعددها ٤٠ الف حديث اخرجها من اصل ٧٠٠ الف حديث . وللامام ابن حنبل كتب اخرى غير المسند ، منها : كتاب الزهد ، الصلاة ، المناسك الكبير ، المناسك الصغير ، المقدم والمؤخر فى كتاب الله ، فضائل الصحابة ، والناسخ والمنسوخ وغيرها .

---

(٥٥) نفس المصدر السابق ، ص ٢٣٥ .

(٥٦) توفى فى شهر ربيع الآخر ، ودفن بباب حرب فى الجانب الغربى من بغداد وصلى عليه محمد بن طاهر ، وحضر جنازته خلق من الناس ولم ير مثل ذلك اليوم والاجتماع فى جنازة من سلف قبله .

(المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٢ ، طبعة بولاق ١٢٨٣ هـ ، ص ٢٩٧) .

كان العصر العباسى الأول اكثر عصور الاسلام نشاطا فى التشريع واوفرها عددا من المشرعين ، وهو العهد الذى شهد ظهور المذاهب الفقهية الأربعة . كذلك كان من اكبر مميزات هذا العهد فى التشريع التدوين ، فقد ظهرت حركة التدوين فى هذا العصر فى كل فروع العلم ومنها الفقه والتشريع . كذلك كان هذا العصر عصر حرية الاجتهاد(٥٧) .

ولقد توزعت المذاهب الفقهية الأربعة فى العالم الاسلامى السنى ، وانتشر كل مذهب فى قطر أو فى عدد من الأقطار الاسلامية ، فانتشر المذهب الحنفى فى العراق والشام والأناضول وآسيا الوسطى ، وكان المذهب الرسمى للدولة العثمانية . وانتشر المذهب الشافعى فى مصر وجنوب شرق آسيا ، وانتشر المذهبين المالكى والحنبلى فى نجد وصعيد مصر والسودان وبلاد المغرب والأندلس . وتعد الحركة الوهابية حركة تصحيح قام بها اتباع مذهب الامام احمد بن حنبل لتنقية الاسلام من الشوائب التى علقت به على مر العصور .

ب — العلوم اللغوية والتاريخ

اللغة العربية :

اللغة العربية هى أرقى اللغات السامية واغناها واكثرها مرونة وسعة اشتقاق . ولقد جعلت مرونة هذه اللغة ، بما فيها من اشتقاق ومجاز وقلب وابدال ، وجعلتها ان تكون جديرة بشرف نزول القرآن بها واستطاعتها على ان تعبر عما فيه من معانى سامية رفيعة ، وأن تكون اداة لنقل ما فى علوم الفرس والهنود والسريان واليونان . وقد استطاعت هذه اللغة ، بسبب مرونتها ، أن تحتوى ما فى اللغات الأخرى وتعربها ، بل نجحت فى ان تصبح لغة ثقافة الشعوب التى دخلت فى الاسلام .

وفى العصر العباسى الأول اصبح فى العالم الاسلامى لغتان عربيتان ، الأولى لغة الفصحى ، وهى لغة الكتابة والبيان ، والثانية لغة عامية ، هى لغة المولدين والبلديين .

---

(٥٧) ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٧١ ، ١٧٢ .

ولذلك واجهت علماء اللغة المشاكل الكثيرة حين شرعوا فى جمع هذه اللغة وضبطها ووضع اصول قواعدها . ومن اجل ذلك ارتحل العلمــاء ، الذين وقع على عاتقهم جمع هذه اللغة ، الى البادية واخذوا عن ســكانها اصولها ، على اساس ان المدينة لم تفسد لسانهم كما فسد لسان اهل الحضر بالاختلاط بغيرهم من غير العرب .

ويحدثنا الأصفهانى فى كتابه الاغانى انه قيل للشاعر بشار بن برد(٥٨) : « ليس هنالك لأحد من شعراء العرب شعر الا وقد قال فيه شيئا استنكرته العرب من الفاظهم وشكوا فيه ، وانه ليس فى شعرك ما يشك فيه ؟ فقال : ومن اين يأتينى الخطأ وقد ولدت فى البادية ، ونشأت فى حجور ثمانين شيخ من فصحاء بنى عقيل ما فيهم احد يعرف كلمة من الخطأ ، وان دخلت الى نسائهم فنساؤهم افصح منهم ، ولقد أينعت فأبديت الى ان ادركت فمن اين يأتينى الخطــأ ؟ »(٥٩) .

وكان من اشهر العلماء الذين قاموا بهذه الرحلة الى البادية لجمــع مفردات اللغة فى العصر العباسى الأول : ابو يزيد الانصارى ، أبو عمرو بن العلاء ، الأصمعى ، الكسائى ، والخليل بن احمد . وقد اقتصر عمل هؤلاء العلماء على النقل من العرب مشافهة ، دون التقيد بالكتابة ، وبعد ذلك جاءت مرحلة تدوينهم لما سمعوا من العرب مباشرة أو بواسطة فى عصر التدوين .

ولقد صاحب عملية جمع اللغة بعض الزيادات وبعض الوضع ، بسبب وقوع بعض رجال البادية ممن نقل عنهم فى الخطأ أو تحرى بعضهم الكذب ، كذلك بسبب زيادة واختلاق بعض العلماء لألفاظ اللغة لسبب المنافسة الشديدة بينهم والرغبة فى الحظوة عند الخلفاء والأمراء الذين اهتموا بهذا الأمر . وفى كتاب « الكامل » للمبرد باب جعله باسم « أكاذيب العرب » تحدث فيــه عن هذه الاكاذيب . كذلك جاء الوضع وجاءت الزيادة بسبب العداء الـواقع

---

(٥٨) اجمع القدماء من الأدباء والنقاد واهل العلم باللغة على تقــديم بشار بن برد وايثاره على غيره من الشعراء الذين عاصروه فى العصر العباسى الاول .

(طه حسين : من تاريخ الأدب العربى ، ص ٩٣) .

(٥٩) الأغانى ، ص ٧ ، ص ٢٢٠ .

بين علماء البصرة وعلماء الكوفة وتعصب كل منهما لمذهبه وطريقته ، ومحاولة برهان الحجة بالموضوع من القول ، وكتب النحو واللغة مليئة بما يدل على ذلـــك .

ولقد بذل هؤلاء العلماء الأول جهدا كبيرا فى محاولة تصحيح اللغـــة واظهار الصحيح الفصيح منها ، وما هو موضوع وضعيف .

وجاءت مرحلة تدوين اللغة ، بعد عملية التصحيح ، وقد مرت هـــذه المرحلة بثلاث خطوات :

الخطوة الأولى : شملت تدوين مفردات اللغة بدون ترتيب ، وحسبما اتفق وكما تيسر للعلماء سماعها .

والخطوة الثانية : شملت جمع الكلمات الخاصة بموضوع واحـــد ، واظهر ما كان من ذلك جاء فى كتب الأصمعى ، ومنها كتاب الأجناس ، وكتاب الفرس ، وكتاب الابل ، وكتاب المذكر والمؤنث وغيرها .

والخطوة الثالثة : هى خطوة وضع المعاجم التى تشمل كل الكلمـــات العربية على نمط خاص ، وأول من وضع هذه المعاجم الخليـــل بن احمـــد الفرهودى(٦٠) ، الذى وضع معجمه فى ثمانية وأربعين جزءاً واطلق عليـــه اسم « العين » . وقد سمى كتابه بهذا الاسم على اعتبار ان حرف العين هو اول اجزائه(٦١) ، وقد راعى فى ترتيب كتابه مخارج الحروف فبدأ بالحروف التى تخرج من الحلق ، ثم ما بعده من حروف الحنك ، ثم ما بعـــده من الاضراس ، ثم الشفة ، وجعل آخرها الحروف الهوائية ، وهى حروف العلة. وجاء ترتيب الحروف كالآتى : ع ، ح ، هـ ، غ ، ق ، ك ، ج ، ش ، ض ،

---

(٦٠) هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفرهودى ، وهو عربى من الأزد من فراهيد ، وكان أبوه اول من سمى بأحمد فى الاسلام ، كان غـــاية فى استخراج مسائل النحو وتحقيق القياس ، وهو اول من استخرج علم العروض وحصن به أشعار العرب ، توفى بالبصرة ســـنة ١٧٠ هـ ، وهـــو يناهز من العمر الرابعة والسبعين .

(ابن النديم : الفهرست ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٤٣ ، ٤٤) .

(٦١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ضحى الاسلام ص ٢٦٧

ص ، س ، ز ، ط ، د ، ت ، ظ ، ذ ، ث ، ر ، ل ، ن ، ف ، ب ، م ، و ، ا ، ى .

وقد دخل على كتاب « العين » الكثير من التصحيح ، ولكن علماء اللغة ومؤلفى المعاجم استمروا يسيرون على نهجه ، حتى جاء « الجوهرى » فى القرن الرابع فاخترع النمط الذى جرى عليه فيما بعد القاموس ولسان العرب وغيرهمـــا .

ومن كتب الخليل بن احمد : كتاب فائت العين ، وكتاب النقط والشكل، وكتاب العروض ، وكتاب النغم ، وكتاب الشواهد ، وكتاب الايقاع .

وقد قام الخليل بتلقين علومه لتلاميذه ، فلقد كان ارقى من ان يعكف على الكتب يدونها ، فهو يخترع العلم ويتركه لتلاميذه يدونونه ، فعل ذلك فى اللغة فوضع فكرة المعجم وتركه لتلميذه الليث بن نصر يكمله وفعل ذلك فى النحو ولقنه لتلميذه سيبويه . ولم يكن الخليل بن احمد بالرجل الذى يسعى للكسب المادى من وراء علم فقد كان من الزهاد فى الدنيا والمعرضين عنها ، وقد قال عنه سفيان الثورى فى ذلك(٦٢) « اكلت الدنيا بعلم الخليل بن احمد وكتبه وهو فى خص لا يشعر به ، وما يحكى عنه من العلم والزهد اشـــهر من ان يشهر واظهر من ان يذكر » .

الأدب العـربى :

جاء جمع الأدب العربى مثل جمع اللغة ، وفى غمار جمعهـــا ، ذلك لاختلاط الأدب باللغة ، وكان نفس العلماء الذين تصدوا لجمع اللغة قد تصدوا لجمع الأدب من نفس المصدر ، من البادية . وكما جاء الدس والزيادة والوضع فى اللغة جاء الوضع فى الأدب ، وذلك لشغف الولاة والأمـراء بالشـــعر اللطيف والقصص الغريب ، وادراك القائمين بأمر الجمع لذلك ورغبتهم فى احراز المكانة والحظوة والثروة .

ولقد كثر الوضاع فى الأدب ، وكان ممن اشتهر منهم بذلك : حمـــــاد الراوية ، وخلف الأحمر ، وهشام الكلبى ، والنسابة وغيرهم ، وقد ملأ هؤلاء

---

(٦٢) ابن الانبارى : نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ، بغداد ١٩٧٠ ، ص ٤٧ .

كتب الأدب العربى بالقصص والاخبار والقصائد التى لم يتحروا فى جمعها الحق والصدق فأفسدوا الادب والرواية .

وحين بدأ تصحيح الأدب وتدوينه فى العصر العباسى الاول ، جاء جمعهم وتدوينهم على منهج الاختيار ، وبذلك وصلت الينا مجموعة المختارات من الأدب العربى . يقول ابن خلدون فى ذلك(٦٣) : « ان اصول هذا الفن واركانه اربعة دواوين ، وهى : ادب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين الجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادى ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها » .

ومن أقدم ما وصلنا من هذه المجموعات وكلها شعر : المعلقات السبع ، ويغلب على الظن أن جامعها هو حماد الراوية ، المفضليات ، وهى مجموع قصائد جمعها المفضل الضبى للخليفة المهدى ، وهى ١٢٨ قصيدة . الأصمعيات ، وهى مجموعة قصائد عددها ٧٧ قصيدة تنسب للاصمعى . جمهرة اشعار العرب ، وهو مختارات من الشعر الجاهلى والمخضرم ، تنسب الى ابى يزيد محمد بن ابى الخطاب القرشى(٦٤) . ديوان الحماسة لأبى تمام ، وفيه قطع كثيرة صغيرة من الشعر الجاهلى ، ديوان الحماسة للبحترى ، وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ، الذى يحتوى على اجزاء صغيرة كثيرة من الشعر الجاهلى .

ومن أشهر ما وصل الينا من الكتب التى جمعت بين مختار الشعر والنثر : كتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى .

ولقد شهد العصر العباسى الأول ثورة واسعة ضخمة فى الادب ، وبخاصة فى الشعر ، وظهر فى هذا العصر فحول الشعراء الذين أثروا الشعر العربى بأشعارهم ، ونهجوا بالشعر فى هذا العصر مناهج جديدة فى المعانى والموضوعات والاساليب .

---

(٦٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٥١ .
(٦٤) توفى سنة ١٧٠ هـ .

من هؤلاء الشعراء : أبو العتاهية : ، صاحب قصائد الحكمة والموعظة أبو تمام(٦٥) ، صاحب النزعة العقلية والفلسفية فى الشعر ، البحترى(٦٦) ، صاحب الأوصاف البديعة والمدائح الخالدة . ابن الرومى(٦٧) ، صاحب شعر المعانى النادرة . أبو نواس(٦٨) ، اشهر من نظم فى الخمر والغزل والصيد. وابن المعتز الشاعر الأمير .

ولقد كان ارتقاء الشعر فى هذا العصر بسبب اختلاف صور الحياة وقيمة الأشياء ، كذلك بسبب تشجيع الخلفاء للعلماء عامة وللشعراء على وجه الخصوص ، اضافة الى أثر الثقافة الأجنبية وحركة الشعوبية وقيام الفرق الدينية والسياسية .

وكما ازدهر الشعر فى العصر العباسى الأول ، ازدهر أيضا النثر ، وظهر فى ذلك الوقت ، طائفة من كبار كتاب المتلمين الناثرين مثل : ابن المقفع ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، والمبرد وغيرهم .

ابن المقفع :

واسمه الحقيقى روزبة بن داذويه ، وكنيته أبو عمرو(٦٩) ، وكان ابوه من قرية جور من بلاد فارس ونشأ فى البصرة ، وكان مجوسيا ، لكنه اعتنق الاسلام على يد عيسى بن على بن عبد الله العباسى عم السفاح والمنصور وكتب له . وكان ابن المقفع قد أتقن العربية وتثقف بثقافتها لنشأته فى ولاء بنى الأهتم ، وكانوا عرب اهل فصاحة وبلاغة ، فكان لهذه النشأة

---

(٦٥) هو حبيب بن أوس الطائى ، ولد بقرية منبج بالشام سنة ١٩٠ هـ، وتوفى سنة ٢٣٠ هـ .

(٦٦) ولد سنة ٢٠٦ هـ ، وتوفى بمنبج حوالى سنة ٢٨٦ هـ .

(٦٧) ولد سنة ٢٢١ هـ ، وتوفى مسموما سنة ٢٨٤ هـ ، سمه القاسم ابن عبد الله وزير الخليفة المعتضد .

(٦٨) هو الحسن بن هانىء ، ولد سنة ١٤١ هـ ، وتوفى سنة ١٩٩ هـ .

(٦٩) روى ان تسميته بابن المقفع جاءت من ان اباه داذويه كان متوليا خراج بلاد فارس من قبل والى العراق الحجاج بن يوسف الثقفى ، فاختلس بعض أموال السلطان فضربه الحجاج على يديه حتى تقفعتا فلقب بالمقفع .

تأثير عظيم فيه وفيما وصل اليه من معرفة رفيعة فى الأدب العربى . كذلك كان حظه عظيما من الثقافة اليونانية ، فهو أول من ترجم كثيرا من كتب أرسطو فى المنطق والجدول والقياس والمقولات(٧٠) . فجمـع بذلك بين الثقافات العربية واليونانية والفارسية .

اتهم ابن المقفع بالزندقة ، وقتل بسبب ذاك ، ويقولون بل قتله عهـد كتبه لعبد الله بن على احرج صدر المنصور ، اذ ازم الخليفة ان رجع ان تكون نساؤه طوالق ورقيقه احرارا ، الى غير ذلك ، فغضب المنصور واغرى والى البصرة سفيان بن حبيب بن المهلب باتهامه بالزندقة وقتله فقتله سنة ١٤٢ هـ .

ويرجح عميد الأدب العربى أن قتله جاء بسبب كتابه الذى كتبه بعنوان « رسالة الصحابة » ووجهه للخليفة المنصور(٧١) .

ولابن المقفع غير رسالة الصحابة رسائل أخرى ، منها : الادب الكبير ، والأدب الصغير ، واليتيمة ، وكتاب كليلة ودمنة الذى نقله عن الفهلوية . وكا نقد نقل الى الفهلوية من الهندية على عهد الملك كسرى أنو شروان .

الجـاحظ :

هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وقد سمى كذلك لجحوظ عينيه وقبح شكله . ولد بالبصرة سنة ١٥٩ هـ ، وتثقف بالثقافة العربية واليونانية والفارسية ، وعاش حياة طويلة ، ناهزت القرن من السنين ، هو قرن ازدهار الدولة العباسية .

اخذ الجاحظ الثقافة العربية من المربد بالبصرة ، ومن علمائها الأصمعى وابو زيد ، واخذ الثقافة اليونانية من حنين بن اسحق وسلمويه وغيرهما ، واخذ الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع وغيره .

عايش الجاحظ عددا كبيرا من خلفاء العباسيين ، فلقد ولد فى خلافة المهدى ، وكان صبيا فى خلافة الهادى ، وشابا فى خلافة الرشيد والمأمون

---

(٧٠) طه حسين : من تاريخ الأدب العربى ، ج ٢ ، ص ٤٤٤ .
(٧١) نفس المصدر السابق ، ص ٤٤٥ .

والمعتصم ، وكهلا فى خلافة المتوكل ، وشيخا مريضا بالفالج والنقرس فى دولة المنتصر والمستعين والمعتز ، وودع الحياة فى خلافة المهتدى (سنة٢٥٥هـ)

احس الجاحظ ببؤس الفقراء ، فقد نشأ فقيرا ، وكان يبيع الخبز والسمك فى اسواق البصرة ، ثم اغتنى وصارت له ضيعة واتصل بالخلفاء ، ورحل فى طلب العلم وكان عالما بالحياة الاجتماعية وانعكس كل ذلك فى كتبه التى كانت اغزر مصدر لدراسة الحياة الاجتماعية من العصر العباسى الأول .

كتب الجاحظ فى كل المواضيع ، وكان دائرة معارف زمانه ، وتميز بالأسلوب الذى عرف بأسلوب الجاحظ ، الذى تظهر فيه شخصيته ظهورا تاما . ثبت عنه أنه كان نهما فى القراءة ، وانه لم يقع فى يده مكتوب الا قراه ، وانه كان يكترى دكاكين الوراقين . والجاحظ قد تناول فى كتبه اغلب الفنون التى تناولها الشعراء ، وتفوق عليهم وأتى بما لم يوفق الشعراء من جميع عصورهم الى أن يؤدوه(٧٢) .

ويشيد عميد الأدب العربى(٧٣) بنثر الجاحظ فيقول ما نصه : « ... فنحن عندما نقرأ نثرا كنثر الجاحظ لا نحس عسرا فى فهمه بل نجد يسرا ومرونة . وفوق هذه المرونة واليسر كسب النثر خصلة اخرى هى الموسيقى ، فالنثر ايام الجاحظ لا يلذ العقل وحده ولا الشعور وحده ، ولكنه يلذ العقل والشعور والأذن ايضا ، لأنه قد نظم تنظيما موسيقيا والف تأليفا خاصا له نسب خاصة ، فهذه الجملة لها هذا المقدار من الطول ، وهذه الجملة تناسب هذا الموضوع ، اذا قصرت هذه الجملة لامتها تلك الجملة ، واذا ضخمت الفاظ هذه الجملة كانت الجملة التى تليها على حظ من السهولة ، وهكذا » .

ومؤلفات الجاحظ تفوق الحصر ، شملت مواضيع عدة منها : فى مواضيع المتكلمين : كتاب خلق القرآن ، الرد على المشتبهه ، الرد على النصارى ، فى الاعتزال ، فى الامامة . فى الموضوعات السياسية والتاريخية

---

(٧٢) طه حسين : من تاريخ الأدب العربى ، ص ٤٥٤ .

(٧٣) طه حسين : من تاريخ الأدب العربى ، ج ٢ ، ص ٤٦٠ .

كتاب العرب والموالى ، العرب والعجـم ، فى فضـائل الاتراك ، كتـاب السـودان .

فى الأخلاق : البخلاء ، السلطان واخلاق اهله ، الجوارى ، الحاسد والمحسود ، العاشق والمعشوق ، الأمل والمأمول ، النساء ، الاخـوان ، غش الصـناعات .

فى الحيوان : الحيوان ، الاسد ، الذئب ، البغل .

فى الأدب العام : البيان والتبيين ، والمحاسن والأضداد .

ابن قتيبة الدينورى :

هو ابو محمد عبد الله بن مسلم ، واصله فارسى من مرو ، ولد بالكوفة سنة ٢١٣ هـ ، وتربى فى بغداد ، وتولى القضاء بدينور من بلاد فارس فانتسب اليها . كان فاضلا فى اللغة والنحو والشعر متقنا فى العلوم(٧٤) ، وكان معلما فى بغداد ، عاصر الجاحظ ، وكان على خلاف معه . لابن قتيبة مؤلفات كثـيرة اهمهـا :

عيون الأخبار ، وهو كتاب المختار فى الأدب قسم الى عشرة أبواب او كتب ، وكتاب ادب الكاتب ، وكتاب المشتبه فى الحديث .

وللأسف فان معظم كتب ابن قتيبه(٧٥) قد ضاعت ولم يبق منها سوى كتاب عيون الأخبار .

المبَرِّد :

هو ابو العباس محمد بن يزيد المبرد ، وهو عربى الاصل من قبيـلة ثمالة من الازد ، وازد من قحطان ، فهو من عرب اليمن . ولد بالبصرة سـنة ٢١٠ هـ ، وكان امام العربية ببغداد واليه انتهى علمها ، وكان حسن المحاضرة،

---

(٧٤) ابن الأنبارى : نزهة الألباء فى طبقـات الأدباء ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

(٧٥) توفى ابن قتيبة سنة ٢٧٦ هـ .

بليغا ، ثقة فيما يرويه ، وفيه ظرافة واباقة . وكان المبرد يحفظ كثيرا من اللغة والأخبار ، وكان واسع الاطلاع فى الأدب والنحو ، توفى ببغداد سنة ٢٨٥ هـ فى خلافة المعتضد .

ألف المبرد كتبا كثيرة فى اللغة العربية ، ضاع معظمها ، ووصل الينا اهمها و هو كتابه المسمى « بالكامل » . ويمثل كتاب الكامل الثقافة العربية فى جميع نواحيها ، ويتعرض لكل الأبواب التى طرقها العرب فى الأدب .

علم النحو :

ينسب وضع هذا العلم فى الغالب لأبى الأسود الدؤلى(٧٦) ، الذى قيل عنه انه أخذه من الامام على بن ابى طالب . ويقول ابن الانبارى(٧٧) : « قيل انما سمى النحو نحوا لأن أبا الأسود الدؤلى قال للامام على ، وقد القى عليه شيئا من أصوله . وقال ابو الأسود واستأذنته ان اصنع نحو ما صنع فسمى ذلك نحوا » . وأضاف ابن النديم فى الفهرست(٧٨) قائلا : « بأن ابا الأسود ظل محتفظا بما أخذه عن الامام على حتى بعث اليه زياد بن ابيه ان اعمل شيئا يكون للناس اماما يقرأون ويعرفون به كتاب الله، فاستعفاه من ذلك حتى سمع ابو الأسود قارئا يقرأ (ان الله برىء من المشركين ورسوله) بالكسر ، فقال ما ظننت ان امر الناس آل الى هذا ، فرجع الى زياد فقال : افعل ما امر به الأمير ، فليبلغنى كاتبا لقنا يفعل ما أقول واملى هذا الكتاب ونحوه ، وكان الرجل من قبيلة عبد القيس . وأخذ عن ابى الأسود كل من يحيى بن يعمر وعنبسة بن معدان وميمون بن الأقرن وعيسى بن عمر الثقفى وأبو عمرو بن العلاء . وقد اخذ الخليل بن احمد عن عيسى بن عمر الثقفى » .

وظهرت العناية بعلم النحو فى العراق ، بوجه خاص ، حيث ازدهرت

---

(٧٦) اسمه ظالم بن عمرو بن سفيان ، ويعد رأس النحويين وبنوه بعده ، ذكر عنه الجاحظ انه كان شاعرا داهيا وأنه كان من الأشراف العرجان وكان من البخر ومن النجلاء ، (الجاحظ : كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان ، توفى سنة ٦٧ هـ . القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٢٢) .

(٧٧) ابن الأنبارى : نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ، ص ١٨ .

(٧٨) ابن النديم : الفهرست ، ص ٤٠ ، ٤١ .

مدرسة البصرة ، وهى أول مدرسة عنيت بالنحو ووضع قواعده(٧٩) ، وكان من ابرز علماء النحو فى العصر العباسى الخليل بن احمد وتلميذه سيبويه(٨٠)

سـيبويه :

كان سيبويه ، من أشهر تلاميذ واصحاب الخليل بن احمد ، وقد اوحى الخليل الى تلميذه سيبويه من علمه ولقنه من دقائق نظره ونتاج فكره فحمل سيبويه ذلك عنه والف فيه(٨١) .

وسيبويه ، هى تسمية فارسية (وتعنى رائحة التفاح)(٨٢) لصاحبها: أبى بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، وكان يكنى ايضـا بأبى الحسن وبابى سعيد ، وهو فارسى الأصل ، بصرى التربية ، وكان مولى لبنى الحارث . أخذ النحو عن استاذه الخليل ، واخذ اللغات عن الأخفش الكبير وغيره . وقد الف سيبويه كتابه الشهير فى النحو والمعروف باسم « الكتاب » ، وقد قال ابن النديم عنه انه « لم يسبقه الى مثله احد قبله ولم يلحق به بعده »(٨٣) .

وكان سيبويه قد قدم ايام الرشيد الى العراق ، وهو ابن اثنين ثلاثين ، قاصدا يحيى بن خالد البرمكى ، وزير الرشيد . وقد جمـع يحيى بين يديه الكسائى والأخفش فناظرا سيبويه وخاطباه فى مسائل سألاه عنها وحاكماه الى فصحاء الأعراب ، وكانوا قد وفدوا على يحيى ، فانتصر سيبويه وأجازه يحيى بعشرة آلاف درهم فأخذها وعاد الى البصرة ومنها الى فارس ، حيث مات هنـاك سنة ٢٦١ هـ ، وقيـل سنة ٢٨٨ هـ وهـو فى حـوالى سن الأربعـين(٨٤) .

وكان من أكبر علماء مدرسة البصرة فى النحو ، بعد الخليل بن احمد

---

(٧٩) ابن النديم : الفهرست ، ص ٤٣ .

(٨٠) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٤٥ .

(٨١) ابن الأنبارى : نزهة الألباء ، ص ٤٧ .

(٨٢) ويقال ان امه كانت ترقصه بهذا الاسم وهو صغير (ابن الانبارى: نزهة الألباء ، ص ٥٤) .

(٨٣) ابن النديم : الفهرست ، ص ٥١ .

(٨٤) ابن الأنبارى : نزهة الألباء ، ص ٥٨ .

وتلميذه سيبويه ، الأصمعي ، وابو زيد الأنصاري ، وابو عبيدة معمر بـــن المــثنى .

والأصمعي ، هو ابو سعيد عبد الملك بن قريب ، وهو عربي من قبيلة باهلة ، وقد نسب الى جده اصمع(٨٥) ، وكان قوى الحافظة ، خفيف الروح برغم قبح منظره ، وكان مضحك الرشيد وسميره . ملأ الأصمعي كتب الأدب بما روى من قصص عن العرب والأعراب في حياتهم الاجتماعية وبما روى من لغة وأدب ، وكان يحفظ الكثير من الشعر ، لذلك كان الرشيد يسميه شيطان الشعر لكثرة ما كان يحفظ من شعر(٨٦) . وكان اتصاله بالرشيد ســـبب شهرته وغناه ، وقد جاء هذا الاتصال بسبب سعة علمه باللغة وبألفاظهـــا واشتقاقاتها . وقد الف الأصمعي كتبـــا كثيرة في اللغـــة والأدب . وتوفي الأصمعي بالبصرة سنة ٢١٣ هـ ، وقيل سنة ٢١٧ هـ في خلافة المأمون .

أما ابو زيد الأنصاري ، واسمه سعيد بن اوس ، فهو عربي من الخزرج من الأنصار ، فقد نشأ في البصرة واتصل بالخلفاء ، وعمر طويـــلا اذ عاش حوالى قرن من الزمان . الف كتب كثيرة ، ضاع للاسف معظمها ، ولم يبـــق لـــه الا كتـــاب النـــوادر .

وابو عبيدة ، هو معمر بن المثنى ، كان من علماء البصرة في النحو ، وكان واسع الثقافة ، الف كتبا كثيرة في اللغة والأدب ، ضاع معظمها ولم يبق منها الا كتاب النقائض بين جرير والفرزدق .

وقد قامت مدرسة الكوفة في النحو مناهضة لمدرسة البصرة ومنافسة لها ، وقد تمسك اصحابها بكل ما جاء به العرب ، حتى ولو كان شـــاذا لم يتفق مع القواعد العامة ، لذا كانوا ، في النحو ، اقل حرية من علمـــاء البصـــرة .

ومؤسس هذه المدرسة هو ابو جعفر محمد بن ابى سارة الرؤواسي (وقد سمى بذلك لكبر رأسه) ، وكان معاصرا للخليل بن احمد ، وقد صنف

---

(٨٥) احمد امين : ضحى الاسلام ، جـ ٣ ، ص ٢٩٨ ، ٢٩٩.
(٨٦) ابن الأنبارى : نزهة الالباء ، ص ٩٠ ، ٩١ .

تصانيف كثيرة منها : كتاب معانى القرآن ، وكتاب الابتداء ، وكتاب التصغير . وقد نشب خلاف فى الرأى ، فى النحو واصوله ، بين الرؤاس والخليل بن احمد ، وقد بدأ هادئا ، ولكنه احتدم بين تلميذيهما سيبويه والكسائى وصار لكل منهما مدرسة لها علمها وآراؤها التى تحيزت لها . ويبدو أن هذه العصبية العلمية بين المدرستين قد زكتها العصبية السياسية والعصبية البلدية (الاقليمية) التى كانت بين المدينتين : البصرة والكوفة .

وكان من أبرز علماء مدرسة الكوفة فى النحو ، بعد الرؤاسى ، تلميذه الكسائى ، والفراء ، والمفضل الضبى .

والكسائى ، هو أبو الحسن على بن حمزة ، وهو فارسى الأصل نشأ بالكوفة وتعلم وعلم بها . وكان من أكبر علماء اللغة ولقد قال فى حقه وحق تلميذه الفراء ابن الأنبارى ما نصه : « لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية الا الكسائى والفراء ، لكان لهم بهما الافتخار على جميع الناس اذا انتهت العلوم اليهما(٨٧) .

ولقد الف الكسائى كتبا كثيرة فى النحو وغيره ، وكان يعلم الرشيد وابنه الأمين من بعده ، وكان صديقا للشاعر الشهير أبى نواس . توفى الكسائى سنة ١٨٣ هـ ، ودفن بقرية رنبويه ، قرب مدينة الرى .

اما الفراء ، فهو أبو زكريا يحيى بن زياد الديلمى ، وهو تلميذ الكسائى وقرينه فى الشهرة والتفوق ، وكان يلقب بلقب أمير المؤمنين فى النحو(٨٨) . كان يلقن النحو لأبناء المأمون ومؤدبهم الخاص .

والمفضل الضبى ، عربى الأصل ، ويعد من أشهر علماء الكوفة ، اشتهر بالنحو ومعرفة انساب العرب ، وضع كتبا كثيرة فى النحو وغيره ، من أهمها كتاب المفضليات ، وكتاب الأمثال ، وكتاب معانى الشعر ، وكتاب العروض ، توفى سنة ١٧٠ هـ(٨٩) .

---

(٨٧) ابن الأنبارى : نزهة الألباء ، ص ٨٣ .
(٨٨) ابن الأنبارى : نزهة الألباء ، ص ٨٣ .
(٨٩) ابن الانبارى : نفس المصدر السابق ، ص ٥١ ، ٥٢ .

ولقد ظل الصراع قائما بين مدرستى البصرة والكوفة فى النحو ، حتى تأسست مدينة بغداد (سنة ١٥٧ هـ) ، وهدات الأحوال السياسية واستتب الأمن ، واخذ الخلفاء يرغبون العلماء ويشجعونهم على سكنى بغداد ويدعونهم لتربية اولادهم ، فسارعوا الى العاصمة الجديدة جريا وراء الشهرة والسمعة واحـــراز المـــكانة والثـــروة .

وكان التقاء علماء المدرستين فى بغداد سببا فى وجود فريق جـــديد من العلماء عرض لمذهب المدرستين فى النحو وحاول التوفيق بينهما ، فوجد بذلك منتخب من نحو اللغة كان من أكبر ممثليه والداعين له اثنان من كبـــار علماء اللغة نسبا الى مدينة الدينور وهما ابن قتيبة الدينورى(٩٠) ، وابو حنيفة الدينورى .

وابو حنيفة الدينورى ، هو ابو حنيفة بن داود ، من اهل الدينـــور بفارس ، ولد فى القرن الثالث للهجرة وتوفى حوالى سنة ٢٨٢ هـ . قال عنه ابن النديم(٩١) ، انه كان من النابغين ومن أشهر علماء النحو فى الـــكوفة والبصرة ، وانه كان عالما فى الأدب والفلك والرياضيات والنبات . درس على علماء الكوفة والبصرة واخذ عن ابن السكيت ، عالم النحو الكوفى ، وعن ابنه . حاول التوفيق فى النحو بين علماء البصرة والكوفة فى الراى ، ووضع مؤلفات فى ذلك وفى غيره من العلوم ، واشهر كتبه : كتاب الأخبار الطوال ، وكتاب الشعر والشعراء .

وهكذا شهد العصر العباسى الأول نهضة لغوية وأدبية واسعة النطاق، تمثلت فى جمع اللغة والأدب وابتكار النحو والنهوض بالعربية ، وقد تحمـــل العلماء العناء والجهد والمشاق فى سبيل هذه المهمة الخالدة التى حفظت لنـــا لغتنا الأصيلة ، لغة القرآن الكريم .

جـ ــ التـــــاريخ :

التاريخ والتاريخ والتوريخ بمعنى الوقت ، هو لفظ عربى أصيل ، وقيل انه لفظ دخيل على العربية وأصله سريانى ومعناه (الشهر)(٩٢) . وقـــد

---

(٩٠) انظر ما سبق فى الأدب .
(٩١) ابن النديم : الفهرست ، ص ١١٦ .
(٩٢) هرنشو : علم التاريخ ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٥١ .

عرف العرب التاريخ قديما ، وكان الناس فى شبه الجزيرة يؤرخون من آدم الى الطوفان (طوفان نوح) ، وكانوا يؤرخون من الحوادث العظام والوقائع المشهورة(٩٣) . فكان بنو ابراهيم عليه السلام يؤرخون من نار ابراهيم الى بنيان البيت الحرام على يد ابراهيم واسماعيل عليهما السلام . ثم أرخ بنو اسماعيل من بنيان البيت حتى تفرقوا ، فكان كلما خرج قوم من تهامة ارخوا بمخرجهم . ومن بقى بتهامة من بنى اسماعيل يؤرخون من خروج بعض القبائل مثل فهد وجهينة من تهامة . ولما مات كعب بن لؤى ، جد العرب ، أرخوا من موته الى عام الفيل (٥٧٠ م) ، ثم كان التأريخ من الفيل حتى امر الخليفة عمر بن الخطاب بأن يكون التأريخ من عام الهجرة (٦٢٢ م)، وكان ذلك فى سنة ست عشرة أو سبع عشرة او ثمان عشرة من الهجرة(٩٤) .

وكان العرب ، قبل الاسلام ، يحسبون الوقت بالنجوم والأهلة ، وينسأون الشهور (أى يغيرون اسماءها) ، وهو ما حرمه الاسلام ، وكانوا يبنون التأريخ على الليالى دون الأيام وخالفوا فى ذلك الفرس .

والتاريخ ، عند العرب ، فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث توقيتها ، وموضوعه الانسان والزمان ، وهو على هذا المعنى قديم عندهم ، نما معرفة ساذجة من معارف العرب قبل الاسلام ، ثم اكتمل مع الزمن حتى أصبح عندهم علما عظيم الشأن . وكان عرب الجاهلية ، لغلبة الأمية عليهم ، يتذاكرون أيامهم واحداثهم ووقائعهم عن طريق الرواية الشفوية بأشعار وقصائد ينظمونها ، ونشأت ، تبعا لذلك ، قصص « الأيام » فى المجالس القبلية المسائية ، وكان هذا القصص من مجموع الروايات القبلية الشفوية التى تداولتها القبائل فيما بينها وكانت ملكا مشتركا بينها . وبقيت هذه القصص كذلك حتى جمعت وصنفت ودونت فى القرن الثانى الهجرى / الثامن

---

(٩٣) السخاوى : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم اهل التاريخ ، بغداد ١٩٦٣ ، ص ١٤٩ .

(كانت حمير تؤرخ بالتبابعة ، ثم بغلبة الفرس ، ثم أرخت العرب بالأيام المشهورة بحرب البسوس وواجس والغبراء ، وحرب الفجار ، وغيرها) .

(٩٤) السخاوى : نفس المصدر السابق ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

الميلادى(٩٥) . وقد حوت الأيام ، برغم ما فيها من مبالغات ، على بعض الحقائق التاريخية ، وترجع أهميتها الأساسية فى انها حفظت لنا بعض الأحداث التاريخية التى وقعت قبل الاسلام وعند ظهوره وفى صدره ، فخدمت بذلك علم التاريخ والمؤرخين المسلمين .

ولقد وجدت تدوينات ونقوش تاريخية ، فى حواضر الجزيرة العربية ، وبخاصة فى اليمن والحيرة ، على جدران القصور والمعابد . وقد حوت هذه المخلفات على وثائق وسجلات لملوك اليمن القدامى . وفى شمال الجزيرة، ترك لنا عرب الحيرة بعض الكتب التى حفظوها فى الكنائس والأديرة سجلوا فيها بعض أخبارهم وبعض اخبار دولة الفرس التى كانوا موالين لها .

ولقد اهتم المسلمون بدراسة التاريخ ، وذلك لاشارة الرسول الكريم لدور القرآن التاريخى بقوله عليه السلام : « القرآن فيه خبر من قبلكم ونبأ من بعدكم وحكم ما بينكم »(٩٦) . ولقد جاء القرآن الكريم بنظرة جدية الى الماضى وأكد على امثلة التاريخ الغابرة وعظاته وذكر حوادث الأمم والشعوب السالفة والبائدة للتأكيد على العبر الدينية والخلقية التى تنطوى عليها . وجاء القرآن بنظرة عالمية الى التاريخ تتمثل فى توالى النبوات ، وكان لهذه النظرة أثرها فى الالتفات الى تاريخ الأنبياء والى الاسرائيليات ، وقد اقتصرت هذه النظرة العالمية على ما قبل الاسلام ، اما بعد الاسلام فقد انصبت الدراسة التاريخية على تاريخ الاسلام .

وقد نص القرآن على أن اقوال الرسول موحى بها ، وان سيرته عليه السلام ، مثل المسلمين يقتدون به ، وهنا جاء الدافع المباشر لدراسة اقوال الرسول وأفعاله ، وكان ذلك مدخل المسلمين الى دراسة علم التاريخ . وقد شعر العرب ، فى الاسلام ، بأنهم اصحاب رسالة جليلة سامية وأنهم يمرون بمرحلة هامة فى تاريخهم عليهم أن يسجلوها ، كما ان الفتوحات التى قاموا بها جعلتهم يحسون بأن لهم دورا تاريخيا خطرا ، وانهم بهذه الفتوح قد سطروا سطورا جديدة من التاريخ ، وكان لكل هذا أثره القوى من اهتمامهم بما وقع فى البلاد المفتوحة من احداث فى ظل الاسلام وقبله .

---

(٩٥) عبد العزيز الدورى : علم التاريخ عند العرب ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ١٧ .

(٩٦) الأبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف ، القاهرة ١٢٧٩ هـ، ص ٢١ .

ونلاحظ ان بداية علم التاريخ عند العرب سارت فى اتجاه دينى ، وهو الاتجاه الذى ظهر عند اهل الحديث فى مجتمع صدر الاسلام . وكانت حاجة المسلمين قد أصبحت ماسة الى معرفة سيرة الرسول واحواله واقواله وافعاله وحروبه ومعاهداته ، استقصاءا للسنة ، فتوفر رجال على جمع اخبار السيرة النبوية وتدوينها ، فكان ذلك بدء اشتغال العرب فى الاسلام بالتاريخ ، علما ان التاريخ لم يخرج يومئذ عن كونه نوعا من انواع الحديث . ولذا يمكن ان نقول بأن المؤرخين المسلمين بداوا محدثين ثم انتهوا مؤرخين(٩٧) .

ولقد مرت الكتابة التاريخية عند المسلمين بالمراحل التالية :

كتاب السيرة والمغازى :

سميت الدراسات الأولى لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم باسم المغازى ، وهى كلمة تعنى لغويا : غزوات الرسول وحروبه ، ولكنها فى الحقيقة ، تناولت فترة الرسالة بأكملها ، والسيرة النبوية كلها ، وقد كانت سيرة الرسول ومغازيه جزءاً من الحديث يرويها الصحابة روايتهم الحديث ، لذلك سلكوا فى روايتها نفس اسلوب الحديث فى الرواية وهو اسلوب الاسناد او العنعنة . وكان اكثر كتاب السير والمغازى الأول من اهل المدينة، باعتبار المدينة موطن رسول الله وعاصمة الدولة التى اقامها للمسلمين .

ويعتبر عروة بن الزبير (ت ٩٤ هـ /٧١١ م) مؤسس دراسة المغازى، وكان أول من الف كتابا فيها . وتناول كتابهدراسة جوانب مختلفة من حياة الرسول ، وتميز اسلوبه بالبساطة والبعد عن الكلفة . وقد حصل عروة على معلوماته التاريخية ، التى أوردها فى كتابه ، من مصادرها الأصلية ، وبخاصة من ام المؤمنين السيدة عائشة زوج الرسول ، ومن أفراد اسرته من آل الزبير . وقد امتدت دراسة عروة وشملت فترة الخلفاء الراشدين .

والف كذلك فى المغازى كل من ابان بن عثمان بن عفان (ت ٩٥ هـ) ، ووهب بن منبه (ت ١١٠ هـ) صاحب كتاب « المبتدأ » ، الذى يعد اول محاولة لكتابة تاريخ الأنبياء ورسالاتهم شاملة تاريخ الرسول محمد عليه السلام .

---

(٩٧) عطية القوصى : علم التاريخ،ومناهج البحث والتدوين التاريخى عبر العصور ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ٧٢ .

وبعد جهود هؤلاء الكتاب الثلاثة انتهى علم السيرة والمغازى الى رجلين من الموالى ، هما : محمد بن اسحق ، ومحمد بن عمر الواقدى ، وهما كاتبان لهما اهميتهما الخاصة ، لأنهما يمثلان مرحلة الانتقال من المحدث الى المؤرخ . وعند دراسة ما كتبه هـذان المؤلفان نكتشف أننا انتقلنا الى علمـاء هم مؤرخون فى المقام الأول ، ثم محدثون فى المقام الثانى(٩٨) .

وقد وصلتنا من محمد بن اسحق(٩٩) ، اقدم سيرة للرسول تكاد تكون محفوظة كاملة ، وهى تتناول سيرة الرسول من بعثته حتى وفاته .

وقد جمع ابن اسحق فى أسلوبه وكتاباته بين اسـاليب المحـدثين والقصاص ، واستفاد من عرضه التاريخى من الأحاديث والروايات التاريخية والقصص التاريخى والاسرائيليات واستشهد فى كتابته بكثـير من الشـعر الصحيح والموضوع ، كذلك استفاد من الروايات والأخبار الشفوية(١٠١) .

ولقد اختصر سيرة ابن اسحق ، المؤرخ عبد الملك بن هشام(١٠٠) ، المتوفى سنة ٢١٨ هـ ، فى كتابه الذى بين أيدينا الآن ، ويعرف بسيرة ابن هشام او سيرة النبى صلى الله عليه وسلم . وقد عمد ابن هشام ، فى مختصره ، الى حذف الأقسام التى رآها ضعيفة فى سيرة ابن اسحق ، كذلك طرح منها الشعر الموضوع .

وعلى منهاج سيرة ابن هشام ، وضع « السهيلى » كتابه فى السيرة ، وهو بعنوان « الروض الأنف » ، وقد اختصره الامام الذهبى تحت اسـم « بلبل الروض »(١٠١) .

---

(٩٨) عطية القوصى : علم التاريخ ، ص ٧٣ .

(٩٩) هو محمد بن اسحق بن يسار ، وكان اصله فارسى من الموالى ، ولد نحو سنة ٨٥ هـ ، ونشأ بالمدينة واخذ الأحاديث عن علمائهـا ، توفى سنة ١٥١/١٥٢ هـ .

(١٠٠) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن ايوب الجميرى ، واصله من البصرة وبها ولد ونشأ ، ثم ارتحل الى مصر والتقى فيها هناك بالامام الشافعى وتوفى بمصر ودفن بها .

(١٠١) عطية القوصى : علم التاريخ ، ص ٧٤ .

وتطورت دراسة السيرة والمغازى على يد محمد بن عمر الواقدى(١٠٢)، وظهر ذلك التطور فى كتابه « المغازى » ، المنتظم فى دراسته ، والواضح فى تسلسله الدقيق فى الاسناد وفى تحقيق تواريخ الأحداث . وقد انتهى الواقدى فى ذكر أحداثه ، على السنين ، حتى احداث سنة ١٧٩ هـ . كذلك الف الواقدى كتابا فى التاريخ ، رتبه على نظام السنين ، اسماه « التاريخ الكبير » ، وقد اقتبس الطبرى الكثير منه فى كتابه التاريخى الشهير . وألف الواقدى ايضا كتابا عن الصحابة والتابعين ، ورتبه حسب طبقاتهم ، واسماه كتاب « الطبقات » ، وهو الكتاب الذى نهج ابن سعد على نهجه .

وجاء ابن سعد(١٠٣) ، فألف كتاب « الطبقات الكبرى » المعروف باسم طبقات ابن سعد ، وهو يقع فى ثمانية أجزاء ، تناول الجزء الأول والثانى منه اخبار النبى عليه السلام ، وبقية الأجزاء تناولت اخبار الصحابة والتابعين متبعا فى ذلك ترتيب الأمصار : مكة ، ثم المدينة ، ثم البصرة ، ثم الكوفة ، وهكذا . وقد وضع ابن سعد ، بكتابته كتاب الطبقات ، الخطوط النهائية لهيكل السيرة النبوية ودراسة المغازى ، وقام بتثبيتها تثبيتا نهائيا . ونرى تواريخ السيرة والمغازى التى تأتى بعده تتبع نفس الخطة وتنهج نفس النهج ، وتعتمد ، بالدرجة الأولى ، على المادة التى قدمها والتى قدمها من سبقه من مؤرخى السيرة والمغازى . هذا ويجب الاشارة الى ان الوضع والزيادة قد دخلا فى السيرة والمغازى مثلما حدث فى الحديث ، ذلك لأن ظروف نشأة العلمين كانت واحدة وامكانيات من قاما بهما امكانيات متشابهة .

الأخباريون :

وفى صدر الاسلام تمت الفتوح العربية الاسلامية ، وأخذت الدولة فى التوسع والامتداد ، ووقعت فتن ونشب الصراع بين المتطلعين الى الخلافة ،

---

(١٠٢) هو محمد بن عمر بن واقد الواقدى ، ولد بالمدينة سنة ١٣٠ هـ وتوفى ببغداد سنة ٢٠٧ هـ ، وكان معاصرا لابن اسحق ، وكان مولى مثله ، من موالى بنى هاشم .

(١٠٣) هو محمد بن سعد ، ولد بالبصرة سنة ١٦٨ هـ ، وهو من الموالى ، ارتحل الى المدينة ، ثم الى العراق واتصل بالواقدى وعمل كاتبا له ، لذا عرف « بكاتب الواقدى » ، وتوفى سنة ٢٣٠ هـ .

ونبض عرق العصبية القبلية ، وشاعت بين المسلمين اخبار الأمم البائدة والديانات السابقة على الاسلام ، فتوافرت بذلك اسباب شتى اقتضت جمع الأخبار المتصلة بكل تلك الأمور وتدوينها .

كذلك ساعد على تدوين اخبار الأقدمين وجمعها امور منها : حاجة المشتغلين بتفسير القرآن الكريم لبعض المعرفة التاريخية نظرا لاشارات القرآن لبعض وقائع هذا التاريخ اشارة مقتضبة . اضافة الى رغبة علماء المسلمين فى التعلم من احداث الأمم القديمة البائدة واستخراج العبرة والعظة من هذه الأحداث ، فضلا عن ميل بعض الخلفاء الى التثقف والتزود بمعلومات عن اخبار الأمم وسياسات الملوك القدامى وحث العلماء على ذلك ، مثل معاوية بن ابى سفيان وابى جعفر المنصور .

ومن الأسباب الهامة التى دعت الى البحث عن التاريخ القديم وامجاد شعوبها ظهور نعرة الشعوبية وتفشيها فى العصر الأموى ، عصر التعصب للعرب ، الأمر الذى دفع شعوب الموالى الى البحث عن امجاد تاريخهم القديم وابرازه ومباهاتهم به العرب حتى يكون لهم سلاحا ضد الحركة التعصبية العنصرية التى ابتلى بها العصر الأموى . وقد جاء رد الفعل من جانب العرب ، فقاموا بتدوين أنسابهم وايامهم وذلك لكى يفاخر بها شعراؤهم ويناجز بها رجالهم وخطباؤهم .

وكان من اهم البواعث واقواها على تدوين اخبار الفتوح ، فى القرن الثانى الهجرى ، رغبة اولى الأمر فى معرفة ما فتح من البلدان صلحا وما فتح منها بحد السيف (عنوة) ، وذلك لتقدير حجم الخراج على أراضى هذه البلاد المزروعة .

فلما دون ذلك كله ، فى القرن الثانى الهجرى ، وجد الى جانب السيرة والمغازى نوع آخر من الرواية التاريخية موضوع اخبار الماضيين وأحوال الجاهلية وحوادث الاسلام . وقد اطلق العرب على ذلك كله ، فى بادىء الأمر، لفظ « الأخبار » ، واطلقوا على المتخصص فى روايته «لفظ الأخباري»(١٠٤) .

---

(104) Rosenthal, F : A History of Muslim Historiography, Leiden 1968, P. 69.

ويعتبر على بن محمد المدائنى (ت ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م) من اقدم هؤلاء الأخباريين ، كذلك ابو مخنف (ت ١٥٧ هـ) ، ومحمد بن سائب الكلبى (ت ١٤٦ هـ) ، وابنه هشام (ت ٢٠٤ هـ) وعوانة بن الحكم (ت ١٤٧ هـ) .

الكتابة التاريخية فى القرن الثالث الهجرى :

نلحظ فى هذا القرن زيادة ملموسة فى المادة التاريخية عند مؤرخى المسلمين ، كما نلحظ محاولة تحرى الدقة فى مصادر هذه المادة . وقد ساعد على ذلك الأمر استقرار دواوين الدولة العباسية وقيامها بواجباتها ، الأمر الذى مكن الباحثين فى التاريخ من الانتفاع بها فى بحثهم التاريخى . واذا وجدنا فى مؤلفات هذا القرن التاريخية مادة جديدة لم نجدها فى كتب القرن الماضى ، فوجدنا معاهدات رسمية ومراسلات سياسية وبيانات احصائية ، كما وجدنا تأريخا لكبار رجال الدولة من الأمراء والوزراء والقواد والعمال والقضاة . وفى ذلك القرن تقدمت حركة الترجمة والنقل عن الفارسية واليونانية والسريانية على يد رجال أجادوا التحدث بهذه اللغات والتعامل معها .

ولم تكن تحد مؤرخى هذا القرن مدرسة معينة او اتجاه معين ، بل كتبوا فى شتى الموضوعات التاريخية مستفيدين بما توفر لهم فى هذا القرن من امكانات جاءت نتيجة توسع الدولة الاسلامية واتساع مساحتها وتطور الأمور والاحوال فيها(١٠٥) .

ومن ابرز مؤرخى هذا القرن : احمد بن يحيى بن جابر البلاذرى ، صاحب كتابى : فتوح البلدان ، وانساب الأشراف ، وابن قتيبة الدينورى ، وأبو حنيفة الدينورى . وقد الف ابن قتيبة كتاب « المعارف » ، وكتاب الامامة والسياسة ، وكلاهما كتابان تاريخيان . أما ابو حنيفة فقد الف كتاب « الأخبار الطوال » ، وهو كتاب تاريخى يؤرخ للبشرية منذ نشأتها حتى عهده ، وقد راعى فى رواية التسلسل الزمنى والتاريخى .

ويعتبر اليعقوبى (احمد بن ابى يعقوب بن جعفر)(١٠٦) ، من ادق

---

(١٠٥) علم التاريخ ، ص ٧٧ ، ٧٨ .
(١٠٦) توفى سنة ٢٩٢ هـ .

مؤرخى هذا القرن واكثرهم اتزانا فى معلوماتهم . ويظهر ذلك واضحا وجليا فى كتابيه التاريخيين الشهيرين : « البلدان » ، و « تاريخ اليعقوبى » . وقد أورد اليعقوبى معلومات كثيرة قيمة عن الشعوب القديمة قبل الاسلام .

ويمثل محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٦ هـ) ، فى كتابه تاريخ الأمم والملوك أو « تاريخ الرسل والملوك » قمة ما وصلت اليه كتابة التاريخ عند المسلمين فى فترة التكوين ، وتقع هذه الموسوعة التاريخية الكبرى فى اربع عشرة جزءا ، كتبها فى أربعين عاما ، استحق ، بسببها ، ان يلقب بعمدة المؤرخين المسلمين (١٠٧) . وقد اتبع الطبرى فى كتابة تاريخه نظام السنين وطريقة الاسناد والعنعنة ، وهى نفس الطريقة التى اتبعها فى تفسيره الكبير الشهير للقرآن .

مؤرخو القرن الرابع الهجرى :

تصل كتابة التاريخ ، عند المسلمين ، الى مستواها الأعلى فى هذا القرن بظهور المؤرخين : ابن مسكويه والتنوخى والمسعودى . وقد كانت مؤهلات هؤلاء المؤرخين فى هذا القرن أعظم من مؤهلات سلفهم فى القرن الماضى مما افادهم فى كتاباتهم وزودهم بأخبار عصرهم ، ومن هذه المؤهلات معرفة هؤلاء المؤرخين الشخصية بالرجال المشهورين الذين عاصروهم وصنعوا أحداث عصرهم . فحصلوا بذلك على المعلومات التاريخية من مصادرها الأصيلة . هذا بالاضافة لمعرفتهم شئون الادارة والحرب فى عصرهم مما يسر لهم وصف الأحداث وصف العارف لها .

وقد تناول مسكويه (ت ٤٢١ هـ) الحوادث التى أعقبت ما دونه الطبرى فى تاريخه وينتهى عند ذكر أحداث سنة ٣٧٢ هـ ، وذلك فى كتابه « تجارب الأمم وتعاقب الهمم » . والف التنوخى ثلاث كتب تاريخية أشهرها : « الفرج بعد الشدة » و « جامع التواريخ » .

أما المسعودى (ابو الحسن على بن الحسين) المؤرخ الجغرافى الشهير (ت ٣٤٦ هـ) ، فقد تجات دقة كتابته التاريخية فى كتبه : « أخبار الزمان » ، « والتنبيه والاشراف » ، و « مروج الذهب ومعادن الجوهر » .

---

(١٠٧) على ابراهيم ، استخدام المصادر ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٣٢ .

وقد ظلت سلسلة التوارخ العامة مطـــردة من حيث انتهى الطبـــرى ومسكويه والمسعودى ، فقد ظهر بعد هؤلاء طائفة من المؤرخين المسلمين نهجوا على نهجهم فى كتابة التاريخ الاسلامى العام من امثال : ابو شجاع ، الخطيب البغدادى ، ابن الجوزى ، ابن الاثير ، النويرى ، ابن كثير ، ابن الفرات ، ابن خلدون ، القلقشندى ، المقريزى ، العينى ، أبو المحاسن ابن تغرى بردى، السخاوى ، السيوطى ، وابن اياس .

وكان عدد كبير من العلماء والفقهاء المسلمين قد عكفوا على دراســـة التاريخ والتأليف فيه بعد أن اخذ مكانته بين علوم المسلمين وازداد الاقبـــال على دراسته ، وبعد ان اخذ المؤرخون حظهم بين رجال الدولة الاســـلامية كرجال لهم شأنهم ومكانتهم فى الحياة العامة السياسية والعقلية والأدبية . ولقد ادت سهولة التنقل بين ارجاء الدولة الاسلامية ، بسبب وحدة الدولة وتلاشى الحدود بينها ، الى ان قام هؤلاء العلماء المؤرخون بالرحلة فى طلب الرواية واخذها عن الشيوخ فى اماكن تواجدهم ، كذلك لرؤية عجائب البلاد ومشاهدة آثارها ومطالعة اخبارها مطالعة شهود العيان . فوجد بذلك مصدر هام من مصادر المادة التاريخية هو المشاهدة والمعاينة ، وظهر من هذا النفر المؤرخ الجوال عدد كبير اثرى التاريخ بما كتبه ، من امثـــال : ناصرى خسرو الرحالة الفارسى (ت ٤٧٦ هـ) ، صاحب كتاب سفر نامة(١٠٨) ، والشريف الادريسى(١٠٩) ، صاحب كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، وابن جبير(١١٠) ، صاحب كتاب « تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار »،والمعروف برحلة ابن جبير . ويعد الرحالة الشهير « ابن بطوطة » (ابو عبد الله محمد ابن عبد الله) (١١١) أعظم واشهر هؤلاء الرحالة المؤرخين ، ويعد كتابه

---

(١٠٨) ألف هذا الكتاب بالفارسية وحمل عنوانه سفر نامة بمعنى زاد المسافر ، وقد ترجم الى عدة لغات منها العربية .

(١٠٩) هو ابو عبد الله محمد بن محمد الادريسى الأندلسى ، تـــوفى ســـنة ٥٦٠ هـ .

(١١٠) هو أبو الحسين محمد بن احمد بن جبير ، القاضى بالأندلس ، والذى زار بلاد العالم الاسلامى اثناء رحلته للحج ، فى بداية حكم الأيوبيين لمصـــــر .

(١١١) توفى ابن بطوطة سنة ٧٧٩ هـ ، وكان قد بدأ رحلته من طنجة مسقط رأسه سنة ٧٢٥ هـ وفرغ من تدوين مذكراته سنة ٧٥٦ هـ .

« تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار » والمعروف برحلة ابن بطوطة ، من اهم الكتب التاريخية نظرا لما تضمنه من معلومات تاريخية طيبة ومشاهدات عينية رائعة وبخاصة فى قارتى افريقية وآسيا .

هذا ولقد تنوعت الكتابة التاريخية عند المسلمين منذ منتصف القرن الثالث الهجرى فصاعدا ، ولم تقتصر على كتابة التاريخ العام ، بل ظهرت التواريخ المحلية وكتب التراجم والطبقات وكتب الخطط .

ومن التواريخ المحلية وجدنا الكتب التى تعالج تاريخ مدينة او اقليم ، مثل : تاريخ مكة للازرقى ، واخبار المدينة لابن شبه ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، وتاريخ حلب لابن العديم الحلبى ، وتاريخ نيسابور للحاكم النيسابورى ، وتاريخ بيهق للبيهقى ، واخبار المغرب لابن عذارى ، وتاريخ القاهرة لابن ظهيرة .

اما كتب الخطط ، فهى كتب تتناول الحديث عن بلد او مدينة فتذكر كل منشآتها وخططها ، وما يتصل بها من اخبار سياسية واجتماعية وثقافية . ومن اشهر هذه الكتب كتاب الخطط المقريزى (ت ٨٤٥ هـ) المعروف باسم « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، وقد تناول المقريزى فيه خطط مصر بوجه عام ، والقاهرة بوجه خاص(١١٢) .

اما كتب التراجم ، فهى الكتب التى تتناول الترجمة لحياة مشاهير رجال المسلمين من خليفة او وزير او امير مثل كتاب : خلافة المقتدر للجهشيارى والأوراق واخبار الراضى للصولى ، ونشوار المحاضرة للتنوخى ، وتاريخ احمد ابن طولون للبلوى ، تاريخ صلاح الدين لابن شداد ، كتاب اخبار القضاة للكندى وغيرها .

ويتصل بكتب التراجم ، كتب الطبقات وكتب الوفيات . وقد شملت كتب الطبقات تخصصات مختلفة افادت الباحثين كل فى مجال تخصصه . ومن هذه الكتب كتاب : طبقات المحدثين ، وطبقات النحاة ، وطبقات الشعراء ، وطبقات الحنابلة ، وطبقات الشافعية الكبرى ، وطبقات الأطباء وغيرها .

---

(١١٢) عطية القوصى : علم التاريخ ، ص ٨٤ .

أما كتب الوفيات ، فلقد اتبعت تواريخ الوفاة فى ترجمة وافية لمشاهير الرجال فى الدولة الاسلامية دون الخلفاء . ومن اشهر هذه الكتب كتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) ، وهو يتناول الترجمة لرجال الدولة المشاهير منذ نشأة الدولة الاسلامية حتى منتصف القرن السابع الهجرى . وقد اكمل « ابن شاكر الكتبى » (ت ٧٦٤ هـ) كتاب الوفيات بكتاب، على نسقه ، اسماه « فوات الوفيات » مسجلا فيه ما فات ذكره على ابن خلكان .

واكمل هذه المجموعة كل من الصفدى ، وابن حجر العسقلانى ، والسخاوى . فقد الف الصفدى كتابا اسماه « الوافى بالوفيات » ، وترجم ابن حجر لأعيان القرن الثامن فى كتابه : « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » كما ترجم السخاوى لأعيان القرن التاسع فى كتابه « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » ، كما وضع الشهرزورى ترجمة لأعيان القرن العاشر فى كتاب جعل عنوانه « الضوء الباهر لأعيان القرن العاشر » ، وهكذا .

وهكذا تطورت كتابة التاريخ عند المسلمين واتسعت وتشعبت ، وظهر من بين المؤرخين المسلمين طائفة تقف ، جنبا الى جنب ، مع كبار مؤرخى العالم فى تحرى المنهج التاريخى السليم . ويؤخذ على بعض المؤرخين المسلمين اهتمامهم بتاريخ العالم الاسلامى دون غيره ، وتركيزهم على الجانب السياسى وحياة الخلفاء والحكام والسلاطين ، وغلبة النزعة الدينية فى الكتابة التاريخية ، وهى نزعة مسيطرة على كل مؤرخى العصور الوسطى فى الشرق والغرب .

٢ — العلوم العقلية (العملية)

حركة الترجمة والنقل من التراث الفارسى واليونانى والهندى :

تسربت الثقافات الأجنبية : الهندية والفارسية واليونانية ، الى الثقافة العربية ، وبخاصة فى مجال العلوم العقلية ، وذلك عن طريق الاحتكاك المباشر بعناصر هذه الثقافات ودخول سكان البلاد المفتوحة فى الاسلام . ويقرر عميد الأدب العربى ان اثر الثقافة اليونانية على العربية كان أقوى

هذه الثقافات وذلك بقوله(١١٣) : « لم يأخذ العرب عن الفرس شيئا ما فى الحياة العقلية وانما أخذوا عنهم طرقا للأداء ومظاهر واشكالا فى الحياة المادية وقلدوهم فى نظمهم السياسية والادارية ، وكذلك الأمر فيما يختص بأثر الثقافة الهندية .. فالثقافات التى يقال عنها ان العرب قد أخذوها عن الفرس والهند هى أشياء اقرب الى الغموض منها الى الوضـــوح والـــدقة . أما الثقافة اليونانية فبالعكس عندما نتحدث عنها نرى ان الأشياء التى أخذها العرب من اليونان ، بواسطة الفرس او السريان او مباشرة ، معروفة ومدونة ؛ فهناك كتب معينة وكتاب مشهورون نستطيع أن ندرسهم فى آثارهم اليونانية وان نرد كل كتاب الى صاحبه دون ان نشك وان نجد الأصل اليونانى والأصـــل السريانى .

فهناك أمران فى غاية الوضوح لا بد لمؤرخ العصر العبـــاسى أن يقف عنـــدهما :

١ — ثقافات اجنبية غامضة غير محدودة ولا سبيل الى تحديدها ، ويقال ان العرب تأثروا بها ، وهى الثقافات الهندية والفارسية .

٢ — وثقافات معروفة واضحة يمكننا أن نرجع اليهـــا وان نردها الى اصولها ويقال ان العرب فى العصر العباسى قد أخذوها ، وهى الثـــقافة اليونانيـــــة .

ليس الغرض من هذا هو اثبات أن العرب قد اخذوا عن اليونان اكثر مما اخذوا عن الفرس او العكس ، وانما الغرض هو مقاومة الفكرة القديمة التى ترد كل شىء وكل تجديد واصلاح او تغير فى طبيعة الثقافة العربية الى التأثير الفارسى ، فهذه الفكرة خاطئة . مرجعها الشعوبية . ومن المؤكد أن العرب اخذوا من الثقافات المختلفة بقدر متفاوت ، وهذه الثقافات جميعها ، مهما تكن خطوطها فى التأثير قد التقت واجتمعت فى الثقافة الاســـلامية ، فقد هضمها العرب واستوعبوها واستقلت فى العصر العباسى واصـــبحت بعيدة عن اصولها القديمة بعدا شاسعا بحيث يمكن أن يقال انها ثقافة اسلامية خالصـــــة » .

---

(١١٣) طه حسين : من تاريخ الأدب العربى ، جـ ٢ ، ص ٣٦، ٣٧.

وكانت عملية النقل والترجمة أهم طريق لتسرب الثقافات الأجنبية الى الثقافة العربية ، وقد مرت هذه الحركة بالمراحل التالية :

النقـل فى العصر الأمـوى :

أخذت الحياة المادية للعرب تتطور فى العصر الأموى ، ويتباعد ما بينها وبين الجيل الماضى ، وكان لهذا التطور اثره الأكبر فى تكوين الحياة الجديده للاسلام فى هذا العصر الأموى ، الذى يعرف أيضا بعصر الانتقال . وقـد تأثرت الثقافة الجديدة فى هذا العصر تأثرا بعيدا بالثقافات الأجنبية ، فنرى من أبناء الخلفاء خالد بن يزيد بن معاوية(١١٤) يتصل بعلوم الأجانب والعلوم السرية (كالكيمياء) ، وقد أمر خالد باحضار جماعة من فلاسفة اليونان ، ممن كان ينزل مصر وقد تفصح بالعربيـة ، وأمرهم بنقـل الكتب فى الصـنعة (الكيمياء) من اللسان اليونانى والقبطى الى العربية ،وكان من بين هؤلاء راهب رومى يدعى « مريانوس » طلب اليه أن يعلمه صناعة الكيمياء . وقيل ان خالدا كان يريد التوصل الى معرفة واكتشاف ما يعرف « بحجر الفلاسفة » الذى ظن العرب أنه باستطاعته تحويل المعادن الى ذهب . وعندما تعلم خالد مبادىء هذا العلم امر بنقله الى العربية ، فتم ذلك على يد رجل يعرف باسم « اصطفان الحكيم » ، وكان هذا أول نقل فى الاسلام من لغـة الى لغـة مخالفـة .

وفى عهد مروان بن الحكم ، نقل الطبيب السريانى « ماسرجويه » الى العربية كتابا فى الطب من اللغة السريانية وهو « كناش هارون بن أيمن » ، وقد حفظت هذه الترجمة فى دمشق حتى ايام الخليفة عمر بن عبد العـزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) حيث حبب اليه بعضهم اخراجها للمسلمين للانتفاع بهـا فأخرجها وجعلها فى أيديهم . وقد حاول الخايفة عمر بن عبد العزيز نفسه ترجمة بعض كتب الطب من السريانية الى العربيـة وذكر ابن النـديم فى

---

(١١٤) يعرف بحكم آل مروان ، وهو من اهتم من المسلمين العـرب بنقل العلوم الأعجمية الى العربية ، وتفرغ لذلك الأمر بعد اخفاقه فى تولى الخلافة بعد وفاة أبيه وتحولها لفرع آل مروان ، توفى خالد سنة ٨٥ هـ .

الفهرست(١١٥) ان سالما كاتب هشام بن عبد الملك نقل الى العربية رسائل أرسطو الى الاسكندر .

هذا ولم تلق حركة النقل تشجيعا من بقية خلفاء الامويين ، وكان الاهتمام بها اهتماما فرديا قام به بعض الأفراد على نفقتهم الخاصة وكان جهدهم هذا نواة لحركة الترجمة الواسعة فى العصر العباسى .

٢ — النقل فى العصر العباسى الأول :

ترجمت فى هذا العهد أعظم كتب اليونان والفرس والهند ، وعلق على هذه الكتب وشرحت ونوقشت وزيد عليها . ولم يقف العرب فى هذا الدور موقف الناقل الأمين لعلوم الأمم المختلفة فى العصر القديمة فحسب وحفظها من الضياع ، فى وقت ساد أوربا الجهل والتعصب ، بل زادوا على ذلك فوقفوا موقف الدارس والشارح والمتتبع والمؤلف .

وتنقسم حركة النقل فى هذا العصر الى ثلاثة ادوار :

أ — الدور الأول :

من خلافة المنصور الى آخر عهد الرشيد (١٣٦ — ١٩٣ هـ) : كان المنصور اول خليفة مسلم اهتم بالتنجيم وقرب اليه المنجمين وعمل بأحكام النجوم ، وكان ميله الى التنجيم اول باعث له على تشجيع حركة النقل والترجمة . وكانت صناعة النجوم رائجة عند الفرس فقرب المنصور اليه « نوبخت » المنجم الفارسى ودعاه الى الاسلام فأجاب فصار يصحبه حيثما توجه . ولما ضعف نوبخت قرب اليه ابنه ابا سهل ، وتوارث آل نوبخت التنجيم فى خدمة العباسيين وترجموا لهم الكتب المختلفة(١١٦) .

---

(١١٥) ابن النديم : الفهرست ، ص ٦٠ .

(١١٦) ظهر أصحاب اللسانين من الفرس الذين نشطت على ايديهم آنذاك حركة الترجمة من الفارسية الى العربية ، ومن هؤلاء : آل نوبخت ، البلاذرى ، اسحق بن يزيد وابن المقفع . وظهر من اعلام الفرس المستعربين: الامام ابو حنيفة ، حماد الراوية ، بشار بن برد ، سيبويه ، الكسائى، الفراء، ابن المقفع ، ابن قتيبة ، الطبرى ، البخارى ، مسلم ، الرازى ، الخوارزمى وغيرهم . (أحمد امين : ضحى الاسلام ، جـ ١ ص ١٨٥) .

وأمر المنصور ابراهيم الفزارى المنجم بأن يترجم له كتاب « السند هند » الكبير الذى بقى اصلا فى حركات الكواكب حتى ايام المأمون .

ولما اصيب المنصور بمرض فى معدته اخذ يهتم بالطب وبترجمة كتبه ، فاستدعى جورجيوس بن بختيشوع السريانى رئيس أطباء جنديسابور ، وكان يعرف اليونانية والسريانية والفارسية والعربية ، فنقل له عـــددا من الكتب الطبية الى العربيـــة .

لم يتفرغ المهدى والهادى الى الترجمة وان استمرت حركة النقل تسير سيرا طبيعيا بما يقوم به الأطباء من تعريب .

فلما صار الناس فى عصر الرشيد غدت بغداد مركز العالم المتمـــدن ومجمع العلماء من مختلف الشعوب فتقدمت الترجمة واهتم العرب بـــكتب الفلسفة والأدب . وكان الرشيد والبرامكة يبذلون من وقتهم ومالهم الكثير فى سبيل دفع حركة النقل الى الأمام . ولقد عثر الرشيد فى حروبه فى أنقرة وعمورية وغيرها من بلاد الروم على كتب كثيرة حملها الى بغداد وامر طبيبه يوحنا بن ماسويه بترجمتها . وأمر البرامكة المترجمين بنقل كثير من الـــكتب الفارسية واليونانية والهندية فنقلت كتب كثيرة خاصة فى مجال الطب (كتب جالينوس) ، وفى الفلسفة (كتب أرسطو وبعض مؤلفات افلاطون) ، ودخلت الفلسفة اليونانية الى ابحاث العرب وبخاصة المعتزلة .

ب — الدور الثانى :

عصر المأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ)

لو لم يكن المأمون خليفة لكان احد العلماء البارزين فى العصر العباسى، وقد نشأ هذا الخليفة نشأة علمية وعاش فى وسط علمى ، ومال الى مذهب الاعتزال لكونه مذهبا يعتمد على العقل فى حكمه على الأشياء . ولقد أفـــاد المأمون من مركزه السياسى فى تدعيم الحركة العلمية فأمر بنقل جميع ما يقع عليه من كتب فلسفية ومنطقية لتأييد مذهب الاعتزال ، وأمر بترجمة جميـــع الكتب فى مختلف الفنون وانفق فى سبيلها بسخاء ، حتى قيل انه كان يعطى وزن ما يترجم لصاحب الترجمة ذهبا . فأقبل لذلك على بلاطه العلمـــــاء

والمترجمون النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس وغيرهم ، وكثر الوراقون فى عهده وراجت صناعة العلم والادب واحترم محترفوها .

وانشأ المأمون اول معهد للترجمة والنقل عرف ببيت الحكمة ، وجعل على راسه حنين بن اسحاق وابنه اسحاق وابن اخته حبيش الدمشقى مع غيرهم من المترجمين . ولقد اسس المأمون هذا المعهد لنقل المتون اليونانية فى الفلسفة والعلوم الى العربية . وكان من كبار المترجمين فى ذلك العصر : ثابت بن قره (ت ٢٨٨ هـ) ويوسف الخورى وقسطا بن لوقا البعلبكى وأبو بشر متى بن يونس(١١٧) . وبنو شاكر(١١٨) .

ولقد شملت الكتب المترجمة فى عهد المأمون جميع المواضيع :

ففى الفلسفة : ترجمت كتب افلاطون وارسطو ، وفى الطب : ترجمت كتب ابقراط وجالينوس ، وفى الرياضيات ، كتب اقليدس وارخميدس .

جـ — الدور الثالث :

حركة النقل بعد المأمون :

استمرت حركة النقل بعد المأمون وذلك لشغف الناس وتعلقهم بها ، فاستمر النقل والتصحيح والتحقيق فى التراجم السابقة . وشاعت اللغات الأعجمية : الهندية واليونانية والفارسية بين الناس وخاصة بين طبقة الكتاب المتادبين التى لم تصل الى مرتبة العلماء . ومن أهم ما ترجم فى هذا الدور كتاب : الفلاحة القبطية ، نقله الى العربيةاحمد بن على بن المختار النبطى المعروف بابن وحشية سنة ٢٩١ هـ . كذلك قام سعيد سعديا الفيومى (ت ٣٣٠ هـ)(١١٩) ، أحد رجال الدين اليهودى الكبار ، بترجمة اسفار

---

(١١٧) تحدث عن علمه وفضله المؤرخ أبو حيان التوحيدى فى كتابه الامتاع والمؤانسة .

(١١٨) موسى بن شاكر وبنوه محمد وأحمد والحسن .

(١١٩) كان سعيد الفيومى طبيبا ماهرا وفيلسوفا كبيرا ولغويا وشاعرا، وصل الى وظيفة جاءون سورا ، وهى أكبر الوظائف الدينية اليهودية . وهو اول من نقل التوراة الى العربية ووضع تفاسير وشروح عليها بالعربية لمزيد المعرفة عنه ، انظر كتاب المؤلف : اليهود فى ظل الخلافة الاسلامية ، ص ٤٨ — ٥٠ .

التوراة الى العربية . كذلك ترجمت كتب عديدة عن آداب الهند وعلومهم المختلفة نقل بعضها أبو ريحان البيرونى(١٢٠) .

وعند حديثنا عن العلوم العقلية او العملية ، نقسم هذه العلوم الى ثلاثة اقسام هى :

أ — العلوم الفلسفية ،

ب — علوم الطب والصيدلة ،

ج — علوم الفلك والرياضيات والكيمياء والفيزياء والميكانيكا (علم الحيل) .

أ — العلوم الفلسفية

١ — الفلسفة :

نشأتها وازدهارها :

استمد العرب الكثير من علومهم الفلسفية من الثقافة اليونانية ، وخاصة فى مجال الفلسفة . وكانت بلاد اليونان غنية بكل ما ينتجه العقل والعاطفة والذوق فى الفلسفة والرياضة والفلك وفى العلوم الطبيعية والفنون . فلقد كان اقليدس اماما فى الهندسة منذ القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن التاسع عشر الميلادى . كذلك ظل ابقراط وجالينوس ائمة فى الطب حتى العصر الحديث . وفى مجال الفلسفة سطعت شموس الفلاسفة العظام : سقراط وافلاطون وارسطو الذين يدين لهم العالم حتى الآن فى مجال الفلسفة .

ولقد اقتبس المسلمون من هذه الثقافة اليونانية الرومانية بسبب انتشارها فى بلاد الشرق منذ فتوح الاسكندر الأكبر لكثير من بلاد آسيا . كذلك ظهر فى الاسكندرية فى العصور الأولى للمسيح المذهب الفلسفى

---

(١٢٠) توفى سنة ٤٤٠ هـ .

المعروف بالأفلاطونية الحديثة ، وكان لهذا المذهب أثر كبير فى فلاسـفة المسلمين وعلماء الكلام وخاصة المعتزلة وفى الصوفية(١٢١) . وجاء هـذا التاثير نتيجة هروب عدد من الفلاسفة الى بلاد الشرق حين امر الامبراطور جستنيان باغلاق مدارس الفلاسفة فى اثينا سنة ٥٢٩ م وقام باضـطهاد الفلاسفة . وقد فر سبعة من هؤلاء الفلاسفة الى فارس فاستقبلهم ملكهـا كسرى انوشروان (٥٣١ — ٥٧٨ م) واحتفى بهم واكرمهم واسكنهم مدينة جنديسابور .

جنديسابور(١٢٢) :

ولقد ادى استقرار فلاسفة اليونان فى جنديسابور الى ازدهار هـذه المدينة ازدهارا علميا بسبب نقل الحضارة اليونانية الرومانية اليها . وقـد جعلها ذلك وجعل مدرستها نبعا للثقافة اليونانية . ولقد اسس الملك كسرى انوشروان فى هذه المدينة مدرسة الطب الشهيرة بها والتى كانت تعلم فيهـا العلوم اليونانية باللغة الآرامية ، وقد الحق كسرى هذه المدرسة بالبيمارستان الكبير الذى انشاه فيها ، وكان يعالج فيه المرضى . ولقد تعلم فى هذه المدرسة الحارث بن كلده طبيب العرب الشهير فى الجاهلية والاسلام(١٢٣) وابنـه النضـر(١٢٤) .

---

(١٢١) تنسب هذه الفلسفة الى افلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ م ، وكان قد ولد فى اسيوط سنة ٢٠٥ م وتعلم فى الاسكندرية وتوفى بها . ولقـد الف افلوطين كتبا كثيرة فى الفلسفة ، وكانت له آراؤه الخاصة وكان صاحب مذهب خاص عرف بالمذهب السكندرى . وكان أفلوطين فى اول امره يميـل الى البحث والتفكير العقلى المحض ثم اخذ يناصر الوثنية ويقاوم المسـيحية ثم انحدر الى ان اقتصر على الشغف بالاطلاع على الغيبيات والسحر والكهانة والتنجيـم .

(١٢٢) كانت تقع فى اقليم خوزستان (الأهواز) وقد اسـسها الملك سابور الأول ونسبت اليه ومكانها الان يعرف باسم اطلال شاه اباد .

(١٢٣) القفطى : اخبار الحكماء ، ص ١٣٣ .

(١٢٤) كان النضر قريبا للرسول من جهة الأم وكان من الد اعدائه ولقد وقع اسيرا فى يد المسلمين بعد معركة بدر وأمر رسول الله بقتله لأنه كان شديد الأذى للرسول ولمن تبعه من ضعاف المسلمين .

وكانت تدرس فى مدرسة جنديسابور الثقافة الهندية الى جانب الثقافة اليونانية ، وكان بعض علماء الهند يدرسون فيها باللغة الفهلوية . ولقد فتح المسلمون هذه المدينة حينما فتحوا فارس وظلت مدرستها قائمة حتى العصر العباسى ، وخربت فيما بعد وصارت اطلالها الآن تعرف باطلال شاه اباد .

ولقد انتشرت آراء فلاسفة الافلاطونية الحديثة الذين عاشوا فى جنديسابور وفى بلاد الشرق الاسلامى بعد أن صبغت هذه الفلسفة بالصبغة المسيحية بسبب اعتناق معظمهم هذه الديانة . ودخلت أفكارهم العالم الاسلامى وتقبلها علماء المعتزلة والصوفية ، وقد اخذت جماعة اخوان الصفا منها معظم أفكارها .

وانتشرت الفلسفة اليونانية ايضا ، وبخاصة مذهب الافلاطونية الحديثة فى العراق وما حوله على يد جماعة السريان . وكان السريان قد اخذوا ينقلون الكتب اليونانية وبخاصة كتب الفلسفة الى لغتهم السريانية ، وهى احدى اللغات الآرامية التى انتشرت فى العراق وما جاورها وكانت اهم مراكزها فى الرها ونصيبين وراس العين وحران(١٢٥) .

الصابئة :

ولقد سكن حران جماعة الصابئة ، وكانت ديانتهم مزيجا من الديانة البابلية واليونانية القديمة والافلاطونية الحديثة ، وكان شأنهم كذلك فى العصر الاسلامى الى عهد المأمون فتسموا اذ ذاك بالصابئة احتماءا بما يفهم من القرآن الكريم باعتبارهم من أهل الكتاب(١٢٦). ولم يكن ذلك الاسم يطلق

---

(١٢٥) حران مدينة تقع فى اقليم الجزيرة شمال العراق بين الرها وراس العين .

(١٢٦) التقى المأمون بجماعة الصابئة أثناء مروره بحران سنة ٢١٥ هـ ، وهو فى طريقه الى جهة الروم . وكانت ملابسهم متسخة وشعورهم طويلة ، ولما سألهم عن ملتهم أجابوه بأنهم الصابئة ، فعاملهم معاملة الذميين من اهل الكتاب .

عليهم من قبل انما كان يطلق على قوم لهم ديانة مزيج من اليهودية والنصرانية كانوا يسكنون البطيحة(١٢٧) .

وظلت حران أهم مراكز الثقافة اليونانية فى بلاد العراق بفضل سكانها الصابئين . وقد تكلم الصابئون العربية وقاموا بنشر الثقافة اليونانية بين العرب واليهم يرجع الفضل فى عمليات الترجمة فى العلوم العملية والفلسفة . ولقد حفظت لنا اللغة السريانية بعض الكتب اليونانية التى فقدت اصولها ، وكانت ترجمتهم لهذه الكتب هى الأساس الذى اعتمد عليه العرب والمسلمون فى اول امر نهضتهم العلمية . وقد نقل هؤلاء السريان بدقة وامانة كل العلوم اليونانية فيما لا يمس الدين ، فى المنطق والطبيعة والطب والرياضة . أما فى الالهيات فكانوا يعدلونها بما يتفق مع الديانة المسيحية . وقد أسلم بعض السريان حين فتح المسلمون بلادهم فى القرن السابع الميلادى وظل بعضهم الآخر على دينه يدفع الجزية لكونه اهل ذمة . ونبغ من السريان الكثير فى العهدين الأموى والعباسى وظلت مدارس السريان مفتوحة طوال العهد الأموى .

ويفهم من العرض السابق أن الثقافة اليونانية كانت منتشرة فى العراق والشام والاسكندرية بواسطة السريان الذين ادخلوا هذه التعاليم فى الفكر الاسلامى ، الأمر الذى نتج عنه المذاهب والفرق الاسلامية الفلسفية .

ولقد اتصل العرب بهذه الثقافات من قديم ، فالقفطى(١٢٨) يحدثنا عن رحلة الحارث بن كاده الى جنديسابور ، وابن ابى اصيبعة الطبيب يحدثنا عن رحلة النضر بن الحارث بن كلدة اليها(١٢٩) . وقد استمر هذا الاتصال بعد الاسلام فكتاب المسلمين يشيرون الى ذلك عند حديثهم عن خالد بن يزيد بن معاوية (المتوفى سنة ٨٥ هـ) وكان فيلسوفا وعالما فى صنعة الطبيعة والطب

---

(١٢٧) ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٢٠ .
القفطى : اخبار الحكماء ، ص ٣١١ .

(١٢٨) اخبار الحكماء ، ص ٣١١ .

(١٢٩) ابن ابى اصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ١٦١ .

والكيمياء وكانت له رسائل فيها(١٣٠) . ودعى خالد جماعة من علماء اليونان المقيمين فى مصر وطلب منهم الترجمة له عن اليونانية خصوصا فى مجـال الفلسفة وفتح خالد بذلك باب الاهتمام بهذا العلم ، وخاصة جانب الفلسـفة اليونانية مما أدى الى ازدهارها فى اواخر عهد الامويين .

وهنالك اسباب اخرى ادت الى ازدهار الفلسفة اواخر العهد الاموى واوائل العهد العباسى من بينها : اشتداد الجدل بين المسلمين والمسيحيين فى الأديان مما دفع المسلمين لاستخدام نفس سلاح المسيحيين فى هذا الجدل وهو المنطق والمحاورة ، كذلك دفع حب المعتزلة للفلسفة ان يرفعوا لواءها دفـاعا عن الاسلام ، كذلك فان حب المسلمين الفلسفة تحول من حب فى استخدامها كسلاح للدفاع عن الاسلام الى حب لذاتها بعد ان وجدوا فيها المتعة العقلية والغـاية العمليـة .

ومن أشهر فلاسفة المسلمين الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية وظهروا فى العصر العباسى : الكندى ، الفارابى ، وابن سينا .

يعقوب بن اسحق الكندى (ت ٢٦٠ هـ)(١٣١) :

وهو فيلسوف العرب(١٣٢) ، نشأ بالكوفة وتعلم فى البصرة ثم بغداد ، وكان من جماعة اخوان الصفا . كان جده الأشعث بن قيس من اصـحاب النبى (ص) ، وكان قبل ذاك رئيسا على جميع كنده باليمن(١٣٣) .

---

(١٣٠) تعلم خالد ذلك على يد مريانس الراهب الرومى ، وكانت عنايته بالصنعة والكيمياء لرغبة فى تحويل المعادن الى ذهب . وكان لـديه الوقت والصحة للتفرغ لذلك بعد أن نحى عن الخلافة وغلبه عليها مروان بن الحكم ، وتحول الى عمل يناسب ارستقراطيته ، وهو علم الصنعة .

(١٣١) ابن ابى اصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٨٥ — ٢٨٩ .

(١٣٢) أشار ابن النديم (الفهرست ، ص ٢٥٥) الى انه سـمى فيلسوف العرب لأنه اشهر عربى صميم عمل بالفلسفة .

(٣٣) ينسب الى قبيلة كنده هذه امرؤ القيس الشاعر الشهير .

وكان الكندى عظيم المنزلة عند المأمون والمعتصم والمتوكل ، وهو صاحب مصنفات جليلة ووسائل كثيرة فى شتى أنواع العلوم . وكان عالمـــا بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق والهندسة والنجوم . ولم يكن فى الاسلام فيلسوف غيره احتذى فى مؤلفاته حذو الفيلسوف اليونانى الشهير أرسطو . الف كثيرا وترجم كثيرا واخص المستصعب وأوضح المشكل(٣٤) . وله فى شتى العلوم ٣٣١ كتاب معظمها فى الفلسفة ، ولقد ظهر فى هذه المؤلفـــات تأثر الكندى بفلسفة المعتزلة وبالفلسفة اليونانية وبخاصة فلسفة أرسطو .

ومن كتبه : كتاب الفلسفة الأولى فيما دون الطبيعيات والتوحيد ، كتاب الفلسفة الداخلة والمسائل المنطقية ، رسالة فى أنه لا تنال الفلسفة الا بعلم الرياضيات ، كتاب البحث فى تعليم الفلسفة ، رسالة فى كمية كتب أرسطو ، كتاب فى قصد أرسطو فى المقولات ، كتاب فى ماهية العلم وأقسامه ، كتاب فى ان افعال البارىء كلها عدل لا جور فيها ، كتاب فى ماهية الشىء الـــذى لا نهاية له ، رســـالة فى ماهيـــة العقـــل ، اختصـــار لكتـــاب ايساغوجى لفورفوريوس ، مسائل فى المنطـــق ، ورســـالة فى الاحتـــراس من خـــدع السوفسطائية([illegible]) .

أبو نصر الفـــارابى :

(ت ٣٣٩ هـ) : هو أبو نصر محمد ، من مدينة فاراب(١٣٥) ، كان ابوه من كبار القواد ، وقد تنقل الفارابى فى أمهات المدن الاسلامية واختلف الى بغداد حيث اخذ المنطق فيها على يد ابى بشر متى بن بونس الحكيم المشهور ، والى حران حيث أخذ عن يوحنا بن خيلان الحكيم ، ثم عاد الى بغداد وقـــرأ الفلسفة بها ، وتناول جميع كتب أرسطو وحذق فى استخراج معانيهـــا والوقوف على اغراضه فيها ، ويعد اكبر فلاسفة المسلمين حتى لقب بفلسوف المسلمين(١٣٦) وبرع الفارابى فى العلوم الرياضية ، وكانت له قوة فى صناعة الطب وعلم بالأمور الكلية فيها .

---

(١٣٤) ابن ابى اصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٨٥ .

(١٣٥) فاراب مدينة من بلاد التركستان ، وهى تقع الآن داخل الاتحاد الســـوفيتى .

(١٣٦) القفطى : أخبار الحكماء ، ص ١٨٢ .

وكان الفارابى فقيرا يسهر الليل للمطالعة والتصنيف ويستضىء بالقنديل الذى للحارس ، وقد بقى على ذلك مدة حتى عظم شأنه وظهر فضله واشتهرت تصانيفه وكثر تلاميذه . واتصل الفارابى ببلاط سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب الذى اكرمه واصطحبه معه فى فتح دمشق التى توفى بهــا ســـــنة ٣٣٩هـ(١٣٧) .

وترجع شهرة الفارابى الى شروحه الكثيرة على مؤلفات أرسطو حتى لقب بالمعلم الثانى تمييزا له عن ارسطو الذى لقبه العرب بالمعلم الأول(١٣٨) .

ويعد الفارابى الأب الحقيقى للفلسفة الاسلامية واعــرف الفلاســـفة المسلمين بتاريخ الفلسفة ، وقد تكلم عن المدارس اليونانية بتفاصيلها وفوارقها ودرس مؤلفات افلاطون وأرسطو دراسة وافية وكتب شروحا واسعة لهـــا ، وسار فى نهجه الفلسفى على نهج الأفلاطونية الحديثة .

ومن كتبه الفلسفية : كتاب فى اغراض فلسفة افلاطون وارسطو ،كتاب السياسة المدنية ، كتاب المســـيرة الفاضـــلة ، شرح كتـــاب المجســـطى لبطليموس ، شرح كتاب البرهان لأرسطو ، شرح كتاب الخطابة لأرسطو ، شرح كتاب القياس لأرسطو (وهو الشرح الكبير) ، شرح كتاب المقـــولات لأرسطو ، المختصر الكبير فى المنطق ، المختصر الصغير فى المنطق ، شروط القياس ، كتاب الجدل ، كتاب المدينة الفاضلة ، كتاب مبادىء آراء المدينة الفاضلة ، كتاب الموسيقى الكبير ، كتاب الرد على الرازى فى العلم الالهى ، كتاب فى معنى اسم الفلسفة ، وكتـــاب التوســـط بين ارســـطو طاليس وجالينوس(١٣٩) .

---

(١٣٧) ابن ابى اصيبعة : طبقات الأطباء ، ص ٦٠٤ ، ٦٠٥ .

(١٣٨)حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ، ج ٣ ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٣٨٤ .

(١٣٩) طبقات الأطباء ، ص ٦٠٨ ، ٦٠٩ .

الشيخ الرئيس ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ)(١٤٠) :

هو أبو على الحسين بن عبد الله ، الشهير بابن سينا ، ولد سنة ٣٧٠هـ فى احدى قرى بخارى ، ثم انتقل الى بخارى ودرس بها علوم الدين والرياضة وهو دون العاشرة ، ثم درس الفلسفة والطب وهو لم يتجاوز السابعة عشرة ، كان من كبار فلاسفة المسلمين ، وكان ايضا من كبار اطبائهم ، واشتغل بكثير من الوظائف الادارية فى الدولة السامانية ببخارى . وعندما اضطربت احوال الدولة السامانية خرج ابن سينا من بخارى وقصد نيسابور وطوس والرى وقزوين وهمدان ، وتقلد الوزارة لشمس الدولة بن فخر الدولة السامانى فى همدان التى ظل بها حتى وفاة هذا الأمير ، وظل فى همدان حتى وفاته بها سنة ٤٢٨ هـ . وكان ابن سينا عليلا مستهترا فى الحفاظ على صحته وقد قيل فيه : « ان عامه لم يمن عليه بالحكمة وان طبه لم يمكّن عليه بالصحة » .

شرح ابن سينا الهيات ارسطو وحاول ان يوفق بين فلسفته وعقيدة اهل السنة ولم يقيد نفسه بمذهب من المذاهب . تكلم فى الانسان والنفس الانسانية والعقل .

كان ابن سينا نادرة عصره فى علمه وذكائه وتصنيفه ، فقد الف نحو مائة كتاب خص الفلسفة منها ٢٦ كتاب . ومن أشهر كتبه الفلسفية : كتاب الاشارات فى الفلسفة (نحى فيه نحو الافلاطونية الحديثة) ، كتاب الشفاء (وهو موسوعة فلسفية طبية كبرى يقع فى ١٨ مجلد ، ترجم الى اللاتينية وضاع اصله العربى) ، وكتاب القانون « وهو كتاب فى الطب والفلسفة ، اورد عنه السمرقندى قوله : » « ان كل من يحيط عاما بما فى المجلد الاول من القانون لا يخفى عليه شىء من أصول الطب وكلياته ، ولو بعث ابقراط وجالينوس الى الحياة لحق لهما ان يسجدا لهذا الكتاب » .

اخوان الصفا :

وهم جماعة شيعية اسماعيلية كان مركزها البصرة ، وكانوا من فلاسفة العصر العباسى ومحل عطف البويهيين الذين كانوا أصحاب النفوذ الفعلى

---

(١٤٠) انظر ترجمته بن الأطباء المسلمين فيما يلى .

فى بغداد (منذ ٣٣٤ — حتى ٤٤٧ هـ) . استطاعت هذه الجماعة ان تتمم ما بداه المعتزلة فيما يتصل بمحاولة التوفيق بين العلم والدين وتحقيق الانسجام بين الشريعة والفلسفة اليونانية وتوحيد الثقافة فى صورة دائرة معارف . وكانوا جماعة سرية اخذت كثيرا من مبادىء الفلسفة الطبيعية ، وقد لجأ اخوان الصفا الى تأويل القرآن تأويلا مجازيا — وكتبوا رسائلهم فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى وعدوها ٥٢ رسالة تبحث فى كثير من النواحى الفلسفية وكانت أشبه بدائرة معارف ودلت على ان مؤلفيها نالوا حظا وفيرا من العلم الطبيعى والرقى العقلى(١٤١) . ومن اشهر مؤلفيها : محمد بن نصر المقدسى ، على بن هارون الزنجانى ، المهرجانى ، العوفى ، وزيد بن رفاعة وكان من بينهم ايضا الفيلسوف الطبيب ابن سينا .

من اقوال اخوان الصفا : « ان الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل الى تطهيرها الا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ، ومتى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة الاسلامية فقد حصل الكمال » .

من فلاسفة الأندلس المسلمين الذين تاثروا بالفلسفة اليونانية :

ابن باجة (ت ٥٣٣ هـ) :

وهو فيلسوف اندلسى ولد فى سرقسطة فى اواخر القرن الخامس الهجرى فى عصر دولة المرابطين . قربه حاكم سرقسطه اليه وجعله جليسا ووزيرا له . وتوفى سنة ٥٣٣ هـ بالسم فى مدينة فاس .

له عديد من الكتب الفلسفية ، وكان اكثرها شرحا لمذهب ارسطو . ومن اهم كتبه الفلسفية : رسالة الوداع (والتى أبان فيها فضل العلم والمعرفة وفضل التأمل الفلسفى ، وقد ترجمت الى العبرية) ، كتاب السماع الطبيعى لأرسطو (وهو كتاب مفقود) ، كتاب الكون ، وكتاب النفس .

---

(١٤١) كان اخوان الصفا يؤمنون بوجود الله الخالق وكانوا يبرهنون على وحدانيته بفلسفتهم الرياضية .

ابن طفيل (ت ٥٨١ هـ) :

وهو ابن طفيل القيسى القرطبى الأشبيلى ، ولد قرب غرناطة فى مدينة كواديس ، وعاش فى عصر دولة الموحدين فى النصف الثانى من القـــرن السادس الهجرى . كان طبيبا ماهرا واشتغل فى بلاط الموحدين كطبيب خاص لثانى ملوك الموحدين بالمغرب فى مدينـــة مراكش وهو ابو يعقـــوب يوســـــف .

يعد كتاب « حى بن يقظان » أشهر كتبه ، وقد عرض فيه لحياة رجل وجد منذ نعومة اظفاره فى جزيرة نائية لا احد فيها من الناس فأرضعته غزالة وكبر وشب فيها . واستطاع هذا الرجل باستخدام عقله ان يكتشف العـــالم العلوى ويهتدى لمعرفة الله وخلود النفس ، فشرح من خلال هذه القصـــة مذهب الأفلاطونية الحديثة فى صورة اسلامية .

ولقد اشار ابن طفيل فى قصته ان هذا الرجل تقابل على الجزيرة مع رجل آخر كان يدين بشرعة احد الأنبياء ، واستطاع الاثنان ان يتفاهما بعد ان عرض كل منهما ما عنده للآخر واتضح من العرض اتفاقهما فى الأصول دلالة على أن الدين لا يخالف العقل . وفى الرسالة لفتات لطيفة منها ان الانسان اذا ارتقى اتصل بالله ورأى مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر(١٤٢) .

ابن رشد (ت ٥٩٥ هـ) :

هو أبو الوليد محمد بن احمد بن رشد ، اشهر فلاسفة الأندلس ولد فى قرطبة سنة ٥٢٠ هـ ايام دولة الموحدين وتولى القضاء قبها على مذهب الامام مالك . اتهمه الموحدون بالزندقة واحرقوا كتبه الفلسفية . وتوفى فى مراكش سنة ٥٩٥ هـ ، ودفن فى قرطبة . لقب ابن رشد بالشارح الكبير اشرحـــه مؤلفات ارسطو وقد نهج فى ذلك نهج ابن طفيل الذى كان ابن رشد تلميذا من تلاميذه . حاول ابن رشد فى فلسفته ان يوفق بين الفلسفة والدين مثلما فعل استاذه ابن طفيل من قبله . كان اثره كبيرا فى فلاسفة اوربا لأنه فتح

---

(١٤٢) احمد امين : ظهر الاسلام ، ج ٣ ، ص ٢٤٢ .

عقولهم للبحث والمناقشة ، ومن ابرز تلاميذ مدرسته من الفلاسفة الأوربيين المحدثين الفيلسوف الألمانى كانت

٢ — علم الكلام(١٤٣) :

علم الكلام هو العلم الذى يبحث فى العقائد وفى الرد على المخالفين بالأدلة العقلية ، فهو مبنى على أن اصحابه يؤمنون بالعقائد الدينية وبصحة هذه العقائد الاسلامية ، ثم يجادلون بالجدل والاقتنــاع والمنطــق(١٤٤) . والفلسفة عندهم برهان صحة هذه العقائد واداة لاقناع المخالفين او غــير المؤمنين بصحتها اقناعا عقليا . كما اقتنع علماء الكلام بالقرآن وتعاليمــــه وجدانيا ، ولذلك اختلفت طريقة بحثهم عن طريقــة البحث الفلســـفى الذى يتطلب من صاحبه ان يكون خالى الذهن من أى فكرة خاصة فيستقى الحقيقة ويقرها ويؤمن بها . والفرق بين الفيلسوف وعالم الكلام هو أن الفيلسوف يعد كالقاضى يحكم فى قضية يبحثها ليصدر حكمه العادل فيها ، اما المتكلم فهو كالمحامى الذى يدافع عن قضية يؤمن بها ويعتقد فى صحتها فيتولى الدفاع عنهـــا .

ولقد كانت هنالك اسباب كثيرة ادت الى نشوء هذا العلم وتطــوره حتى اصبح علما له قواعده واسســه وانصاره واتباعه فيها : ان الفــرق الاسلامية اخذت تختلف فى كثير من القضايا ويحتكم الى الجــدل تارة والى السيف تارة اخرى فى تأييد دعواها . فهناك مثلا قضية الخلافة ومن هــو صاحب الحق فيها ؟ وكانت من أوائل القضايا التى واجهها المسلمون . كذلك هناك امر مرتكب الكبيرة ، هل هو كافر ام مؤمن ام فى منزلة بينهما ؟ كذلك دعت الحاجة علماء المسلمين الى أن يجادلوا اتباع الديانات الأخرى وغــير

---

(١٤٣) عرف ابن خلدون علم الكلام (المقدمة ، ص ٤٣٣) بقوله : « هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالأدلة العقلية والــرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف واهل السنة ، وسر هذه العقائد الايمانية هو التوحيد » .

(١٤٤) ابو الوفا التفتازانى : علم الكلام وبعض مشاكله ، القاهــرة ١٩٦٦ ، ص ٦ .

المسلمين الذين اعتمدوا فى جدلهم على الفلسفة والمنطق فى تأييد دعواهم فتسلح المسلمون بنفس سلاحهم فى حربهم معهم . بالاضافة الى ذلك نجد ان بعض الفرق ، ومنها المعتزلة ، اخذت على عاتقها الدعوة للاسلام والرد على المخالفين ، فدعاها ذلك الى الاطلاع على الفلسفة والاحاطة بأقوال الفرق الأجنبية وحججها فدرسوا هذه الفلسفات ليستطيعوا الرد عليها واظهار مثالبها واخطائها .

واذا كان علم الكلام قد بدا فى اواخر العصر الأموى فانه اتسع فى العصر العباسى ، وقد اخذ به المعتزلة ، كما اخذ به اتباع الفرق الاخرى كالشيعة والمرجئة والخوارج .

وبرغم دفاع ابن خلدون عن هذا العلم فانه يدعو المسلمين الى عدم التوسع فيه وذلك بقوله : « وعلى الجملة فينبغى ان يعلم هذا العلم الذى هو علم الكلام انه غير ضرورى لهذا العهد على طالب العلم اذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا والأئمة من اهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا والادلة العقلية انما احتاجوا اليها حين دافعوا ونصروا ، واما الآن فلم يبق منها الا كلام تنزه البارىء عن كثير ايهامه واطلاقه »(١٤٥) .

الفرق الاسلامية التى اشتغلت بعلم الكلام :

منذ أن واجه المسلمون اول المشاكل بعد وفاة الرسول (ص) وهى مشكلة الخلافة ، اخذ المسلمون يتساءلون فى كثير من المسائل ويحاولون البحث لها عن حل وتساءلوا كيف يكون الحل ، وما هو وجه الصواب فيها وما هو وجه الخطأ ؟ وما هو المقصود من الآيات والأحاديث وما هو غير المقصود ؟ وهل تفسر هذه المسائل بالمعنى الظاهر ، اى الالتزام بالنص ، ام لها معان مستترة ؟ ومن اكبر القضايا التى شغلت ذهنهم هى : هل الانسان مسير أم مخير ؟ الى غير ذلك من امور لم يتفقوا عليها جميعها ، فنتج عن ذلك كثير من الفرق الدينية التى اختلفت آراؤها فى الرد على هذه التساؤلات مثل الخوارج ، والمرجئة ، والشيعة ، والمعتزلة ولقد استعمل بعضهم السيف

---

(١٤٥) المقدمة ، ص ٣٩٧ .

وخاض الحروب للدفاع عن رأيه ، كما حاول بعضهم الوصول للحكم بشتى الطرق ، واعتزل فريق آخر القتال والفتنة وام يرض أن يخطىء هذا او يكفر ذاك وترك الأمور لله يفصل فيها يوم القيامة . ولقد تطورت هذه الجماعات والفرق وأصبح لها فى كل عصر تعاليم وقواعد تختلف فيه عن العصر الذى سبقها او لحقها ، وسوف نعرض فى ايجاز لآراء هذه الفرق :

١ — الخوارج :

وهو أول حزب سياسى اسلامى ، نشأوا فى وقعة صفين وطالبوا وارغموا عليا على التحكيم ، ثم لاموه على قبوله التحكيم وكفروه وطلبوا منه التوبة والاستغفار ، وخرجوا عن صفه فسموا الخوارج واجتمعوا فى حروراء (بالقرب من الكوفة) فعرفوا أيضا بالحرورية ، ولكنهم سموا انفسهم الشراة(١٤٦) . (لادعائهم أنهم اشتروا انفسهم بأن باعوها فى سبيل الله) ، ووضع الخوارج لأنفسهم نظرية فى الخلافة خلاصتها ان الخليفة يجب ان يختار اختيارا حرا من بين جميع المسلمين ولا يشترط فيه ان يكون عربيا او قرشيا بل يصح أن يل الخلافة عبد حبشى اذا اجمع المسلمون على اختياره، ولا يصح للخليفة المنتخب ان يتنازل عن الخلافة وعليه ان يتبع تعاليم الله فى سياسته فاذا حاد عنها وجب عزله بالقوة .

ولقد تعرض الخوارج لحرب على فى معركة النهروان التى هزموا فيها، كذلك حاربوا الأمويين ، وما لبثوا ان مزجوا السياسة بالدين لتأييد دعواهم وكان أكثر اتباعها من الأتقياء الورعين . ورأت هذه الجماعة صحة خلافة ابى بكر وعمر وعثمان فى سنيه الست الأولى الى أن حاد عن الصواب وصحة خلافة على الى ان رضى التحكيم ولم ترض بخلافة معاوية ولا أحد من بعده ودافعت عن مبادئها بالقوة وقد انتشرت افكار هذه الجماعة برغم هزائمها العسكرية المتكررة .

وما لبثت هذه الفرقة أن انقسمت الى فرق كثيرة زادت عن العشرين ومن فرقهم الغالبة : جماعة الازارقة اتباع نافع بن الأزرق ، والنجدات اتباع

---

(١٤٦) سموا أنفسهم ايضا : « المحكمة » اى الذين رفعوا شعار « ان لا حكم الا لله » .

نجدة ابن عطية بن عامر ، والصفرية اتباع زياد بن الأصفر ، والاباضية اتباع عبد الله ابن اباض التميمى(١٤٧) .

واذا كان الخوارج لم يأخذوا بشىء من التعاليم الفلسفية فانهم برعوا فى ناحيتين عظيمتين : شجاعتهم فى الحروب وأدبهم الرفيع من شعر وخطابه وعلم باللغة ، بالاضافة الى ورع اكثرهم وتقواه وعدم خوفهم فى الله لومة لائم(١٤٨) . ومن كتب التاريخ أمثلة كثيرة عن شجاعتهم حتى لقد كانت فئة قليلة منهم تتغلب على جيش كبير العدد . ولقد هددوا العراق مرارا وكلفوا الدولة الاموية اكبر قدر من الجهد لاخماد حركاتهم ، لكن امرهم ضعف فى العصر العباسى .

---

(١٤٧) نجح الخوارج الاباضية فى تأسيس دولة لهم فى الجزائر ، كان مركزها مدينة تاهرت ، فى الفترة ما بين سنوات ١٩٦ — ٢٩٦ هـ ، واسس هذه الدولة عبد الرحمن بن رستم ولذلك عرفت هذه الدولة بالدولة الرستمية . كذلك نجح بنوواسول الصفرية فى انشاء دولة لهم فى سجلماسة وما حولها من بلاد المغرب فى الفترة ما بين ١٥٥ — ٢٩٦ هـ وكانت نهايتها على يد الفاطميين .

(١٤٨) ولعل خير ما قيل فيهم ما قاله ابو حمزة الخارجى فى وصف اصحابه :

« شباب والله مكتهلون فى شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ثقيلة عن الباطل ارجلهم ، انضاء عبادة واطلاح سهر ، فنظر الله اليهم فى جوف الليل منحنية أصلابهم على اجزاء القرآن كلما مر احدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا اليها واذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه . موصول كلالهم بكلالهم ، كلال الليل بكلال النهار . وقد اكلت الأرض ركبهم وايديهم وانوفهم وجباههم واستقبلوا ذلك فى جنب الله حتى اذا راوا السهام قد فوقت والرماح قد اشرعت والسيوف قد انتضت ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ومضى منهم قوما حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه وتخضبت بالدماء محاسن وجهه فاسرعت اليه سباع الأرض وانحطت اليه طير السماء . فكم من عين فى منقار طير طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله » .

وقد ازداد واتسع نشاط الخوارج الثورى فى اقاليم الدولة وبعيدا عن مركز الخلافة واخذ بأفكارهم الموالى من فرس وبربر ونجحوا فى توصيل هذه الأفكار الى خراسان وشمال افريقية واليمن التى ما زال بعض اهلها حتى الآن يعتنقون أفكارهم .

٢ — الشيعة وفرقها :

كان من أثر وفاة رسول الله (ص) دون ان يوصى بمن يخلفه ودون ان يرد فى القرآن ذكر لهذا الأمر ان ذهب تفكير المسلمين مذاهب شتى ظهرت فى اجتماع سقيفة بن ساعدة وانتهت بالبيعة لأبى بكر الصديق . ولكن لما ذهبت الصدمة التى منى بها المسلمون بوفاة الرسول ، اخذوا يفكرون فى امر الخلافة وفى الشروط التى يجب توافرها فى من يصبح خليفة رسول الله (ص) .

ولقد اقتنع فريق من المسلمين بما سارت اليه الأمور وبالكيفية التى وصل لها الراشدون الى الخلافة ، بينما لم يقتنع البعض الآخر من الذين تشيعوا لآل البيت وراوا ان عليا وابناءه من بعده هم اصحاب هذا الحق . وادت معركة كربلاء ، التى استشهد فيها كثير من آل البيت ، الى ازدياد وقوة هذا الادعاء كما ادى الى بعث مبدا التشيع وانتشاره بين الناس وبخاصة بين الفرس . وسرعان ما انقسم هؤلاء المتشيعون الى فرق كثيرة ، تتفق فى الدعوة لآل على بالخلافة وتختلف فما بينها فى اى فروع آل البيت هو المستحق للامامة . ولقد تكونت اهم الفرق الشيعية وهى : الزيدية ، الامامية ، الاثنا عشرية ، والاسماعيلية ، وهى فرق منها المغالى ومنها المعتدل والرافضة فرقة من فرقهم(١٥٠) .

أ — الزيدية :

وهم ينتسبون الى زيد بن الحسين بن على بن الحسن بن على بن ابى طالب ، الذى ثار ضد هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى سنة ١٢١ هـ وانتهى

---

(١٤٩) الشيعة فى اللغة هم الصحب والأتباع ، ويطلق فى عرف الفقهاء والمتكلمين على اتباع على وبنيه رضى الله عنهم .

(١٥٠) محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، ج ٢ ، ص ٦٠ .

الأمر بقتله . كذلك ثار ابنه يحيى من بعده ولحق به بعد اربع سنين . وهذه الفرقة اكثر فرق الشيعة اعتدالا فى آرائهم واقربهم الى اهل السنة فهم يرون ان خلافة ابى بكر وعمر صحيحة لأن عليا بايعهما مع افضلية على عليهما ، ووضعوا لذلك قاعدة وهى أن يجوز امامة المفضول مع وجودالأفضل، فاذا وجد امام منهم ورضى عن الخليفة القائم به فتجوز خلافة هذه الخليفة دون الامام . وهم يعترفون بأنه لم يرد نص رسمى عن الرسول فى وجوب الامام وليس للامام حق الهى ، ويشترطون فى الامام ان يطالب بالخلافة ويقاتل فى سبيلها حتى ينالها . ولعل اعتدال هذه الفرقة فى تعاليمها يرجع الى ان زيدا امامها الأول قد تتلمذ على يد واصل بن عطاء راس المعتزلة واخذ عنه كثيرا من آراء المعتزلة فأثر ذلك فى عقليته ومعتقداته . ولا يزال لهذه الفرقة اتباع كثيرون فى اليمن .

ب — الامامية :

وسميت هذه الفرقة بهذا الاسم لقولها بوجود امام نص على خلافته الرسول صلى الله عليه وسلم . وهذه الفرقة تتبرأ من ابى بكر وعمر وتعتبرهما خارجين عن تعاليم الرسول ، بل كفارا ، لأنهم يؤمنون بأن الرسول قد اوصى لعلى من بعده نصا وتلميحا . وجعلوا الاعتراف بالامام جزءا من الايمان ، ومن لا يؤمن بامامة آل البيت فهو ناقص الاسلام لا يتم اسلامه الا بذلك . وقد جعل الامامية أئمتهم معصومين من الخطأ ومحيطين بالعلوم جميعا ما ظهر منها وما بطن . وقد اختلف اتباع هذه الفرقة فى أشخاص الأئمة فحصرها بعضهم فى اولاد على من فاطمة فقط ، اى حرموا منها اولاد محمد بن الحنفية ، ثالث ابناء على لكون امه ليست السيدة فاطمة. وجعل الامامية الامامة فى سلالة على عن طريق ابنه الحسين ، وقالوا انها لا تنتقل من اخ لأخ بعد ان انتقلت من الحسن الى الحسين ولا تكون الا فى اعقاب الحسين . ولقد خرج بعض الامامية على هذه التعاليم بعد موت الامام جعفر الصادق بن محمد الباقر ، امام الشيعة الامامية السادس سنة ١٤٨ هـ، ولذلك انقسمت طائفة الامامية الى فرقتين جديدتين وهما الاثنا عشرية والاسماعيلية .

ج — الامامية الاثنا عشرية (الموسوية) :

ويدعون الموسوية نسبة الى امامهم موسى الكاظم بن جعفر الصادق وهو الامام السابع عندهم ، كذلك يؤمنون بأن سلسلة ائمتهم تحتوى اثنى عشر اماما ، اولهم الامام على بن ابى طالب وآخرهم الامام محمد بن الحسن العسكرى الذى اختفى سنة ٣٢٠ هـ ولا يزال مختفيا ، وهم ينتظرون عودته ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا ، ولذلك سموه الامام المهدى المنتظر(١٥١)

ولقد تبع هذا المذهب الشاه اسماعيل الصفوى وجعله المذهب الرسمى الدولة الصفوية فى فارس فى القرن السادس عشر الميلادى . واضاف الى الآذان بعد ذكر الشهادتين عبارة « أشهد ان عليا ولى الله » وعبارة « حى على خير العمل » بدلا من عبارة « حى على الفلاح » ، ولا يزال هذا المذهب الاثنا عشرى مذهب دولة ايران الرسمى الى اليوم(١٥٢) .

د — الامامية الاسماعيلية (السبعية) :

وقد انشقت هذه الفرقة من الامامية لانها اعتبرت الامام اسماعيل بن جعفر الصادق واكبر ابنائه محمد سابع الأئمة المتسلسلين من امامهم على ، وذلك لأن اباه جعفر الصادق كان قد اوصى له بالامامة ثم حولها الى اخيه موسى الكاظم لمسائل نسبت اليه . ولقد مات اسماعيل فى حياة أبيه سنة ١٤٥ هـ ، وقد انكر اتباعه موت اسماعيل وقالوا قد تغيب ولا يموت حتى حتى يملك الارض ويقوم بأمر الناس . كما قالوا بانه لا يجوز لأبيه جعفر ان

---

(١٥١) هو محمد المنتظر بن الحسن العسكرى بن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب .

مات أبوه وعمره خمس سنين وقد دخل محمد المهدى هذا سردابا فى مدينة سامراء وامه تنظر اليه ولكنه لم يعد ولم يقف احد على اثره بعدها ، ولذلك يعتقد اتباعه انه اختفى ليعود ثانية ليملأ الأرض عدلا .

(١٥٢) من شعراء الشيعة المشهورين : أبو الأسود الدؤلى ، الكميت ، وكثير عزة .

يحول الخلافة الى اخيه موسى حتى بعد وفاة اخيه اسماعيل لان الامامة عندهم لا تنتقل من أخ الى اخ بعد الحسن والحسين ولا تكون الا فى الأعقـــاب . ولذلك راى اتباعه نقل الامامة الى ابنه محمد من بعده وهو عنـــدهم الامام السابع . وقد قال الاسماعيليون ان للقرآن ظاهرا وباطنا ، ولذا ســـماهم البعض باسم « الباطنية »(١٥٣) .

ولقد لعب الاسماعيلية دورا دينيا وسياسيا كبيرا فى تاريخ الـــدولة الاسلامية واستطاعت بعض فرقهم ان تؤسس دولة كبيرة نازعت الـــدولة العباسية السلطة والنفوذ وهى الدولة الفاطمية فى المغـــرب ثم فى مصر والشام . كما كان منهم جماعة القرامطة أتباع عبد الله بن ميمون القـــداح وحمدان بن الأشعث الملقب بقرمط ، والذى ينتسب القرامطة اليه ويتسموا باسمه . ولا يزال للاسماعيلية حتى الآن بقايا فى الشام وايران والهنـــد ورئيسهم الأن كريم خان حفيد زعيمهم المشهور الراحل محمد اغا خان الذى تزور الطائفة قبره الآن بمدينة اسوان من مدن صعيد مصر .

٣ — المرجئـــة :

كلمة مرجئة مأخوذة من معنى ارجا بمعنى امهل وأخر ، وسمى اصحابه بذلك لأنهم يرجئون امر هؤلاء المختلفين الذين سفكوا الدماء الى يوم القيـــامة فلا يقضون بحكم على هؤلاء ولا على هؤلاء . والبعض يرى أن اشتقاق الاسم من ارجأ بمعنى بعث الرجاء ، وهم نقيض الخوارج وعقيدتهم على عكس عقيدتهم تماما . نشأت المرجئة لما رأت الخوارج يكفرون عليا وعثمـــان والقائلين بالتحكيم ، ورأت من الشيعة من يكفر ابا بكر وعمر وعثمان ومن ناصرهم وكلاهما يكفر الأمويين ويلعنهم ، والأمويون يقاتلونهم ويرون انهم على باطل ، وكل طائفة تدعى أنها على الحق وانها وحدها الحق ، وأن من عاداها كافر وفى ضلال مبين فظهرت المرجئة تسالم الجميع ولا تكفر طائفة منهم دون الطائفة المتسامحة وتميل الى المسالمة(١٥٤) .

---

(١٥٣) محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، ج ٢ ، ص ٦٣ .
يقول ابن خلدون (المقدمة ، ص ١٧٤) انهم سموا بالباطنية نسبة الى قولهم بالامام الباطن اى المستور .

(١٥٤) أحمد امين : ضحى الاسلام ، ج ٣ ، ص ٣٢٥ .

ولم تكن المرجئة فى أول امرها فرقة متميزة وان كانت تضم تلك الفئة من الناس التى لم ترض أن تغمس يدها فى فتنة ولا تؤيد حزبا او تعادى آخر ولا ان تحكم على هذا بالكفر او الايمان او الخطأ والصواب بل ارجأت امـــر الجميع الى الله تعالى يحكم فيها يوم القيامة ، اذ رأت جميع من شارك فى الفتن من المسلمين ممن لهم مقام محفوظ ومركز عال وأفضلية فى الاسلام . فرجال الفتنة فى عهد عثمان وعلى هم طاحة والزبير وعائشة ومعاوية وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين فى عهد الأمويين . وهـــؤلاء كلهم وأمثالهم الذين ظهرت الأحزاب السياسية والدينية تؤيدهم او تعاديهم كانوا صحابة الرسول والمقربين اليه . ولقد اجتهد هؤلاء واخطأوا واصاب بعضهم وأخطأ البعض الآخر وتراشق بعضهم بالتهم فكفر الخوارج عثمان فى اواخر حكمه ، كما كفروا عليا بعد ان وافق على التحكيم ، كذلك كفروا معـــاوية وغيره . ونسب العلويون والشيعة الى على صفات ليست له واتهم بعضهم الشيخين (أبا بكر وعمر) بالتآمر ضده واغتصاب الخلافة منه . ووقـــف المرجئة ازاء الجميع موقف المتفرج المحايد . لكن هذا الموقف السلبى الذى كان لهم فى أول نشأتهم ما لبث ان دخلت عليه بعض التعاليم فانقلبوا الى حزب سياسى والى حزب دينى ، اذ بحثوا فى كثير من المسائل الدينية وأخـــذوا بالفلسفة فى العصر العباسى ، لكن حزبهم ما لبث ان تلاشى فى أواسط العصر العبـــــاسى .

ومن الأبحاث الدينية التى بحث فيها المرجئة : مسألة تحديد الايمـــان والكفر وحقيقة المؤمن والكافر ، ورأى كثير من المرجئة ان الايمان هو المعرفة بالله وبرسله فمن عرف وآمن بأن لااله الا الله وأن محمدا رسول الله فهـــو مؤمن حتى ولو ارتكب شيئا من الكبائر ، ولذلك لم يحكم بالمرجئة بالكفر على الخوارج أو الشيعة او الأمويين .

ومن قول المرجئة المشهور المأثور : » انه لا تضر مع الايمان معصية كما أنه لا تنفع مع الكفر طاعة » ، « المعصية لا تضر صاحب التوحيد والايمان ولا يدخل النار مؤمن » ، و « الايمان يزيد ولا ينقص » .

ونسب الى المرجئة سعيد بن جبير ، الحارث بن سريح ، ثابت قطنة (شاعر الأمويين وعامل يزيد بن المهلب) ، عون بن عبد الله بن عقبة بـــن

مسعود ، الامام أبو حنيفة ، حماد بن ابى سليمان (استاذ ابى حنيفة) وكان يقال لهم مرجئة السنة .

٤ — المعتزلة (القدرية) :

ظهر مذهب المعتزلة فى البصرة فى أواخر العصر الأموى ، وهم ائمة العقل والبحث وينتسب الى واصل بن عطاء(١٥٥) عندما اعتزل حلقة استاذه الحسن البصرى فى مسجد البصرة وكون لنفسه حلقة خاصة على اثر السؤال الذى عرض على الحسن ، وكان يشغل عقول كثير من المسلمين ، وهو الخاص بمرتكب الكبيرة ، هل هو كافر ام مؤمن ؟ وقد أفتى واصل بأنه ليس بكافر ولا مؤمن ولكن هو فى منزلة بين المنزلتين . وعلى اثر هذا الخلاف فى الراى اعتزل واصل حلقة استاذه واقام لنفسه حلقة خاصة به يدرس بها افكاره فى مسجد البصرة ، فقال الحسن البصرى جملته الشهيرة : « لقد اعتزلنا واصل » فتسمت الجماعة التى تابعت درسه وانتظمت فى حلقته جماعة المعتزلة(١٥٦) .

ولقد ضم هذا المذهب نخبة من العلماء ما لبثوا ان اطلعوا على الفلسفة وعلم الكلام واعتمدوا عليهما فى اثبات آرائهم . ومنهم : عمرو بن عبيد ، تلميذ الحسن البصرى(١٥٧) ، وابراهيم النظام ، الجاحظ ، ابو هزيل العلاف ، واحمد بن ابى دؤاد .

ومن اهم القضايا التى عالجها جماعة المعتزلة قضية الجبر والاختيار ، اى هل الانسان مسير ام مخير ؟ ولقد اخذ المسلمون عندما بدا عقلهم يتفلسف

---

(١٥٥) واصل بن عطاء من الموالى ، ولد فى المدينة سنة ٨٠ هـ ، ثم انتقل الى البصرة وكان تلميذا للحسن البصرى ولغيره ، وكان خطيبا بليغا قادرا على الكلام ، توفى سنة ٢٣١ هـ فى خلافة المتوكل (المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٢ ، بولاق ١٢٨٣ هـ ، ص ٢٩٨) .

(١٥٦) اطلق المعتزلة على انفسهم « اهل العدل » مرة ، واهل « التوحيد » مرة أخرى .

(١٥٧) عمرو بن عبيد من الموالى ، ولد سنة ٨٠ هـ وهى السنة التى ولد فيها واصل وتوفى بعده فى سنة ١٤٥ هـ . تتلمذ على يد الحسن البصرى واعتنق راى واصل فى الاعتزال واشتهر بالزهد والورع .

يتساءلون مثل هذه الأسئلة والتفتوا الى القرآن يستمدون منه الالهام والهداية فوجدوا فيه آيات تؤيد الجبر وأخرى تؤيد الاختيار(١٥٨) . ولقد قال جماعة من المسلمين بالجبر ، اى ان الانسان مجبر على اعماله ولا اختيار له ولا قدرة لأن الله قدر على هذا الانسان الحالة ولا بد أن تصدر منه رغب ام كره ، وسمى هؤلاء الجماعة بالجبرية ، وسموا كذلك بالجهمية ، نسبة الى رئيسهم جهم بن صفوان وهو من موالى خراسان . وقال آخرون بالحرية ، اى ان الانسان حر الارادة له قدرة على اعماله وسموا بالقدرية . وجاء المعتزلة وأخذوا بعض مبادىء الجبرة وبعض مبادىء القدرية وبنوا لأنفسهم تعاليم كثيرة خلاصتها :

— القول بالقدر ، أى ان الله لا يخلق افعال الناس وانما هم يخلقون افعالهم وانهم من اجل ذلك يثابون او يعاقبون ، والله سبحانه عادل فى الثواب والعقاب .

— القول بسلطة العقل وقدرته على تمييز الحسن من القبيح وقد جاء الشرع باتباع الحسن ونهى عن اتباع القبيح .

— مرتكب الكبيرة ليس بكافر كما هو ليس بمؤمن ولكنه فاسق يستحق النار لفسقه وهو فى منزلة بين منزلتى الايمان والكفر .

— القول بخلق القرآن ، وانه اصوات وحروف خلقها الله ونزلها على نبيه محمد بواسطة الوحى .

— القول بأن العالم حادث ، وليس قديم ، وان صفة القدم لله وحده (وفى ذلك خالفوا رأى فلاسفة اليونان وعلى رأسهم ارسطوا) .

---

(١٥٨) مما يؤيد الجبر قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وأبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » « أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار » ، « ولقد بعثنا فى كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة » ومما يشعر بالاختيار قوله تعالى : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ، « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما » وغيرها .

ولقد كان المعتزلة اسرع الفرق الاسلامية استفادة من الفلسفة اليونانية وصبغها بالصبغة الاسلامية والاستعانة بها فى عرض نظرياتهم وفى جدلهم . والمعتزلة هم الذين خلقوا علم الكلام فى الاسلام وهم اول من تسلح من المسلمين بسلاح خصمه ودافعوا بهذا السلاح عن الاسلام وبددوا شكوك وافتراء خصوم الاسلام وخصومهم . ولقد اجمع الكتاب على ان المعتزلة ، رغم اعتمادهم على سلطان الحكومة لنشر افكارهم يعدون فلاسفة الاسلام لانهم درسوا العقائد دراسة عقلية مقيدين انفسهم بالحقائق الدينية الاسلامية غير منطلقين فى غير ظلها . فهم فهموا نصوص القرآن فى العقائد فهما فلسفيا ، وهم يعدون بحق حماة الاسلام . كذلك قام المعتزلة بأمر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وردوا كيد الزنادقة والملاحدة والكفار ، وكان وجودهم عاملا هاما فى وقف تيار الزندقة الذى ساد بلاد الدولة الاسلامية فى العصر العباسى الأول .

ولقد اثر المعتزلة فى السياسة عندما اتبع مذهبهم الخليفة المأمون(١٥٩) وصار يجبر الناس على رأيهم القائل بخلق القرآن ويضطهد كل مخالف لهذا الرأى ، وقد اقتدى به اخوه المعتصم وحمل الناس على القول بخلق القرآن واهان الامام احمد بن حنبل وسجنه لرفض القول بذاك . كذلك تشدد ابنه الواثق فى فرض هذا المذهب على الناس وهذا الرأى حتى انه اعتبر من لا يقول بخلق القرآن خارجا على الاسلام .

التصـــوف :

التصوف فى الاسلام كان نزعة من النزعات ولم يكن فرقة مستقلة او جماعة صاحبة رأى كالمعتزلة والشيعة وغيرهما ، ولذلك فقد كان يصح أن يكون الرجل معتزليا وصوفيا او شيعيا وصوفيا وهكذا . وقد ظهرت هذه النزعة فى العصر العباسى الأول كحركة رد فعل لحالة الاسترخاء الاقتصادى

---

(١٥٩) انتشر مذهب المعتزلة فى عهد المأمون لانه كان عالما يقول بحرية النظر معجبا بعلم رجالهم وفضائلهم . ولقد ناوء الخليفة المتوكل المعتزلة مراعاة للعامة .

(محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، جـ ٢ ، ص ٥٨) .

واليسر المالى الذى عاشته الدولة الاسلامية آنذاك ، وبسبب حياة الترف والرغد التى عاشها الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة والأغنياء فى ذلك العهد ، الأمر الذى أدى الى المغالاة فى الترف وبذخ فى الصرف وظهور كثير من مظاهر اللهو والمتع وتهافت الناس على الحياة الدنيا واغفالهم المـوت والحساب . فرأى ، نتيجة ذلك ، جماعة من المسلمين ، المستنكرين لهـذا الانحدار ، ان يزهدوا فى الحياة الدنيا وأن يعيشوا عيشة الكفاف وينصرفوا للعبادة والتقوى ، فيضربوا بذلك المثل لغيرهم علهم يعودون الى دينهم والى تقواهم . وقد ارتدى هؤلاء الناس الصوف لخشونته على جلودهم ، ولذلك عرفوا بالصوفية أو المتصوفة ، كان ذلك فى القرن الثانى الهجرى(١٦٠) . كان من اشهر متصوفى ذلك القرن : ابراهيم بن ادهم ، داود الطائى ، شفيق البلخى(١٦١) ، الفضيل بن عياض ، وأبو هاشم الصوفى (ت ١٥٠ هـ)(١٦٢)

ويرجع البعض ظهور التصوف الى بداية ظهور الاسلام ، ويستشهدوا بوجود أولئك النفر الأول فى الاسلام والذين عاشوا حياة الزهد والتصوف من امثال ابى ذر الغفارى والحسن البصرى(١٦٣) . ويقول بعض المؤرخين أن فلسفة التصوف قامت على مذهب الافلاطونية الحديثة بعد مزجها بالمسيحية

---

(١٦٠) قال البعض ان أصل التسمية من الصفاء أو الصفة .

(١٦١) هو اول من تكلم على التصوف بخراسان ، ولقد توفى سـنة ١٥٣ هـ .

(محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، جـ ٢ ، ص ٣١).

(١٦٢) كان من النساك يجيد الكلام وينطق بالشعر كما وصفه الجاحظ

(١٦٣)يؤيد ابن خلدون فى مقدمته هذا الرأى (ص ٤٤٢) بقـوله عن التصوف :

« هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة وأصله ان طريقـة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاما فى الصحابة والسلف . فلما نشأ الاقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعـده وجنح الناس الى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصـوفة » .

ووجود شبه بين فلسفتيهما ، كما يقول البعض الآخر ان بعض تعاليم الصوفية قد اقتبست من تعاليم هندية وفارسية ونصرانية وغير ذاك .

ولم يكن للمتصوفين الأوائل اى نظام او فلسفة او مظاهر ، ولكن فى القرن الثالث الهجرى . وعندما تسلح المتكلمون بسلاح الفلسفة للاقتناع والحجة دفاعا عن الاسلام ، راى المتصوفة ان يتقربوا الى الله تعالى عن طريق الزهد والتقشف وحب الله جل شأنه والتعلق به حتى يصلوا الى معرفته تعالى لا عن طريق المنطق والجدل ولكن عن طريق الكشف والاشراق الربانى النورانى . ومن أشهر متصوفة هذا القرن معروف الكرخى ، صريع السقطى ، بلخ الكرخى ، ذو النون المصرى ، ورابعة العدوية(١٦٤) .

وما لبث التصوف ان اصبح مذهبا خاصا وظهر كثير من المتصوفين ، كان منهم المغالى وكان منهم المعتدل ، وخرج بعضهم عن القول المألوف عند عامة المسلمين كالحسين بن منصور الحلاج ، الذى كان من غلاة المتصوفين(١٦٥) والمعتدلون من المتصوفة لم يصلوا الى ما وصل اليه الحلاج واتباعه ، ولكنهم اتبعوا طرقا وتعاليم خاصة ووضعوا للوصول الى معرفة الله وتجليه تعالى عليهم طريقا يدعى من سلكه : « السالك » ، من يعاهده الناس على طريقه يدعى « المسلك » وما يقطعه « الواصل » ، والسير فى الطريق يدعى عندهم « سفر ، أو حج » ، ولا بد لقطعه من « مقامات » هى : العهد والتوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضا . ولا بد للسالك من شيخ يهديه هذا طريق حتى يكون سعيه مشكورا .

ويعد الامام ابو حامد الغزالى ، الملقب بحجة الاسلام ، امام المتصوفة

---

(١٦٤) كانت رابعة العدوية عربية الأصل ومن اعيان عصرها ، مات ابوها وهى صغيرة وحدثت مجاعة بالبصرة فبيعت امة بسبب هذه المجاعة ، وتصوفت فى شبابها وظلت كذلك حتى وفاتها وهى كبيرة فى السن سنة ٢٣٥ هـ .

(١٦٥) كان اصله مجوسيا من فارس ثم اسلم ، عاش فى عهد الخليفة المقتدر العباسى (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) ، وبلغ من غلوه انه ادعى الألوهية .

المسلمين(١٦٦) . وجاء من بعده عدد من خيرة أئمة التصوف من امثال محيى الدين ابن عربى(١٦٧) ، ابن الفارض(١٦٨) ، الشعرانى(١٦٩) ، وجلال الدين الرومى(١٧٠) .

ولقد انحدر مفهوم التصوف كثيرا فى أواخر العصور الوسطى وفى العصر الحديث لما دخل عليه من شوائب وما انتظم فيه من اشكال فصار يعنى الاتكالية وحياة الاستكانة ولفظ العمل والعيش على ما يجود به اكف المحسنين. واتخذ المتصوفة الكثير من التكايا والزوايا وصاروا يقيمون الأذكار بصوت عال او منخفض ويعقدون الحفلات العامة ويدقون بالطبل والزمر ، الأمــر الذى أخرج التصوف عن معناه السامى الأول الذى قصد به رعيل الصــوفية الأول الأفاضـــل الأطهـــار .

---

(١٦٦) ولد بطوس سنة ٤٥٠ هـ ، وكان فى الأصل مدرسا فى المدرسة النظامية ببغداد ، سافر الى الحجاز وقرر الزهد ثم عرج على الشام وبقى به عشر سنوات معتكفا يتعبد ويدون علومه ومن ذلك كتابه الشهير « احياء علوم الدين » ، ثم رجع الى طوس وقد امتلأ قلبه علما وزهدا وورعا . وتوفى بها ســنة ٥٠٥ هـ .

(١٦٧) ولد محيى الدين بن عربى سنة ٥٦٠ هـ بمدينة مرسية من مدن الأندلس ، وتعلم فى اشبيلية ثم ارتحل الى المشرق حاجا ولم يعد بعدها الى الأندلس ، وأقام بالحجاز ومصر وبغداد . ومن اشهر كتبه التى حوت نظراته وافكاره التصوفية كتاب « الفتوحات المكية ».

(١٦٨) هو شرف الدين عمر الشهير بابن الفارض من أشهر متصوفة القرن السابع الهجرى (٥٧٦ — ٦٣٢ هـ) ولد فى القاهرة . كان شاعرا من أشهر شعره « التائية الكبرى » وهى المسماة بنظم السلوك وقد اودع فيها كل مبادئه الصوفية .

(١٦٩) كان متصوفا « متدروشا » (ومعنى درويش فى الفارســية : الفقير المســكين) .

(١٧٠) متصوف فارسى ، وهو صاحب كتاب « المثنوى » الذى وضع فيه منظومة صوفية فلسفية عظيمة تحتوى على ٢٥٧٠٠ بيتا ، وجلال الدين الرومى من اصل افغانى .

ب — علوم الطب والصيدلة

عرف العرب التطبيب فى أقدم عصور الجاهلية على طريقة البداوة فى مزج الطب بالكهانة ، وعلاج الأمراض بالوسائل البدائية . فكان لكل قبيلة عرافها الذى يستشار فى كل أمورها وعللها . وكان طب هؤلاء العرافين يخلط بين الرقى والتعاويذ ، وكانوا يستخدمون فى علاجهم الفصد والكى والحجامة وبعض العقاقير والأعشاب التى تنبت فى بلاد العرب أو تجلب من بلاد الهند والصين .

وتدل وصايا هؤلاء الأطباء على خبرة حسنة بصحة الأجساد ، قال الحارث بن كلدة طبيب العرب الشهير فى الجاهلية : « من سره البقاء ولا بقاء ، فليباكر فى الغذاء ، وليخفف الرداء ، وليقل غشيان النساء » . ولقد سأل معاوية بن أبى سفيان الحارث يوما قائلا : « ما الطب يا حارث ؟ » .

فقال : الازم يا ابن ابى سفيان (يعنى الجوع) » . وكان الحارث ينهى عن الاستحمام بعد الطعام ويوصى بالتخفف من الديون والهموم .

وكانت للعرب طريقة عملية فاحصة فى التماس الدواء لمن استعصى عليهم دواؤه ، وهو ان يخرجوا المريض الى الطريق الذى تمر به القوافل فيراه من اصيب بمثل مرضه فيصف له الدواء الذى شفاه .

ولقد ساعد اشتغال العرب بالرعى ان يراقبوا فى الحيوان عملية الحمل والولادة والنمو وما يتصل بها من الأطوار الحيوية ، وشرحوا اجساد البهائم عرفوا مواقع الاعضاء منها ، وعرفوا عمل هذه الاعضاء فى بقية الحيوان معرفة سليمة فاقتربوا بذلك من الاصابة فى تعليل المرض وفى وصف الدواء الذى يتم به الشفاء .

الطب فى صدر الاسلام :

وجاء الاسلام فقضى على الكهانة وفتح الباب للطب الطبيعى على مصراعيه لانه ابطل المداواة بالسحر والشعوذة ولم توجد طبقة جديدة للكهان تتولى العلاج باسم الدين ، بل ان رسول الله (ص) سمح باستشارة الأطباء

حتى ولو كانوا غير مسلمين . فقد طاب من الحارث بن كلدة ، ولم يكن على الاسلام ، معالجة سعد بن ابى وقاص حين مرض(١٧١) .

وقد كثر اشتغال المسيحيين واليهود بالطب فى ظل الدولة الاسلامية ونبغ الأطباء النصارى فى المشرق فى الوقت الذى كانت فيه الكنيسة الغربية تحرم صناعة الطب وتعتبر ان المرض عقاب من الله تعالى لا ينبغى للانسان أن يصرفه عمن استحقه . وظل الطب محجورا عليه فى اوربا حتى بداية القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) بعد ان اتصل الأوربيون بالحضارة الاسلامية .

واعتمد العرب فى طبهم ، منذ صدر الاسلام ، على التجربة والملاحظة فلم يعولوا كل التعويل على التزام النظريات وابتكار الجديد منها ، وتصرفوا فى العلاج فلم يتقيدوا برأى جالينوس فى علاج البرودة بالحرارة او الحرارة بالبرودة بل منهم من كان يعالج البرد بالبرد فى بعض الحالات .

وعرف العرب ايضا العلاج بالعوض ، كما يؤخذ من كلامهم ، عن خصائص اعضاء الحيوان ، ولقد ذكر الدميرى ، « صاحب كتاب الحيوان ، منافع رئة الثعلب وقال انها تداوى أمراض الصدر لأن هذا الحيوان لا يلهث اذا جرى ، ويذكر غير ذلك من خصائص اعضاء الحيوان » .

ولقد بنى المسلمون المستشفيات التى عرفت فى صدر الاسلام بالمارستان أو بالبيمارستان(١٧٢) منذ العهد الأموى . ويعد الخليفة الأموى

---

(١٧١) يروى عن سعد بن ابى وقاص أنه مرض بمكة فعاده رسول الله (ص) فقال : « ادعوا له الحارث بن كلدة فانه رجل يتطبب » فلما عاده الحارث نظر اليه وقال : « ليس عليه بأس اتخذوا له شيئا من عجوة وحلبة يطبخان » فاحتساها وبرىء (ابن ابى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ١٦١) .

(١٧٢) البيمارستان كلمة فارسية مركبة وهى : بيمار بمعنى مريض ، وستان بمعنى مكان أى مكان المريض .

الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ هـ) أول من بنى المارستان فى الاسلام وجعل فيه الأطباء واجرى عليهم الأرزاق ، وجعل فى هذا المارستان قسما لعـــلاج الجذام ، كذلك قسما لعلاج المجانين(١٧٣) .

وكانت للعرب طريقة لطيفة للتحقق من جودة الهواء وصلاح المـــوقع ابناء المستشفيات تغنى عن الأساليب العلمية الحديثة بعد كشف الجراثيم والاحاطة بوسائل التحليل ، فكانوا يعلقون اللحوم فى مواضع مختلفـــة من المدينة فى وقت واحد فأيها اسرع اليه العفن اجتنبوا مكانه واختاروا المكان الذى تتأخر فيه عوارض الفســـاد .

ولقد اشتغلت النساء المسلمات بالتمريض منذ عهد الرسول وخاصة فى اوقات الحروب ، ومن هؤلاء النسوة : ام المؤمنين السيدة عائشة ، ورفيدة الأنصارية وام عطية الأنصارية ، ونسيبة بنت كعب الأنصارية التى مرضت فى معركة احد وحاربت مع الرسول ودافعت عنه ، كذلك حاربت مسيلمة الكذاب فى حرب اليمامة وفقدت فى الحرب ذراعها . وكانت هؤلاء النسوة يمرضن فى معسكرات التمريض التى كانت فى مؤخرة جيش المقاتلين وينتقلن مـــع الجنود ويحملن ادواتهن على الجمال والبغال . ومن اشهر الأطباء فى صـــدر الاسلام : الحارث بن كلدة الثقفى(١٧٤) ، وابنة النضر بن الحارث(١٧٥) ، وابن ابى رمثة التميمى(١٧٦) .

---

(١٧٣) كانوا فى اوربا العصور الوسطى يحرقون المجذومين ، وكانوا يعالجون المجانين بالضرب المبـــرح .

(١٧٤) للحارث كتاب فى المحاورة فى الطب بينه وبين كسرى أنوشروان، توفى سنة ٣٣هـ .

(١٧٥) هو ابن خالة النبى ، تعلم مثل والده فى جنديســـابور . كان يناصر ابا سفيان ضد الرسول وكان من اشد الناس عداءا للرسول . اسر فى معركة بدر وامر الرسول بقتله لشدة ايذائه للمسلمين سنة ٢ هـ .

(١٧٦) كان طبيبا على عهد الرسول (ص) مزاولا لأعمال اليد وصناعة الجراحة (عيون الأنباء ، ص١٦٩ ، ١٧٠) .

أطباء الأمويين :

من أطباء الأمويين عبد الملك بن ابجر الكنانى ، ابن اثال ، ابو الحكم ، حكم الدمشقى ، عيسى بن حكم ، ماسرجويه السريانى ، وتياذوق(١٧٧) .

الطب فى العصر العباسى :

ارتقى الطب فى ذلك العصر رقيا واضحا بسبب اهتمام خلفاء هـذه الدولة بالطب وبسبب حاجتهم له . وقد جاء هذا الاهتمام عند بعض خلفاء العباسيين نتيجة الاهتمام العام بالحركة العلمية عمـوما فى ذلـك العصر والاهتمام بحركة النقل والترجمة ، وعند البعض الآخـر نتيجـة مرضـهم واستقدامهم الأطباء لعلاجهم وللاشراف على مارستانات الدولة .

وكان أول خلفاء العباسيين اهتماما بالطب ، الخليفة ابو جعفر المنصور وذلك بسبب مرض معدته المزمن ورغبته الزائدة فى الطعام الأمر الـذى زاد اجهاد هذه المعدة ، ولذلك ظل هذا الخليفة ممعودا وكان يلتمس الدواء من اى طبيب نابه يسمع عنه ، فكان لذلك يقرب الأطباء اليه ويجذل لهم العطاء برغم ما عرف عنه من شح . ولقد بنى المنصور بيمارستانا للعميان ومأوى للمجاذيب فى بغـــداد .

كذلك اهتم الرشيد بالطب وأسس فى بغداد بيمارستانا كبيرا لتعليم الطب وللعلاج والحق به مكتبة كبيرة . ولقد خرجت هذه المدرسة عددا كبيرا من الأطباء ، ويفهم من زيادة عددهم أن الخليفة المقتدر بالله عقد امتحـانا لتسعمائة طبيب لاجازتهم بممارسة الطب فى بغداد .

ولقد اشتهر فى الدولة العباسية عدد من الأطباء النسـاطرة(١٧٨) السريان مثل بيت بختبشوع ، وآل ماسويه ، وآل اسحق ، وعدد من أطباء

---

(١٧٧) طبقات الأطباء ، ص ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٨١ .

(١٧٨) النساطرة هم جماعة من المسيحيين كانت تعتقد فى الطبيعـة البشرية للمسيح ، وسموا بذلك الاسم نسبة الى زعيمهم الأسقف نسطوريوس بطريق القسطنطينية الذى قتل سنة٤٣١ م بعد اتهامه بالهرطقة . وقد أقام اتباعه النساطرة فى مدينة جنديسابور فى فارس ودرسوا فى مدرسـتها الشـهيرة .

الصابئة من امثال بيت بنى قرة ، اعتمدنا اخبارهم من كتــاب طبقـــات الأطباء(١٧٩) .

أ — آل بختيشوع (١٨٠) :

وهم ستة أجيال : جورجيوس بن جبرائيل ، بختيشوع بن جورجيوس جبرائيل بن بختيشوع ، بختيشوع بن جبرائيل ، يوحنا بن بختيشـــوع ، بختيشوع بن يوحنا .

١ — جورجيوس بن جبرائيل :

قال عنه صاحب كتاب طبقات الأطباء(١٨١) : كانت له خبرة بالطب ومعرفة بالمداواة وانواع العلاج وخدم بصناعة الطب الخليفة المنصور ، وكان حظيا عنده رفيع المنزلة ونال من جهته أموالا جزيلة ، وقد نقل للمنصـــور كتبا كثيرة من كتب اليونانيين الى العربية .

قال فثيون الترجمان : ان أول ما استدعى ابو جعفر المنصور لجورجيس هو أن المنصور فى سنة مائة ثمان واربعين سنة للهجرة مرض وفسدت معدته وانقطعت شهوته وكلما عالجه الأطباء ازداد مرضه فتقدم الى الربيع (هــو الربيع وزيره وكاتم سره) بأن يجمع الأطباء لمشاورته فجمعهم فقال لهــم المنصور : من تعرفون من الأطباء فى سائر المدن طبيبا ماهرا ؟ فقالوا : ليس فى وقتنا هذا احد يشبه جورجيس رئيس اطباء جنديسابور فانه ماهـــر فى الطب وله مصنفات جليلة فانفذ المنصور فى الوقت من يحضره ، فخرج بعـــد أن اوصى ابنه بختيشوع بأمر البيمارستان واخذ معه تلميذه ابراهيم وتلميذه سرجس . ولما وصل جورجيس الى الحضرة امر المنصور بايصاله اليه ، ولما وصل اليه دعا له بالفارسية والعربية فتعجب الخليفة من حسن منظره ومنطقه

---

(١٧٩) هو كتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » لابن أبى اصيبعة الطبيب واشهر من ارخ للطب الاسلامى .

(١٨٠) بختيشوع اسم سريانى يتكون من مقطعين : بخث بمعنى عبد ، ويشوع وهو يسوع المسيح فيكون الاسم بذلك عبد المسيح .

(١٨١) ابن أبى اصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

فأجلسه أمامه وسأله عن اشياء فأجابه عنها بسكون فقال له : قد ظفرت منك بما كنت احبه واشتاقه ، وحدثه بعلته وكيف كان ابتداؤها ، فقال له جورجيس انا ادبرك كما تحب . فأمر الخليفة له فى الوقت بخلعة جليلة وقال للربيع : انزله فى منزل جليل من دورنا واكرمه كما تكرم اخص الأهل . ولما كان من الغد دخل اليه ونظر الى نبضه والى قارورة الماء ، ووافقه على تخفيف الغذاء ، ودبره تدبيرا لطيفا حتى رجع الى مزاجه الأول وفرح به الخليفة فرحا شديدا وأمر ان يجاب الى كل ما يسأل(١٨٢) .

وفى سنة ١٥٢ هـ مرض جورجيوس مرضا شديدا فاستأذن الخليفة فى الذهاب الى بلدته جنديسابور كى يموت ويدفن فيها ، فأذن له الخليفة بعد أن وعده جورجيوس بارسال تلميذه ابراهيم اليه . وبالفعل ارسل ابراهيم الى الخليفة وظل فى خدمته حتى وفاة المنصور . ولجورجيوس من الكتب الطبية المشهورة كتابه « كناش » الذى نقله حنين بن اسحق من السريانية الى العربية .

٢ — بختيشوع بن جورجيوس :

تعلم بختيشوع على يد أبيه صناعة الطب وورث منه حذقه لها ومزاولة اعمالها ، وقد جاء بختيشوع لعلاج الرشيد من جنديسابور ، وكانت له الحظوة ايامه . قال فيثون(١٨٣) « فى سنة ١٧١ هـ مرض هارون الرشيد من صداع لحقه فأمر يحيى بن خالد البرمكى باستحضار بختيشوع بن جورجيوس لما يئس الأطباء من علاجه ، فوصل بختيشوع الى الرشيد وقربه اليه وخلع عليه خلعة جليلة ووهب له مالا وافرا ، وأمر الرشيد بأن يكون بختيشوع رئيس كل الأطباء وامر بأن يسمع جميع الاطباء له ويطيعوا . ولبختيشوع كتاب جليل فى الطب هو كتاب « مختصر الكناش » ، وكذلك كتاب « التذكرة » الذى الفه لابنه جبرائيل .

---

(١٨٢) طبقات الأطباء ، ص ١٨٤ .

(١٨٣) نفس المصدر السابق ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

٣ — جبرائيل بن بختيشوع :

كان مشهورا بالفضل ، جيد التصرف فى المداواة ، عالى الهمة ، حظيا عند الخلفاء ، رفيع المنزلة عندهم ، كثيرى الاحسان اليه . حصل من جهتهم من الأموال ما لم يحصله غيره من الأطباء .

قال فيثون الترجمان(١٨٤) : « لما كانت سنة خمس وسبعين ومائة مرض جعفر ابن يحيى بن خالد بن برمك فتقدم الرشيد الى بختيشوع ان يتولى خدمته ومعالجته » . ولما كان فى بعض الأيام قال له جعفر : اريد ان تختار لى طبيبا ماهرا اكرمه واحسن اليه ، قال له بختيشوع : ابنى جبرائيل امهر منى وليس فى الأطباء من يشاكله ، فقال له : احضرنيه ، ولما احضره عالجه فى مدة ثلاثة ايام وبرأ فأحبه جعفر مثل نفسه ، وكان لا يصبر عنه ساعة ومعه يأكل ويشرب . وفى تلك الأيام تمطت (اصيبت بشلل جزئى) حظية الرشيد ورفعت يدها فبقيت منبسطة . فقال الرشيد لجعفر بن يحيى . قد بقيت هذه الصبية بعلتها ، فقال له جعفر : لى طبيب ماهر وهو ابن بختيشوع فدعوه فخاطبه فى معنى هذا المرض فلعل عنده حيلة فى علاجه ، فأمر باحضاره ، ولما حضر قال له الرشيد : ما اسمك ؟ قال : جبرائيل ، قال له : اى شىء تعرف من الطب ؟ فقال : ابرد الحار واسخن البارد وارطب اليابس وايبس الرطب الخارج عن الطبع . فضحك الخليفة وقال : هذا نهاية ما يحتاج اليه فى صناعة الطب ، ثم شرح له حال الصبية ، فقال له جبرائيل : ان لم يسخط على أمير المؤمنين فلها عندى حيلة ، فقال له : ما هى ؟ قال : تخرج الجارية الى ههنا بحضرة الجمع حتى اعمل ما اريده وتمهل على ولا تعجل بالسخط فأمر الرشيد باحضار الجارية فخرجت ، وحين رآها جبرائيل عدا اليها ونكس راسه ومسك ذيلها كأنه يريد ان يكشفها فانزعجت الجارية ومن شدة الحياء والانزعاج استرسلت اعضاؤها وبسطت يدها الى اسفل ومسكت ذيلها ، فقال جبرائيل : قد برئت يا أمير المؤمنين ، فقال الرشيد للجارية : ابسطى يدك يمنة ويسرة ففعلت ذلك وعجب الرشيد وكل من كان بين يديه . وأمر الرشيد فى الوقت لجبرائيل بخمسمائة الف درهم ، واحبه مثل نفسه وجعله رئيسا على جميع الأطباء . ولما سئل جبرائيل عن سبب العلة قال : هذه

---

(١٨٤) طبقات الأطباء ، ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

الجارية انصب الى اعضائها وقت المجامعة خلط رقيق بالحركة وانتشار الحرارة ولأجل ان سكون حركة الجماع تكون بغتة جمدت العضلة فى بطون جميع الأعصاب وما كان يحلها الا حركة مثلها فاحتلت حتى انبسطت حرارتها وانحلت العضلة .

قال فيثون : وكان محل جبرائيل يقوى فى وقت حتى ان الرشيد قال لأصحابه : كل من كانت له الى حاجة فايخاطب بها جبرائيل لأنى أفعل كل ما يسألنى فيه ويطلبه منى . « فكان القواد يقصدونه فى كل امورهم وحاله تتزايد ، ومنذ يوم خدم الرشيد والى أن انقضت خمس عشرة سنة لم يمرض الرشيد فزادت بذاك حظوته عنده » .

وفى آخر أيام الرشيد عند حصوله مدينة طوس مرض الرشيد المرض الذى مات بسببه ، ولما اشتد عليه المرض سأل جبرائيل قائلا : لم لا تبرؤنى ؟ فقال له : قد كنت أنهاك دائما عن التخليط واقول لك قديما ان تخفف الجماع فلا تسمع منى ، والآن سألتك أن ترجع الى بلدك فانه اوفق لمزاجك فلم تقبل وهذا مرض شديد وارجو ان يمن الله عليك بالعافية . فلم يعجب كلامه الرشيد وأمره بحبسه(١٨٥) . وقيل للرشيد ان بفارس اسقفا يفهم الطب فوجه من يحضره اليه ، ولما حضر الأسقف ورآه قال له : الذى عالجك لم يكن يفهم الطب ، فزاد ذلك من غضبه على جبرائيل . وكان الفضل بن الربيع وزير الرشيد ، يحب جبرائيل ورأى ان الأسقف كذاب يريد اقامة السوق لنفسه ، فأحسن فيما بينه وبين جبرائيل ، وظل الأسقف يعالج الرشيد ومرضه يزداد وهو يقول له بأنه قريب من الصحة ، ورسخ فى ذهنه ان كل ما الم به من مرض هو من خطأ جبرائيل . فأمر الرشيد بقتل جبرائيل ، ولم يقبل منه الفضل ابن الربيع ذلك ولم ينفذه لأنه كان قد يئس من حياة الرشيد فاستبقى جبرائيل، وبعد أيام يسيرة مات الرشيد . ولحق الفضل بن الربيع فى تلك الأيام قولنج صعب (مرض فى القولون) أيس الأطباء منه فعالجه جبرائيل بألطف علاج واحسنه فبرأ الفضل وازدادت محبته له واعجابه به . وتقدمت مكانة جبرائيل فى عهد الأمين ، ثم من بعده فى عهد اخيه المأمون . ولقد حدث ان مرض

---

(١٨٥) طبقات الأطباء ، ص ١٨٩ .

مرضا شديدا ويئس الأطباء من علاجه فأفلح هو فى علاجه خلال ثلاثة ايام فسر به المأمون سرورا عظيما وامر له بمليون درهم وبألف كرحنطة(١٨٦) .

قال فيثون الترجمان : ولما عزم المأمون على الخروج الى بلد الروم فى سنة ٢١٣ هـ مرض جبرائيل مرضا شديدا ، فلما رآه المأمون ضعيفا التمس منه انفاذ بختيشوع ابنه معه الى بلد الروم فأحضره وكان مثل ابيه فى الفهم والعقل والفضل وطال مرض جبرائيل الى ان مات سنة ٢١٥ هـ ودفن فى دير مارسرجس بالمدائن(١٨٧) . ولقد كانت مدة خدمة جبرائيل للرشيد ٢٣ سنة ، وخدمته للبرامكة ١٣ سنة ، وخدمته للامين والمأمون عشر سنوات .

ولجبرائيل من الكتب : رسالة الى المأمون فى المطعم والمشرب ، كتاب المدخل الى صناعة المنطق ، كتاب فى الباه ، رسالة مختصرة فى الطب ، كناش جبرائيل ، وكتاب فى صنعة البخور الفه للمأمون .

٤ — بختيشوع بن جبرائيل :

بلغ بختيشوع المكانة الطبية الممتازة فى عهد الخليفة المتوكل على الله ، وكان من شدة ترفه انه قلد الخليفة فى اللباس والفرش ، وكان عظيم المنزلة عند المتوكل . وتعرض بسبب منافسته للخليفة فى المظهر لنكب الخليفة له مرتين ، ولكنه فى كل مرة كان يعيده بعدها الى مكانته لسبب حاجته اليه فى العلاج . وكانت نفس المكانة له عند الخليفة المستعين والخليفة المهتدى . وليختيشوع كتب فى الطب اهمها كتاب فى الحجامة على طريق المسألة والجواب(١٨٨) .

٥ — يوحنا بن بختيشوع :

كان طبيبا متميزا خبيرا باللغة اليونانية اضافة الى السريانية ، قام بنقل كتب كثيرة من اليونانية الى السريانية ، وخدم بصناعة الطب الخليفة

---

(١٨٦) الكر : مكيال يساوى ٦ أوسقة ، والوسق هو ما يوازى حمل حمار .

(١٨٧) جنوبى بغداد بـ ٣٠ كم .

(١٨٨) طبقات الأطباء ، ص ٢٠١ .

الموفق بالله طلحة بن المتوكل ، وكان يعتمد عليه كثيرا ولذلك اسماه « مفرج كربى »(١٨٩) .

٦ — بختيشوع بن يوحنا :

اختص بخدمة الخليفة المقتدر بالله العباسى (وهو الخليفة العباسى الثامن عشر) ، وكان له مع المقتدر الانعام الكثير والاقطاعات والضياع . وخدم بعده الخليفة الراضى بالله الذى اكرمه وحفظ له مكانته التى كانت له فى عهد والده .

توفى بختيشوع فى بغداد سنة ٣٢٩ هـ ، وكان آخر اجيال هذا البيت العظيم فى مجال الطبّ والعلاج والنقل(١٩٠) .

ب — آل ماسويه :

١ — ماسويه بن يوحنا :

وهو راس البيت الثانى من بيوت الأطباء السريان النساطرة الذين ظهروا فى الدولة العباسية وخدموا فى مجال الطب خلفائها . وكان ماسويه طبيبا يعمل فى بيمارستان جنديسابور ، كان عارفا بالأمراض وعلاجها خبيرا فى انتقاء الأدوية . اخذه جبرائيل بن بختيشوع معه الى بغداد واحسن اليه وزوجه جارية رزق منها بابنه يوحنا . وكان ماسويه قد تفوق فى صنعة التكحيل (أمراض العيون) ، ولما مرضت عينا الرشيد قام بمعالجته ، فالزمه الرشيد الخدمة مع جبرائيل ، وصار نظيرا لجبرائيل فى المكانة عند الخليفة . واعتنى الرشيد بيوحنا بن ماسويه ووسع النفقة عليه واكرمه مثل اكرامه لوالده .

٢ — أبو زكريا يوحنا بن ماسويه :

قلد الرشيد يوحنا ترجمة الكتب القديمة مما وجد بمدن انقره وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون وعينه امينا على نقل هذه الكتب وترجمتها .

---

(١٨٩) نفس المصدر السابق ، ص ٢٧٦ .
(١٩٠) طبقات الأطباء ، ص ٢٧٧ .

وطالت خدمة يوحنا للخلفاء فخدم الرشيد والأمين والمأمون وبقى على ذلك الى ايام المتوكل . وكان هؤلاء الخلفاء لا يتناولون طعاما ولا شرابا الا بحضرته . وكانت وفاة يوحنا سنة ٢٤٣ هـ بسامرا فى عهد خلافة المتوكل(١٩١) وكان من اهم تلاميذه الذين ورثوا علمه حنين بن اسحق .

ولقد ترك يوحنا كثيرا من الكتب الطبية اهمها : كتاب البرهان ، كتاب البصيرة ، كتاب الكمال والتمام ، كتاب الحميات ، كتاب فى الأغذية ، كتاب فى الأشربة ، كتاب المنجح فى الصفات والعلاجات ، كتاب فى الفصد والحجامة ، وكتاب فى الجذام ، كتاب فى تركيب الأدوية المسهلة واصلاحها ، كتاب فى رفع مضار الأغذية ، كتاب السموم وعلاجها ، كتاب فى الصداع ، كتاب الصدر والدوار ، كتاب محنة الطبيب ، كتاب وغل العين ، كتاب علاج النساء اللواتى لا يحبلن حتى يحبلن ، كتاب الجنين ، كتاب المعدة ، كتاب القولنج ، كتاب التشريح ، كتاب تركيب خلق الانسان ، كتاب الماليخوليا ، كتاب جامع الطب ، وكتاب الأقرباذين .

٣ — ميخائيل بن ماسويه :

هو اخو يوحنا بن ماسويه ، كان طبيبا للمأمون احبه المأمون واعجب به وكان مقدما عنده ، وكان لا يشرب من الادوية الا مما تولى تركيبه واصلاحه له . وكان اطباء بغداد يبجاونه تبجيلا لم يكونوا يظهرونه لغيره(١٩٢) .

جـ — آل حنين بن اسحق :

وهو البيت الثالث من بيوت الأطباء المسيحيين النساطرة السريان الذين خدموا البلاط الخلافى وهو يتكون من :

١ — حنين بن اسحق :

هو ابو زيد حنين بن اسحق العبادى(١٩٣) ، كان فصيحا لسنا بارعا

---

(١٩١) نفس المصدر السابق ، ص ٢٤٦ — ٢٥٥ .

(١٩٢) طبقات الأطباء ، ص ٢٥٥ .

(١٩٣) العباد : قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية بالحيرة .

شاعرا واقام مدة بالبصرة ، وكان شيخه فى العربية الخليل بن احمد(١٩٤) ثم انتقل بعد ذلك الى بغداد واشتغل بصناعة الطب . وقد لازم حنين استاذه يوحنا بن ماسويه وتتلمذ له وتعلم منه صناعة الطب . ونقل حنين لابن ماسويه كتبا كثيرة وخصوصا من كتب جالينوس ، بعضها الى اللغة السريانية وبعضها الآخر الى العربية . وكان حنين اعلم اهل زمانه باللغة اليونانية والسريانية والفارسية والدراية فيهم مع اتقانه العربية وتميزه فيها . واقد عهد المأمون الى حنين بنقل كتب الحكماء اليونان الى اللغة العربية وبذل له من الأموال والعطايا شيئا كثيرا ، وكان المترجم الرسمى للمأمون والمتوكل وطبيبهما الخاص ، ولقد عرب لهما نحو مائتى مؤلف . ومما يحكى عنه ان المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى العربية مثلا بمثل . وقد سافر حنين الى بلاد كثيرة ووصل الى اقصى بلاد الروم لطلب الكتب التى قصد نقلها . وكان دقيقا فى ترجمته واعيا ، وهو الذى أوضح معانى كتب ابقراط وجالينوس ولخصها احسن تلخيص وكشف غموضها . وكان حنين ماهرا فى طب العيون وله تصانيف مشهورة فيه . وقد خدم حنين بالطب الخليفة المتوكل وحظى فى أيامه ، وعاش سبعون عاما ، وتوفى سنة ٢٦٤ هـ زمن الخليفة المعتمد .

ولحنين بن اسحق من الكتب : كتاب المسائل ، كتاب مقالات فى العين ، كتاب الترياق ، اختصار كتاب جالينوس فى الأدوية المفردة ، جوامع كتب جالينوس ، كتاب فى النبض ، كتاب فى الحميات ، كتاب فى البول ، مقالة فى تكون الجنين ، كتاب البيطرة ، كتاب فى حفظ الأسنان وغيرها(١٩٥) .

٢ — اسحق بن حنين :

كان يلحق بأبيه فى النقل وفى معرفته باللغات وفصاحته فيها . خدم اسحق من خدمهم أبوه من الخلفاء والرؤساء ، ومرض فى اواخر ايامه بالفالج (نوع من الشلل) ومات به ببغداد سنة ٢٩٨ هـ فى عهد خلافة المقتدر بالله(١٩٦) ولاسحق من الكتب : كتاب الأدوية المفردة ، ابتداء صناعة الطب،

---

(١٩٤) أحمد امين : ضحى الاسلام ، جـ ١ ، ص ٢٩٨ .
(١٩٥) طبقات الأطباء ، ص ٢٥٧ — ٢٦٣ .
(١٩٦) نفس المصدر السابق ، ص ٢٧٤ .

اصلاح الأدوية المسهلة ، مقالة فى الأشياء التى تفيد الصحة والحفظ ، وكتاب صنعة العلاج وغيرها .

د — بنو قرة الصابئون :

ينتسب هذا البيت الى رأسهم ثابت بن قرة الصابىء الحرانى المنسوبين الى مدينة حران والمعتنقين لديانة الصابئة ، عبدة النجوم ، وهم :

١ — ثابت بن قـــرة :

ولد فى حران سنة ٢٢١ هـ ، وتوفى ببغداد سنة ٢٨٨ هـ . لم يـــكن فى زمانه من يماثله فى صناعة الطب ولا فى صناعة التنجيم ، فقد كان طبيب ومنجم الخليفة العباسى المعتضد ، وكان أيضا فيلسوفا وله تصانيف اشتهرت بالجودة ، وكان قوى المعرفة باللغة السريانية . وكان بنو موسى بن شاكر الذين رعاهم المأمون هم سبب توصيل ثابت الى الخليفة المعتضد .

ولابن قرة نصائح طبية هامة منها قوله : « ليس على الشيخ أضر من ان يكون له طباخ حاذق وجارية حسناء لأنه يستكثر من الطعام فيسقم ومن الجماع فيهرم » . وقال : « راحة الجسم فى قلة الطعام ، وراحة النفس فى قلة الآثام ، وراحة القلب فى قلة الاهتمام ، وراحة اللسان فى قلة الكلام » .

ولثابت بن قرة كتب كثيرة فى مختلف الفنون ، ومن كتبه الطبية : جوامع كتب جالينوس ، كتاب فى الحصى المتولدة فى الكلى والمثانة ، رســـالة فى الجدرى والحصبة ، وكتاب فى تدبير الصحة .

٢ — أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة :

كان سنان يلحق بأبيه فى معرفته بالعلوم واشتغاله بها ومهـــارته فى صناعة الطب ، خدم الخلفاء المقتدر ، القاهر ، والراضى . وتقلد رئاســـة البيمارستانات فى بغداد وغيرها فى عهد وزارة على بن عيسى بن الجراح وزير الخليفة المقتدر بالله . كذلك أشرف على البيمارستان المقتدرى الـــذى بناه الخليفة المقتدر بالشام . وكان لا يجاز لطبيب بالعمل فى هذا البيمارستان الا من امتحنه سنان وأجاز له التطبيب وكتب له رقعة بخطة بما يطلق له من الصناعة . وكان سنان يقوم بامتحان هؤلاء الأطباء ، وقد بلغ عددهم فى جانب

بغداد ٨٦٠ رجلا غير من استغنى عن الامتحان بشهرته بالتقدم فى صناعته وسوى من كان فى خدمة الخليفة . وتوفى سنان فى بغداد سنة ٣٣١ هـ ، وله كتب متعددة فى الطب اهمها : كتاب رسائل فى الطب(١٩٧) .

٣ — ابو الحسن ثابت بن سنان :

كان طبيبا فاضلا التحق بأبيه فى صناعة الطب من أيام الخليفة المقتدر حتى ايام الخليفة المطيع ، فخدم بذلك المقتدر ، المتقى ، المستكفى ، والمطيع . وتقلد فى سنة ٣١٢ هـ رئاسة البيمارستان الذى بناه الوزير ابن الفـــرات بدرب المفضل . وقيل انه اعتنق الاسلام ، وكانت وفاته سنة ٣٦٣ هـ (١٩٨) .

٤ — ابراهيم بن سنان بن ثابت :

ورث الطب عن والده ونبغ فيه ، وخدم مع والده الخلفاء وتوفى فى عهد رياسة والده وهو دون الأربعين فى سنة ٣٣٥ هـ(١٩٩) .

والى جانب الأطباء السريان المسيحيين والصابئة اشـــتهر فى الدولة العباسية عدد وافر من اطباء المسلمين ، لم يكونوا بأقل مكانة ولا موهبة من الأطباء المسيحيين . وسنكتفى فى هذا المقام بذكر اشهر هؤلاء الأطباء الذين ما زالت شهرتهم باقية حتى الآن ، وما زالت بصماتهم واضحة فى تاريخ الطب حتى اليوم ، ويأتى فى مقدمة هؤلاء :

١ — أبو بكر محمد بن زكريا الرازى :

ولد الرازى ونشأ بمدينة الرى (بالقرب من طهران) ، واقام بهـــا مدة وسافر الى بغداد وهو فى الثلاثين من عمره . وكان من صغره مشتهيا للعلوم العقلية مشتغلا بها فضلا عن شغفه بالأدب واجادته الشعر ، اما صـــناعة الطب فقد تعلمها وقد كبر .

كان الرازى يعرف بجالينوس العرب(٢٠٠) ، وهو الذى اختار موضع

---

(١٩٧) طبقات الأطباء ، ص ٣٠٠ — ٣٠٧ .

(١٩٨) احمد امين : ضحى الاسلام ، جـ ١ ، ص ٢٧٢ .

(١٩٩) طبقات الأطباء ، ص ٣٠٧ .

(٢٠٠) جالينوس وابقراط من اشهر اطباء اليونان ، توفى جالينوس سنة ٢٠٠ ق.م اما ابقراط فتوفى سنة ٣٧٧ ق.م .

بناء المارستان العضدى (الذى بناه عضد الدولة بن بويه) ، والذى أشرف عليه بعد اكتمال بنائه . وكان قبل ذلك متوليا لتدبير مارستان الرى زمانا(٢٠١) وقد اختير لرئاسة هذا المارستان من بين مائة طبيب . وكان الرازى ذكيـا فطنا رحيما بالمرضى مجتهدا فى علاجهم وفى برئهم بكل وجه يقدر عليه ، مواظبا للنظر فى غوامض صناعة الطب والكشف عن حقائقها وأسرارها ، كذلك فى غيرها من العلوم بحيث انه لم يكن له داب ولا عناية فى جل اوقاته الا فى الاجتهاد والتطلع فيما قد دونه الأفاضل من العلماء فى كتبهم . وكان الرازى معاصرا لاسحق بن حنين ومن كان معه فى ذاك الوقت . ولقد أصيب الرازى بالعمى فى آخر عمره بماء نزل فى عينيه ولم يرض علاجهما بقوله : « لا ، قد نظرت من الدنيا حتى مللت » وقيل انه توفى سنة ٢٩٠ هـ أو سنة ثلثمائة .

وللرازى كتب كثيرة شهيرة فى الطب اهمها :

كتـــاب الحـــاوى :

وهو اجل كتبه واعظمها فى صناعة الطب ، ويقع فى ٢٤ جزءا ، وجمع فيه كل ما وجده متفرقا فى ذكر الأمراض ومداواتها من سائر الكتب الطبية للمتقدمين ومن اتى بعدهم الى زمانه ، ونسب كل شىء نقله فيه الى قائله . وقد نقل هذا الكتاب الى اللاتينية ، نقله فرج بن سالم اليهودى بأمر من شارل أنجو ملك نابلى وصقلية .

كتاب المنصورى فى الطب :

الفه للامير منصور بن اسماعيل بن خاقان صاحب خراسان وتحرى فيه الاختصار والايجاز مع جمعه لجمل وجوامع ونكت وعيون من صـــناعة الطب علمها وعملها وهو عشر مقالات ، قد ترجم هذا الكتاب أيضا الى اللاتينية .

كتـــاب المـــلوكى :

صنفه لعلى ابن صاحب طبرستان ، وكتاب الطب الروحانى (ويعرف أيضا بطب النفوس) وهو عشرون فصلا ، كتاب فى علل المفاصل والنقرس وعرق النسا ، وهو اثنان وعشرون فصلا ، كتاب الجامع ، كتاب المدخل ،

---

(٢٠١) ابن أبى اصيبعة : طبقات الأطباء ، ص ٤١٤ — ٤٢١ .

كتاب الكافى ، كتاب الفاخر ، كتاب الى من لا يحضره طبيب ، ويعرف ايضا بكتاب طب الفقراء ، وكتاب فى الفالج(٢٠٢) .

ولقد اجاد الرازى اجادة واضحة فى تشخيص الحميات ذات البثور كالجدرى والحصبة ووصف الدواء لهما ، كذلك يعزى الى الرازى اكتشاف الكحول وحامض الكبريتيك .

٢ — على بن العباس :

هو على بن العباس المجوسى ،كان فارسيا مجوسيا اعتنق الاسلام ،وكان معاصرا للرازى وفى مثل اجادته للطب ، لكن شهرة الرازى غطت عليه . عاش على بن العباس طبيبا فى بلاط بنى بويه زمنا ، ووضع مؤلفا من عشرين جزءا اسماه الكتاب الملكى ، أو الكامل فى صناعة الطب ، وهو المؤلف الذى ترجمه قسطنطين الاغريقى الى اللاتينية دون ذكر مؤلفه الأصلى ، وقد ترجمه بعد ذلك أيضا اصطفن الانطاكى . ولقد نوه على بن العباس فى كتابه هذا الى الدورة الدموية .

٣ — الشيخ الرئيس ابن سينا :

أوردنا سيرة وحياة ابن سينا عند حديثنا عن فلاسفة المسلمين(٢٠٣) ، وكان ابن سينا طبيبا الى جانب كونه فيلسوفا وعالما ، وقد درس الطب وحذقه فى مدة يسيرة وهو فى سن السادسة عشرة من عمره . وكان سلطان بخارى فى ذلك الوقت نوح بن منصور السامانى قد مرض وعاده الأطباء ولم يفلح علاجهم فأحضر له ابن سينا ونجح فى علاجه . وقد سمح الأمير نوح لابن سينا بالاطلاع على مكتبته الهائلة وقرأ فيها ما لم يقرأه احد من قبله . وانتقل ابن سينا الى الرى لمعالجة مجد الدولة ثم خرج الى قزوين ومنها الى همدان ، وقام بعلاج شمس الدولة من قولنج كان قد أصابه وعالجه حتى شفاه وفاز منه بخلع كثيرة وصار بذلك من ندماء الأمير . وتقلد ابن سينا رئاسة الوزارة للسامانيين للامير شمس الدولة أمير ولاية همذان ولذلك عرف باسم الشيخ الرئيس ، ثم خدم بعد ذلك الأمير علاء الدين فى اصفهان .

---

(٢٠٢) ابن ابى اصيبعة : نفس المصدر السابق ، ص ٤٢٣ .
(٢٠٣) أنظر ما سبق .



ابـن سـيـنا

وكان ابن سينا منهمكا فى لذاته وشهواته طوال عمره مما أثـر فى صحته ومرض بقولنج عرض له كانت فيه نهايته ، وكانت وفاته فى همـدان سنة ٤٢٨ هـ ، وكان يبلغ من العمر ثلاثا وخمسين سنة . وقد دفن فى همدان وقيل ان رفاته نقل فدفن فى أصفهان . وكان ابن سينا ، قبل ان يموت ، قد قام بتوزيع ممتلكاته على الفقراء واعتق عبيده وواظب على فرائض دينه(٢٠٤) .

واشتهر ابن سينا بالعلاج النفسى ، ويروى انه دعى لعلاج شاب مريض لم يهتد الأطباء الى علته ، فأمر باستدعاء رجل من عرفاء المدينة وتناول يـد الفتى بجس نبضه ويرقب وجهه ، وطلب من العريف ان يسرد اسماء الاحياء فى المدينة فسردها حيا حيا حتى جاء ذكر حى منها فازداد نبض الفتى ، ثم سأله أن يذكر بيوت ذلك الحى الذى ازداد نبض الفتى عند ذكره ، فذكرها بيتا بيتا فازداد نبض الفتى عند ذكر بيت منها ، فسأله عمن فى البيت من الفتيات فاشتد نبضه عند اسم واحدة منها ، فقال لأهل الفتى : زوجوه تلك الفتاة فهى له الدواء . وهناك بعض المؤرخين يرون ان ابن سينا هو أول طبيب قام بحقن العلاج بالابر تحت الجلد ، وانه اول من استخدم التخدير لاجـراء العمليات الجراحية من الشيلم أو الزوان .

ولقد الف ابن سينا ٢٧٦ مؤلفا ورسالة مختلفة منها ١٦ مؤلف فى الطب ، نذكر اهمها وهى :

القـــانون :

وهو يقع فى اربع عشرة مجلد ، ترجمه جيراردى كريمون الى اللاتينية فى طليطلة ، وطبع لأول مرة بالعبرية فى نابولى سنة ١٤٩١ ، وطبع بعـد ذلك باللاتينية خمس عشر مرة ، وكان مقررا فى جامعة لوفان ببلجيكا حتى القرن السابع عشر . ولقد ذكر السمرقندى هذا الكتاب بقوله ما نصه : « ان كل ما يحيط علما بما فى المجلد الأول من القانون لا يخفى عليه شىء من أصول علم الطب وكلياته ، ولو بعث ابقراط وجالينوس الى الحياة لحق لهمـا ان

---

(٢٠٤) طبقات الأطباء ، ص ٤٤٤ .

يسجدا لهذا الكتاب » ، كتاب الشفاء ، وهو يقع فى ثمان عشرة مجــلد ، وقد ترجم الى اللاتينية وضاع اصله العربى ، القولنج ، والأدوية القلبية(٢٠٥)

من أطباء مصر والشـــام :

ظهر فى مصر والشام عدد من الأطباء الذين احرزوا الشهرة فى العالم الاسلامى ، مسلمين وغير مسلمين ، نذكر منهم على سبيل المثال :

١ — ابن النفيس :

ولد ابن النفيس سنة ٦٠٧ هـ وتوفى ٦٨٧ هـ وهو من مواليد دمشـــق لكنه استقر فى القاهرة كمدير المارستان المنصورى الذى انشاه السلطان المنصور بن قلاوون ، وكان طبيبا ماهرا وفيلسوفا عظيما وعالما جليلا ولذلك عرف باسم ابن سينا الثانى ، وكان ابن النفيس معاصرا للطبيب المؤرخ ابن ابى اصيبعة صاحب كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء الذى استقينا منـــه معظم مادتنا عن الطب عند المسلمين ، وكان ابن ابى اصيبعة رئيس قســـم الرمد فى المستشفى المنصورى الذى كان ابن النفيس مديرا له .

ولقد ترك لنا ابن النفيس مؤلفات كثيرة فى فنون كثيرة ، وكان أهم هذه المؤلفـــات فى الطب :

كتـــاب المـــــوجز :

الذى يعد ملحقا لقانون ابن سينا ومكملا له ، شرح فيه القانون ووصف فيه لأول مرة الدورة الدموية الرئوية وصفا دقيقا صحيحا . وقد ظل هـــذا الاكتشاف مجهولا عند الأطباء حتى أناطت الأبحاث عنه اللثام سنة ١٩٢٤ .

الشامل فى الصناعة الطبية :

وهو سفر كبير يضاهى موسوعة الحاوى ، لكن ضاع معظمه للاسف ولم يتبق منه الا بعض فقرات ما زالت موجـــودة الآن فى مكتبـــة بودلين باكســـــفورد .

---

(٢٠٥) قال عن ابن سينا مؤخرا العالم الكبير فى تاريخ العلم والطب سارتون « ان ابن سينا أشهر عالم لكل العصور والأماكن والأجناس » .

كتاب المهذب فى الكحل :

وهو يتعلق بأمراض العين ، وموجود الان فى مكتبة الفاتيكان ، وكتاب تفاسيـــر العلل وأسباب الأمراض .

٢ — موفق الدين عبد اللطيف البغدادى(٢٠٦) :

هو الشيخ الامام موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد ويعرف بابن الاباد ، وهو موصلى الأصل ، بغدادى المولد . كان عارفا بالطب معتنيا بصناعته عندما كان بدمشق ، جاء مصر وأقام بها مدة وانتفع الناس بها بطبه وعلمه . وجاءت زيارته لمصر فى وقت تعرضت فيه للمجاعة فى عهد الملك الكامل الأيوبى ، فوضع كتاب رحلته الشهير باسم رحلة عبد اللطيف البغدادى (الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر) .

ومن كتبه الطبية : شرح كتب أبقراط ، مقالته فى الدواء والغذاء ، مقالته فى البادىء بصناعة الطب ، مقالة فى شفاء الضد بالضد ، مقالة فى الراوند ، كتاب كبير فى الأدوية المفردة ، مختصر فى الحميات ، كتاب الكفاية. توفى فى القرن السابع الهجرى بعد أن عاش قرابة السبعين عاما (حوالى سنة ٦٢٩ هـ) .

٣ — ابن رضـــوان :

هو ابو الحسن بن رضوان بن جعفر ، كان مولده ونشأته بالجيـــزة بمصر ، وبها تعلم الطب وهو فى سن الخامسة عشرة وبزغ كطبيب ماهر وهو فى الثانية والثلاثين ، خدم الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى وجعله رئيسا على سائر المتطببين . له من الكتب الطبية : شرح كتب جالينوس ، الأصول فى الطب ، رسالة فى علاج الجذام ، مقالة فى دفع المضار عن الأبدان ، كلام فى الأدوية المسهلة ، وكتاب فى عمل الأشربة والمعاجين(٢٠٧) .

---

(٢٠٦) ابن ابى أصيبعة : طبقات الأطباء ، ص ٨٦٣ .

(٢٠٧) نفس المصدر السابق ، ص ٨٦١ .

٤ — موسى بن ميمون (٢٠٨) :

هو الرئيس ابو عمران بن ميمون القرطبى ، وهو يهودى عالم بسنن اليهود ويعد من احبارهم وفضلائهم وكان رئيسا عليهم فى الديار المصرية . وكان نابغا فى صناعة الطب وله معرفة جيدة بالفلسفة . وكان طبيب القاضى الفاضل وزير السلطان صلاح الدين بن ايوب ، وكذلك كان طبيب الملك الافضل ابن السلطان صلاح الدين . وقيل أن موسى بن ميمون كان قد اسلم فى المغرب وحفظ القرآن واشتغل بالفقه ، ثم انه ارتد الى اليهودية حين هاجر الى مصر وسكن الفسطاط(٢٠٩) .

ولموسى العديد من الكتب وبخاصة فيما يتصل بالشريعة اليهودية ، كذلك له العديد من الكتب الطبية منها : اختصار الكتب الستة عشر لجالينوس، مقالة فى البواسير وعلاجها ، مقالة فى تدبير الصحة ، ومقالة فى السموم وتحرز فى الأدوية القتالة .

ولقد ورث ابراهيم بن موسى بن ميمون صناعة الطب عن أبيه ، وقد نشأ ابراهيم بفسطاط مصر وكان طبيبا مشهورا عالما بصناعة الطب جيدا فى اعمالها احرز المكانة العالية فى خدمة الملك الكامل محمد بن ابى بكر بن ايوب، وكان يتردد على مارستان القاهرة ويعالج المرضى فيه . اجتمع فى ذلك المارستان سنة ٦٣٢ هـ بالمؤرخ الطبيب ابن ابى اصيبعة الذى اورد ذاك فى كتابه الشهير(٢١٠) . توفى ابراهيم فى الثلاثينيات فى سنة ستمائة للهجرة .

من أطباء الأندلس :

١ — الزهراوى :

هو أبو القاسم خلف بن العباس الزهراوى القرطبى ، ينتسب الى مدينة الزهراء بجوار قرطبة . كان طبيبا فاضلا خبيرا بالادوية المفردة والمركبة ، جيد

---

(٢٠٨) عن هذه الشخصية اليهودية الهامة انظر للمؤلف كتاب : اليهود فى ظل الحضارة الاسلامية ، ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٢٠٩) القفطى : تاريخ الحكماء ، ليبزج ١٩٠٣ ، ص ٣١٨ .

(٢١٠) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، ص ٥٨٣ .

العلاج ، ويعد من اكبر جراحى المسلمين واستاذ علم صناعة اليد (الجراحة) فى عالم العصور الوسطى . ومن دراسة كتبه يتضح لنا انه اول من وصف عملية تفتيت الحصاة فى المثانة واول من بحث فى التهاب المفاصل ومرض السل .

والزهراوى هو اول من استحدث التمريض النسائى واشار باستخدام مساعدات وممرضات من النساء فى حال اجراء عملية جراحية لامرأة لأن ذلك ادعى لطمأنتها(٢١١) .

وللزهراوى تصانيف مشهورة فى صناعة الطب واهمها : كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » وهو اكبر تصانيفه وأشهرها ، وهو كتاب تام فى معناه ، وقد ظل يدرس فى جامعات أوربا حتى القرن ١٧ . ويقع هذا الكتاب فى ٣٠ جزء ويتناول العقاقير والأمراض الباطنة،بالاضافة الى صناعة اليد واوصاف دقيقة لبعض الجراحات مثل استخراج حصاة المثانة بالشق والتفتيت وربط الشرايين واستئصال اللوز بواسطة سنارة ، واستئصال اكياس الغدة الدرقية والبتر . وبالكتاب ابواب فى الكسور والخلوع ، كذلك تحدث عن الولادة واستعمال الجفت لاستخراج المولودين . وهو اول كتاب فى تاريخ الجراحة رسمت فيه آلات جراحية وعددها يزيد على المائتين وجاء اكثرها من ابتكاره .

٢ — ابن زهر :

هو أبو مروان بن أبى العلاء بن زهر ، كان جيد الاستقصاء فى الأدوية المفردة والمركبة ، حسن المعالجة ، ذاع ذكره فى الأندلس وفى غيرها من البلاد واشتغل الأطباء بمصنفاته ولم يكن فى زمانه من يماثله فى مزاولة اعمال صناعة الطب . وكان ابن زهر قد قدم دولة المرابطين ونال من جهتهم المال الكثير ، كذلك خدم الموحدين ، وكان الطبيب الخاص لمؤسس دولة الموحدين أمير المؤمنين عبد المؤمن الموحدى ، وجعل اعتماده عليه فى الطب واصبح عالى القدر عنده متميزا . توفى ابن زهر فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى ، ودفن باشبيلية .

---

(٢١١) نفس المصدر السابق ، ص ٥٠١ .

ولابن زهر من الكتب : كتاب التيسير فى المداواة والتدبير ، وقد خصصه فى ذكر امراض القلب ومداواتها والاشارة الى اعراض مرض السرطان ، كتاب الأغذية ، كتاب الزينة فى امر الدواء المسهل ، مقالة فى علل الكلى ، ورسالة فى علتى البرص والبهق .

وخلف ابو مروان بن زهر فى صناعة الطب ابنه ابو بكر ، وقد وصل الى نفس مكانة ابيه وخدم ايضا الموحدين وتوفى فى مراكش ودفن بهــــا ســـنة ٥٩٦ هـ(٢١٢) .

٣ — ابن رشــد :

هو ابو الوليد محمد بن احمد بن محمد بن رشد ، القاضى والفيلسوف المشهور ، ولد ونشأ بقرطبة ، وتميز فى علم الطب وكان بينه وبين ابن زهــر مــودة . كان مقربا من الخليفة المنصور ثم انقلب عايه ، توفى فى مراكش سنة ٥٩٥ هـ فى اول دولة النـــاصر .

ولابن رشد من الكتب الطبية : تلخيص كتب جالينوس الطبية ، كتاب فى المزاج ، مسألة فى نوائب الحمى ، مقالة فى حميات العفن ، ومقـــالة فى التـــرياق(٢١٣) .

أهم ما تميز به الطب والصيدلة عموما عند المسلمين :

استخدم المسلمون المرقد (المخدر) عند اجراء العمليات الجراحية ، واستخرجوه من نبات الشيلم والخشخاش ، كذلك استخدموا الأفيون فى علاج الجنون والثلج البارد فى علاج الحمى ووقف النزيف . اكتشفوا مــرض الجذام وعالجوه ، كذلك السل الرئوى والشلل . استخدموا العلاج النفسى فى علاج بعض الحالات المرضية العضوية . كانوا اول من فتت الحصاة فى المثانة والحالب ، واول من عالجوا بالكى والفصد والحجامة ، كما اجــروا عمليات ازالة المياه من العيون . عرفوا الدورة الدموية ووضعوا اول وصف لها . اخترعوا آلات جديدة فى الجراحة ووصفوا رسوما لها ، واستخدموا

---

(٢١٢) ابن ابى اصيبعة : نفس المصدر السابق ، ص ٥١٩ ، ٥٢٠ .
(٢١٣) ابن ابى اصيبعة : نفس المصدر السابق ، ص ٥٣١ ، ٥٣٢ .

خيطان الجروح من امعاء القطط والحيوانات الأخرى . ولقد توسعوا فى بناء المستشفيات واوجدوا المستشفيات المتخصصة واستحدثوا التمريض النسائى، واكتشفوا الكثير من الأدوية المفردة وقاموا بتركيب الادوية ونبغــوا فى علم الأقرباذين (وهى يونانية تعنى تركيب الادوية) والفوا فيه بالعربية .

وبخصوص الأدوية فلقد توصل المسلمون الى كثير منها استخدموها فى علاج الأمراض المختلفة . ولقد جمع « ابن البيطار » فى كتابه : « الجــامع لمفردات الأدوية والأغذية » مجموعة من العلاجات المستخلصة من النباتات والحيوانات والمعادن ، وأورد فيه ما يختص بالنباتات الطبية التى تتخذ منها العقاقير لعلاج الأمراض ، كما عنى ابن البيطار بذكر ماهيات الأدوية وخواصها ومنافعها ، كما ذكر كثيرا من الدهون الطبية مثل دهن الورد ودهن النرجس ودهن الإيلسان . كذلك فعل « داود الأنطاكى » فى كتابه « تذكرة اولى الألباب الجامع للعجب العجاب » ، كذلك فعل الادريسى فى كتابه « الجامع لصفات اشتات النبات » غير ما ورد من ادوية كثيرة فى كثير من الكتب الطبية التى تعرضنا لمؤلفيها مثل : الزعتر ، الخروع ، الخلنجان ، الزنجبيل ، السنامكة ، الكافور ، الراوند ، المر ، الصبر ، حنظل ، جوز الطيب ، بذرة الخــلة ، الشيح ، الكحول ، المستحلبات ، الدهانات ، اللصقات ، المياه المقطرة ، زرنيخ ، السموم ، والخلاصات العطرية .

هـ ــ علم الفلك والرياضيات والكيمياء والفيزياء والميكانيكا

١ ــ الفــــلك :

يعزى ظهور علم الفلك الى بلاد الشرق الأدنى القديم ، فى بلاد ما بين النهرين ومصر ، وعن البابليين اخذ هذا العلم كل من الاغريق والهنود ، وجميع هذه الأقوام خلطت بين الفلك او علم النجوم وبين التنجيم وربط حــركات الكواكب وأبراجها بما يجرى على سطح الأرض من احداث وحظوظ ســعيدة أو غير سعيدة(٢١٤) .

فلما جاء الاسلام ، ذكر القرآن كثيرا من القضايا الفلكية ، الأمر الذى دعا المسلمين الى تعلم الفلك لمعرفة أوقات الصلاة بحسب الموقع الجغرافى

(٢١٤) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤١٥ .

والفصل الموسمى واتجاه المسلمين الى الكعبة فى صلواتهم ، ورؤية هلال رمضان والصوم وسمت القبلة ، فبرزوا فى ذلك واخترعوا حسابات وطرق بديعة لم يسبقهم اليها احد من اليونان والهنود والفرس .

ولم يمنع الاهتمام بالفلك ، كعلم له علاقة وثيقة بأداء فرائض الدين الخاصة والعامة ، من الاعتماد على التنجيم ؛ بل كان المنجمون يحتلون اماكن مرموقة فى اعين الخلفاء ، حتى اننا نرى الخليفة العباسى ابا جعفر المنصور يصطحب معه دائما المنجم الفارسى (نوبخت) ، واحلال ابنه مكانه حين تقدمت به السن . وكان بعض الخلفاء يستشيرون المنجمين فينظرون فى حالة الفلك واقترانات الكواكب ثم يشيرون بمقتضى ما يرون من ذلك ، كذلك كانوا يستشارون فى علاج بعض الأمراض . وقد ظهر كذب هؤلاء المنجمين ، ويروى ان المنجمين نصحوا الخليفة المعتصم بألا يغزو عمورية الا فى أيام نضج التين والعنب فلم يصغ لقولهم وغزاها وفتحها فى غير ذلك الوقت وانتصر . كذلك روى ان الخليفة الواثق احضر المنجمين حين اشتد مرضه ، وكان من بينهم المنجم الشهير الحسن بن سهل بن نوبخت فنظروا فى مواده فقدروا له انه سوف يعيش خمسين سنة مستأنفة من ذلك اليوم ولم يعش بعد قولهم الا عشرة ايام .

وكان ابتداء اهتمام المسلمين بعلم الفلك فى عهد الأمويين ، وكان ذلك بسبب اشتغال خالد بن يزيد بن معاوية بهذا العلم واتخاذه وسيلة تساعده فى كشف علم الصنعة (تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب) ، وترجم له أول كتاب للفلك عن اليونانية وهو كتاب : « عرض مفتاح النجوم » المنسوب لهرمس الحكيم . وقيل ان الخليفة عبد الملك بن مروان اهتم بهذا العلم وبالترجمة فيه(٢١٥) .

وبدا الاهتمام والتقدم فى هذا العلم واضحا فى العصر العباسى اعتبارا من الخليفة الثانى ابى جعفر المنصور ، الذى شغف بالمنجمين واصطفاهم وصحبهم معه فى رحلاته واسفاره وبخاصة المنجم عبد الله بن سهل بن نوبخت ولقد استشار الخليفة المنصور ابن نوبخت فى موقع بناء

---

(٢١٥) طوقان : تراث العرب العلمى ، ص ٥٨ .

مدينة بغداد قبل ان يشرع فى بنائها فقرر له ازدهار هذه المدينة وطول عمرها .

واقد امر المنصور الفلكى محمد بن ابراهيم الفزارى بترجمة كتاب « السند هند الكبير » الذى يبحث فى حركات النجوم ومطالع البروج والكسوف وغيرها . وهذا الكتاب هو الأصل الذى اختصره الخوارزمى وزاد فيه دراساته الخاصة وصنع منه زيجه الكبير(٢١٦) ، الذى اشتهر فى كل البلاد الاسلامية . وفى أيام المنصور ترجم ايضا يحيى بن البطريق كتاب الأربع مقالات فى صناعة احكام النجوم لبطليموس .

وفى زمن المهدى والرشيد اشتهر علماء كثيرون فى الأرصاد أمثال (ما شاء الله) واحمد بن محمد النهاوندى .

واتسعت حركة الاهتمام بالفلك والترجمة له فى عصر المأمون ، وصححت اغلاط فلكية كثيرة ، كان قد وقع فيها علماء اليونان ، على يد الفلكيين المسلمين ، فقد صححت ، على سبيل المثال ، اغلاط كتاب المجسطى لبطليموس . كذلك الفت ازياج جديدة ليحيى بن أبى منصور ولموسى بن شاكر ولأبنائه ، ولثابت بن قرة والبتانى (ت ٣١٧ هـ)(٢١٧) والبوزوجانى

---

(٢١٦) كلمة زيج وجمعها ازياج هى الكلمة الفارسية (زيك) وهى تعنى الجداول الرياضية .

(٢١٧) هو أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الحرانى ، كان اصله من حران وكان صابئا ، ابتدا الرصد والفلك سنة ٢٦٤ هـ الى سنة ٣٠٦ هـ ، واثبت الكواكب الثابتة فى زيجه سنة ٢٩٩ هـ ، وورد الى بغداد ومات فى طريقه سنة ٣١٧ هـ وله من الكتب ، كتاب : طالع البروج والزيج (ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٧٩) .

(٢١٨) هو محمد بن محمد بن يحيى ابو الوفا البوزجانى الحاسب ، ولد سنة ٣٢٧ هـ فى بوزجان وهى بلدة صغيرة فى فارس تقع بين هراة ونيسابور . اقام فى بغداد حتى وفاته بها سنة ٣٨٨ هـ . وكان احد الأئمة المعدودين فى علمى الفلك والرياضيات وله بهما مؤلفات قيمة (ابن خلدون : وفيات الأعيان ، جـ ٢ ، ص ٨١) .

(ت ٣٨٨ هـ)(٢١٨) ، والفرغانى ، والبيرونى (ت ٤٤٠ هـ (٢١٩) ، وقسطا البعلبكى ، وابن يونس والصاغانى والكوهى .

والفلكيون المسلمون هم اول من عرف اصول الرسم على سطح الكرة وحسبوا الحركة المتوسطة للشمس فى السنة ، وضبطوا حركة اوج الشمس وتداخل فلكها فى افلاك اخر . كذلك قالوا باستدارة الارض وبدورانها وقاموا بقياس محيطها . ولقد حسب البتانى انحراف سمت الشمس فوجده ٢٣ درجة و ٣٥ دقيقة ، اى كان حسابه قريبا من السمت المعترف به اليوم مع خطأ فى الحساب لا يتعدى الدرجة الواحدة . ووفق البتانى ايضا فى حساب طول السنة الشمسية ، ورصد الاعتدالين الربيعى والخريفى ، وكتب عن كلف الشمس قبل أن تعرف اوربا اسباب هذا الكلف بعدة قرون .

ووضع عبد الرحمن الصوفى(٢٢٠) مؤلفا فى النجوم الثابتة وعمل لها الخرائط المصورة وذكر اكثر من الف نجم مع رسمها . ويذكر احد العلماء ان ٥٠٪ من اسماء النجوم المعروفة باللغات الأجنبية هى من وضع العرب ومستعملة بنفس لفظها العربى فى هذه اللغات الأوربية الحديثة ، ومنها مجموعات النجوم المعروفة باسم : الواقع Vega ، الطائر Altair الذنب Deneb ، فم الحوت Famalhout والدبران Aldebrn

المراصد وآلاتها وأزياجها :

اهتم الخلفاء والحكام والولاة المسلمون ببناء المراصد وتزويدها بآلات الرصد وأجهزتها وادواتها . ولقد بنى الأمويون فى دمشق اول مرصد ، وبقى

---

(٢١٩) هو أبو الريحان البيرونى الخوارزمى ، توفى سنة ٤٤٠ هـ وكان قد حظى بمكانة كبيرة عند السلطان محمود الغزنوى بالهند وهو من الم علماء الفلك والرياضة والتاريخ المسلمين . من أشهر كتبه كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية .

(٢٢٠) هو أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر بن سهل الصوفى الرازى، كان من افاضل المنجمين ، ولد بالرى سنة ٢٩١ هـ وتوفى سنة ٣٧٦ هـ . اتصل بعضد الدولة البويهى وكان محل احترامه وتقديره . (ابن القفطى) : أخبار الحكماء ، ص ١٥٢ .

هذا المرصد وحيدا فى عصر الخليفة العباسى المأمون ، الذى امر باتخــــاذ المراصد الفلكية وقدم لها ما تحتاج اليه من أموال بنائهـــا وتجهيـــزها بآلات الرصد ، فبنى مرصد جبل قاسيون فى دمشق ، ومرصد الشماسية فى بغداد . وبنى أبناء موسى بن شاكر مرصدا آخرا خاصا بهم على طـــرف الجسر فى بغداد . وتتابع بناء المراصد بعد المأمون فى أنحاء الدولة الاســـلامية ، فبنى شرف الدولة البويهى مرصدا فى بستان دار الحكمة . واقام الفاطميـــون مرصدا على جبل المقطم فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله وعرف بالمرصـــد الحاكمى ، وانشأ نصر الدين الطوسى الفلكى الشهير مرصدا فى بادة مراغة وجلب له ادق آلات الرصـــد .

وقد الف بعضهم كتبا بأسماء آلات الرصد واوصافها ، منهم الخازن فى كتابه الآلات العجيبة ، وتقى الدين الراصد الذى وصف الآلات التى اخترعها بنفسه . وأشهر هذه الآلات هى الاسطرلاب(٢٢١) . ولقد استعملها المسلمون فى قياس الارتفاعات والمسافات وأعمال الآبار وارتفاع النجـــوم والكواكب السيارة والثابتة والزمن وتحديد اوقات الصلاة ومطالع البروج . وقد أورد عبد الرحمن بن عمر الصوفى ٣٨٦ بابا لفوائد هذه الآلة الفلكية فى كتابه : « فهرست كتاب العمل بالاسطرلاب » . وأبسط انواع الاسطرلاب يتألف من قرص معدنى مقسم الى درجات ويدور على القـــرص عداد ذو ثقبـــين فى طرفيه ، ويعلق الاسطرلاب من حافة تعليقا عموديا ، ثم يوجه العداد نحـــو الشمس فمتى مرت أشعة الشمس من الثقبين قرىء ارتفاع الكواكب من الحد الذى وقف عليه ذلك العداد .

ولقد كان لعلماء الفلك المسلمين فضل كبير على العالم فى هذا المجال ذلك لأنهم حفظوا ما الفه اليونان والفرس والهنود والكلدان والسريان فيه

---

(٢٢١) جاءت كلمة اسطرلاب من اليونانية واصلها اسطرلابون ، وهى مؤلفة من مقطعين : اسطرا بمعنى النجم ، ولابون بمعنى المرآة .

ونقلوه عنهم ، وهذا فى ذاته عمل جليل لا سيما اذا عرفنا ان اصــول تلك الكتب قد ضاعت ولم يبق منها غير ترجماتها فى العربية . هذا اضافة الى تصحيحهم لبعض هذه المعلومات القديمة فى هذا العلم عند الأمم الســابقة لهم ، فضلا عن اضافاتهم الهامة واكتشافاتهم الجليلة التى جعلت هذا العلم يخطو خطوات بعيدة شاسعة .

ومن اهم الأشياء التى تذكر للمسلمين فى هذا العلم ، هو فضلهم فى تطهيره من أوراق الشعوذة والتنجيم وجعله علما رياضيا عقليا خالصــا له اصوله وقواعده شأنه شأن باقى العلوم العلمية الأخرى .

٢ — العـــلوم الرياضـــية

من المعروف ان المسلمين بنوا معارفهم فى الرياضيات على اساس من علوم اليونان والهنود ، ثم تقدموا فى هذه العلوم وطوروها وادخلوا نظريات جديدة عليها حتى ظهر منهم علماء رياضيون كانت لهم شهرتهم العالمية وكانت لهم اكتشافاتهم واضافتهم المفيدة المتقدمة فى هذه العلوم . وقد شملت معارف المسلمين كل انواع الرياضيات من حساب وجبر وهندسة وحساب المثلثات .

وفى الحساب : اخذ العرب عن الهنود نظام الترقيم ، وهذبوا ارقامهم وكونوا منها مجموعتين عرفت احداهما بالأرقام « الهندية » وهى التى لا تزال تستعمل فى جميع البلاد العربية والاسلامية ؛ وعــرفت الأخــرى بالأرقام « الغبارية » ، وهى التى تكتب بها شعوب اوروبا الآن ارقامها ويسمونهــا بالأرقام « العربية » ، وقد سميت هذه الحروف بالغبارية لأن الهنود كانوا يرشون غبارا ناعما على لوح من خشب عند كتابتها(٢٢٢) .

---

(٢٢٢) قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمى فى الرياضـــيات والفلك ، القاهرة ١٩٤١ ، ص ٢٢ .

واستخدم الهنود الدائرة كاشارة للتعبير عن نقص شيء من الأشياء ، أى لا شيء ، ويعبر عنه فى الهندية (سونيا) اى فراغ(٢٢٣) .

فلما عرف العرب هذه الاشارة ومدلولها استخدموا المدلول بما نصه وهو « الصفر » ، ثم جاء ليونارود التاجر الابطالى من بيزا سنة ١٢٢٨ م وصاغ اللفظ العربى صياغة لاتينية فأصبح «صفرم» Cephirum ثم انتقلت الى ايطاليا عن طريق كتب ليوناردو وأخذت اللفظ Zefero ثم زيرو Zero وفى فرنسا تحوات صفر العربية الى « شيفر » Chiffre وفى الألمانية الى « سفريرن » Chiffriren تسيفر Ziffer (٢٢٤)

ولقد قسم العرب الحساب العملى الى قسمين : الغبارى وهو الحساب الذى يحتاج استعماله الى أدوات (اقلام واوراق) ، والهوائى وهو الحساب الذهنى الذى لا يحتاج استعماله الى ادوات .

ولقد وضع العرب مؤلفات كثيرة فى الحساب وأضافوا اليه ، من ذلك وضعهم علامة الكسر العشرى ، التى وضعها العالم جمشيد غياث الدين الكاشى فى القرن التاسع الهجرى(٢٢٥) .

كذلك بحث علماء المسلمين فى الكسور العشرية وعرفوا المتواليات الحسابية والهذدسية على أنواعها وذكروا قوانين جمعها ، كما اخترعوا ووضعوا قوانين خاصة لاستخراج الجذور ولجمع المربعات المتوالية والمكعبات .

وجدد علماء المسلمين القيمة الوضعية للرقم بحيث تكون للرقم قيمتان :

---

(٢٢٣) جمشير غيات الدين الكاشى : مفتاح الحساب ، تحقيق أحمد سعيد الدمرداش ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٦ ، ٧ .

(٢٢٤) الكاشى : مفتاح الحساب ، ص ٧ .

(٢٢٥) واد الكاشى فى أواخر القرن الثامن الهجرى فى مدينة قاشان من مدن فارس ونسب اليها ، والف معظم كتبه الرياضية فى مدينة سمرقند ، وتوفى سنة ١٤٣٦ م اشتهر فى الرياضيات والفلك ونبغ فيهما وله فيهما تأليف أشهرها واهمها كتابه « مفتاح الحساب » (مفتاح الحساب ، ص ٢٠).

قيمة فى نفسه وقيمة بالنسبة للمنزلة التى يقع فيها وبذلك سهلوا جميع اعمال الحساب .

ومن علماء الحساب المسلمين : ابو بكر محمد بن الحسن الكرخى (ت ٤٢٠ هـ/١٠٢٩ م) ، وابن البناء المراكشى (ت ٧٢١هـ/١٣٢١ م) ويعد الكاشى من اشهر علماء المسلمين فى الحساب ، ويجىء بعده فى المكانة كل من ابن الهائم الفرضى (ت ٨١٥ هـ/١٤١٢ م) والشيخ بهاء الدين العاملى (ت ١٠٣١ هـ/١٦٢٢ م) صاحب كتاب « خلاصة الحساب »(٢٢٦) .

أما الجبـــر :

الجبر كلمة عربية لعلم عربى فى الرياضيات اخترعه العرب المسلمون ، ومخترعه هو الرياضى المسلم العظيم ابو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمى الذى عاش وقت الخليفة المأمون وكان مقربا اليه وكان يتولى رئاسة بيت الحكمة . والخوارزمى هو الذى خلع اسم « الجبر » على هذا العلم وذلك فى كتابه « حساب الجبر والمقابلة »(٢٢٧) وعنه اخذ الأوربيون الاسم بنصه ونقلوه الى لغاتهم الأجنبية بلفظه العربى Algébre, Algebra (٢٢٨) وقد رتب الخوارزمى فى هذا العلم ورقى به الى درجة العلم العليا وتعرض لكثير من شئونه(٢٢٩) .

ثم جاء بعد الخوارزمى علماء مسلمون اوجدوا رموزا خاصة فى هذا العلم واستعملوها فى العمليات الرياضية سبقوا بها الأوربيين بمئات السنين . فبعد الخوارزمى جاء العالم «أبو الوفاء البوزجانى» (ت ٣٨٨ هـ/٩٩٨)(٢٣٠)

---

(٢٢٦) هذا الكتاب لا يزال مخطوطا بمكتبة جامعة كمبردج بالمملكة المتحدة تحت رقم P. 34

(Descriptive Catalogue of the Oriental Manuscripts, Cambridge 1932, p. 196).

(٢٢٧) قدرى طوقان : تراث العرب ، ص ٢٩ .

(٢٢٨) عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ، ص ١٤٢ .

(٢٢٩) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٥٨ .

(٢٣٠) عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ، ص ١٤٢ .

ثم أبو بكر محمد الكرخى ، الذى الف كتابا فى الجبر جعله بعنوان : « الفخرى فى الجبر والمقابلة » (٢٣١) ، والشاعر عمر الخيام (ت ٥١٥ هـ/١١٢١ م) الذى قام بحل المعادلات من الدرجة الثالثة والرابعة بوساطة قطع المخروط وهذا أرقى ما وصل اليه العرب فى الجبر ، بل هو ارقى ما وصل اليه علماء الرياضيات فى حل المعادلات حتى الوقت الحاضر(٢٣٢) .

وبحث علماء الرياضة المسلمون فى نظرية « ذات الحــدين » التى بوساطتها يمكن رفع أى مقدار جبرى ذى حدين الى قوة معلومة اسها عــدد صحيح موجب ، وكان الخيام عمدة فى هذا الأمر .

كذلك أوجد هؤلاء العلماء قانونا لايجاد مجموع الاعداد الطبيعية المرفوع كل منها الى القوة الرابعة ، كذلك عنوا بالجذور الصماء(٢٣٣) .

وعلماء الجبر المسلمون هم الذين اكتشفوا النظرية الرياضية القائلة بأن مجموع مكعبين لا يكون مكعبا . كذلك مهد هؤلاء العلماء لنشـــأة علم التكامل والتفاضل ، وكان الرائد فى ذلك ثابت بن قرة . وايضا مهد هؤلاء العلماء الطريق لاكتشاف «اللوغريتمات » ، وذلك بفضل ما توصل اليه ابن يونس فى ابحاثه فى المثلثات الى شىء يقارب اللوغريتمات .

جـ — الهندســـــة :

ترجم العرب ، فى عهد الخليفة العباسى ابى جعفر المنصور ، كتاب اقليدس فى الهندسة عن اليونان وأطلقوا عليه اسم كتاب « الأصول »(٢٣٤)، وقد وجدوا ان الهندسة قد وصلت فى هذا الكتاب الى حد الكمال ، ذلك لأن اقليدس الذى الف هذا الكتاب فى الفترة ما بين سنوات ٣٣٠ — ٣٢٠ق.م كان قد جمع فيه خلاصه أبحاث اليونان فى هذا العام .

---

(٢٣١) حقق هذا الكتاب العلامة على مصطفى مشرفة ومحمــد موسى أحمد ، عن مخطوطة بمكتبة بودلين بجامعة اكسفورد بالمملكة المتحدة .

(٢٣٢) عمرفروخ : نفس المصدر السابق ، ص ١٤٤ .

(٢٣٣) طوقان : نفس المصدر ، ص ٤٠ .

(٢٣٤) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤١٣ .

وقد اطلق العرب على الهندسة العملية اسم الهندسة الحسبة ، كما اطلقوا على الهندسة النظرية اسم الهندسة العقلية . ولم يقف العرب عند دراسة هندسة اقليدس بل زادوا عليها وألفوا فيها تآليف جديدة ، وطبقوا النظريات الهندسية فى الحياة العملية . ويشيد ابن القفطى(٢٣٥) بفضل العالم ابن الهيثم فى هذا العام ويقول عنه انه صاحب التصانيف والتآليف فيه وان الناس أخذوه عنه واستفادوا من علمه فيه(٢٣٦) . وقد الف الحسن بن الهيثم كتابا فى الهندسة على نسق كتاب الأصول . والف كذلك ، من بعده ، محمد البغدادى رسالة تحتوى على العديد من القضايا الهندسية . ولقد توصل « الكاشى » الى ايجاد نسبة محيط الدائرة الى قطرها ، وكان حسابه لها قريبا من العدد الثابت .

وقال علماء الهندسة المسلمون بأن الخط يتكون من نقطتين والسطح من خطين ، والجسم من سطحين ، واشتغلوا بعلم تسطيح الأرض(٢٣٧) ، وأوجد ثابت بن قرة حجم الجسم المكافىء الناتج من دوران قطع مكافىء حول محوره ، ثم زاد ابن الهيثم فأوجد حجمه اذا دار حول اى قطر او اى رأس .

وبعد ان أطاع العرب على محاولة الاغريق حل معادلة الدرجة الثانية هندسيا حاولوا حل معادلة الدرجة الثالثة هندسيا أيضا ، وكان ابو جعفر الخازن هو اول من حل هذه المعادلة بتقاطع القطوع المخروطية ، وتبعه فى ذلك كل من « الكوهى » وابن الهيثم . ولقد أبدع عمر الخيام وتفنن فى تقسيم هذه المعادلات الى ثلاثية الحدود ورباعيتها وقسم كل منها الى أنواع ، ووضع الحلول لكل نوع منها وقد حاول ابو الوفا البوزجانى حل المعادلة الرباعية هندسيا .

ويمكننا أن نلحق بالهندسة فن الزخرفة العربية المعروف بفن الأرقشة او الأرابيسك Arabesque او الارابيسكو ، وهو فن زخرفى اسلامى ، نسبوه الأوربيون الى مخترعيه العرب ، وفيه يعتمد الفنان على الزخرفة بالنبات وأوراقه وزهوره وثماره وذلك لكراهية رسم صور ذوات الروح فى

---

(٢٣٥) ابن القفطى : أخبار الحكماء ، ص ١١٤ .
(٢٣٦) عن ابن الهيثم ، أنظر فيما بعد .
(٢٣٧) طوقان : نفس المصدر ، ص ٤٨ .

الاسلام(٢٣٨) . ولقد استخدم واضعو هذا النوع من الزخرفة القواعد الهندسية فى رسم المضلعات والمثلثات وفى ترتيب الخطوط واوراق وثمار النباتات ترتيبا هندسيا بديعا متناسقا تمام التناسق .

د — علم المثلثات :

اذا كانت الهندسة علما ينسب الى اليونان ، فان علم المثلثات علم عربى بحت ، والعرب المسلمون هم الذين أنشأوا هذا العلم(٢٣٩) ، ويرجع الفضل فى ذلك للعالمين المسلمين الجليلين : ابو الوفاء البوزجانى ونصير الدين الطوسى . كذلك يرجع الفضل فيه لعلماء أخر مثل :

الخوارزمى ، وثابت بن قرة ، والخازن البصرى ، وابن الهيثم ، والبيرونى ، والبتانى ، وجميع هؤلاء العلماء ساهموا بعلمهم فيه وأدلوا بدلوهم .

ولقد ارتقى البتانى (٢٤٠) (ت ٣١٧ هـ) بعلم حساب المثلثات الى أبعد حد ، واستبدل المثلثات بالمربعات فى حل المسائل ، واستبدل جيب الزاوية بالقوس ، وهو أيضا الذى صاغ فى هذا العلم تلك النسب بالصورة التى نستخدمها الآن .

وهنالك رسالة لابن الهيثم فى هذا العلم ، كذلك للبيرونى رسالة فى استخراج الأوتار من الدائرة . هذا ولقد اشتغل الرياضيون المسلمون بالمثلثات المستوية والمثلثات الكروية ، وأثبتوا فيها اثباتات جديدة ، وحلوا مسائل على المثلثات الكروية القائمة الزاوية والمائلة الزاوية . كذلك استعملوا المماسات والقواطع ونظائرها فى قياس الزوايا والمثلثات ، ووضعوا الجداول الرياضية (الأزياج) التى مهدت لاكتشاف قانون اللوغريتمات واعتمدوا عليها فى الحل التقريبى للمعادلة التكعيبية .

---

(٢٣٨) عن فن التصوير الاسلامى ، أنظر فيما بعد .

(٢٣٩) طوقان : تراث العرب العلمى ، ص ٥١ .

(٢٤٠) هو محمد بن جابر بن سنان أبو عبد الله ، المعروف بالتبانى ، نسبة لبلدة تبان التى ولد فيها سنة ٢٤٠ هـ ، وهى من نواحى حران بشمال العراق .

ومن اشهر هذه الأزياج : زيج ابراهيم الفزاوى ، وزيج الخوارزمى ، وزيج البتانى ، والزيج الشامل للبوزجانى ، والزيج الشاهى للطوسى وغيرها(٢٤١) .

٢ — الكيمياء :

لقد دفعت الفكرة التى كانت سائدة عند علماء العصور القديمة والوسطى ، وهى امكان تحويل المعادن الخسيسة الى معادن ثمينة ، الأمير خالد بن يزيد بن معاوية الى استدعاء الراهب مريانوس من الاسكندرية وتكليف اسطفان الحكيم بترجمة كتب الكيمياء اليونانية الى العربية ، فنشأ عند المسلمين بذلك ، فى العهد الأموى ، ما عرف بعلم الصنعة .

ولم يكن علم الصنعة هو فقط الحافز لتقدم علم الكيمياء،عند المسلمين، فى المهدين الأموى والعباسى الأول ، فان العناية بالطب والصيدلة وتحضير الأدوية وتركيبها وترجمة الكتب الطبية المختلفة ، كل ذلك دعى الى نشاط صناعة الكيمياء والصيدلة معا .

ويعد جابر بن حيان ابو الكيمياء الاسلامية ، اذ ينسب اليه اكثر من خمسمائة مؤلف فى هذا العلم ، وظلت كتبه تدرس فى أوربا دون غيرها خلال عدة قرون . وقد عاش جابر بن حيان ٦٧ عاما فما بين سنوات ٨٠ — ١٤٧ هـ) وتتلمذ على الامام جعفر الصادق العلوى ، وقرأ جميع ما ترجم بأمر خالد بن يزيد بن معاوية ، وعاش ابن حيان فى الكوفة وفى بغداد ، فى بلاط الرشيد واتصل عن قرب بالبرامكة .

وابن حيان هو أول من حضر حامض الكبريتيك (زيت الزاج) ، كذلك يعزى اليه اكتشاف حامض النيتريك وماء الذهب (النيتروهيدروكلوريد) ، والسليمانى (كلوريد الزئبق)(٢٤٢) .

---

(٢٤١) طوتان : نفس المصدر السابق ، ص ٦٨ .

(٢٤٢) وهو نوع من أنواع السموم القتالة الفاعلة .

ويشيد ابن خلدون بفضل ابن حيان فى هذا العلم بقوله ما نصه عنه :

« وما زال الناس يؤلفون فيه قديما وحديثا وأمام المدونين فيه جابر بن حيان حتى انهم يخصونه به فيسمونه « علم جابر » »(٢٤٣) .

واشهر مؤلفات ابن حيان : كتاب الخالص ، كتاب الوصية ، كتاب الشمس ، كتاب القمر ، كتاب التراكيب ، كتاب الأسرار ، كتاب السموم ، كتاب التكليس ، وكتاب الايضاح الذى تكلم فيه عن تكوين الفلزات .

وتنسب الى جابر بن حيان عدة اختراعات كيميائية هى :

— تقطير الخل للحصول على حامض الخليك المركز .

— استعمال ثانى أكسيد المنجنيز فى صنع الزجاج .

— تحضير نوع من الطلاء يمنع الصدا عن الحديد .

— استخدام مادة الشب فى تثبيت الوان الصباغة .

— صنع ورق غير قابل للاحتراق .

— استنباط طرقا لتحضير الفولاذ وتنقية المعادن وصبغ الجلود والشعر .

الرازى (محمد بن زكريا) ت ٣٢١ هـ / ٩٢٤ م :

والرازى الطبيب الفيلسوف المشهور تلميذ من تلاميذ جابر بن حيان ، تأثر بتعاليمه وهضم ابحاثه واكمل الطريق الذى بداها استاذه . واذا كان ابن حيان قد مات دون ان يتوصل الى غاية علم الصنعة عند العرب ، فلقد توصل هو الى هذا السر . ونسب اليه انه أول من استطاع ان يحول المعادن الخسيسة الى ذهب . وقيل انه اتخذ صحونه وأدواته من الذهب الخالص ، لكنه احتفظ لنفسه بالسر وامتنع عن تعليم صنعته لأى انسان لاعتبارات اخلاقيـة .

---

(٢٤٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٥٠ .

وقد سلك الرازى فى بحوثه وتجاربه مسلكا علميا خالصا ، فهــو يذكر فى كتابه « سر الأسرار » تجاربه مبتدئا بوصف المواد التى يشتغل بها ، ثم الأدوات والآلات التى يستعملها ، ثم الطريقة التى يتبعها فى تحضــير المركب ، وهذا هو النهج الصحيح فى البحث العلمى . ولقد نجح الرازى فى استخراج الكحول بتقطير المواد السكرية المتخمرة . ويعد « كتاب ســر الأسرار » اهم كتب الرازى الكيميائية ، فاقد وضــع فيه خلاصــة معظــم ابحــاثه .

٤ — الفيــــزياء :

بحث علماء المسلمين فى جميع علوم الفيزياء ، ولكن للاسف لم تصلنا كل ابحاثهم فى هذا المجال ، وقد ترجم معظمها الى اليونانية واللاتينية واهمل اسماء من الفها من المسلمين ونسبها الغربيون الى اسماء اوربية . وجاءت اهم ابحاث المسلمين فى هذا المضمار فى الضوء والصوت .

ولقد سمى المسلمون الضوء بعلم البصريات او علم المناظر ، وقــد الف « الكندى » حوالى سنة ١٦٥ هـ كتابين فى هذا العلم سمى الأول منهما : اختلاف المناظر ، وسمى الثانى : اختلاف مناظر المرآة . كذلك اشتغل الطبيب الفيلسوف ابن سينا كثيرا فى هذا الفن واوجد فيه بعض النظريات الجديدة ، ولكن اشهر من تخصص فى هذا العلم وانفرد به رائدا فيه فى الاسلام هــو العالم الحسن بن الهيثم(٢٤٤) .

ولقد نبغ ابن الهيثم فى علم البصريات والف كتبه فيه ، وكان من اهمها كتاب « المناظر » الذى ترجم الى اللاتينية ، وبقى الكتاب الوحيد الذى يقراه الباحثون فى هذا العلم طوال العصور الوسطى (٢٤٥) ويقع هذا الكتاب فى

---

(٢٤٤) هو ابو على بن محمــد حسن البصرى ، ولــد فى البصرة سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م ونبغ فى البصريات ، كما نبغ فى الرياضيات وهو من اعظم علماء الفيزياء الذين ظهروا على مر العصور . توفى بمصر بعد ان ارتحل اليها ، وكانت وفاته سنة ٤٢٨ هـ/١٠٣٨ م فى عهد دولة الفاطميين.

(٢٤٥) طوقان : تراث العرب ، ص ١٥٦ .

سبع مجادات تبحث فى علم المناظر وتشريح العين ورسمها وأسماء اقسامها ووظيفة كل جزء منها ، وفى كيفية النظر الى الأشياء بالعينين فى آن واحد ، وكيف تسير الأشعة من نور الجسم المرئى الى العينين ووقــوع ذلك على شبكية العين ثم يبحث فى العدسات وقوة تكبيرها والنظــريات الضــوئية المختلفة(٢٤٦) .

ويذكر الى جانب ابن الهيثم فى هذا العلم : « الخازن البصرى » الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى ، وقد كتب فى المرايا وانواعها وفى انحراف الأشياء وتجسيمها ، وفى بعض مسائل الضوء . كذلك يذكر : كمــال الدين الفارسى ، الذى عاش فى اواخر القرن السادس الهجرى ، ودرس كتب ابن الهيثم فى الضوء وتابع الدراسة والتجربة والف كتابا اسماه : « تنقيــــح المناظر لذوى الأبصار والبصائر » واصل فيه ابحاث ابن الهيثم فى الضوء . كذلك يذكر ابو الريحان البيرونى(٢٤٧) ، الذى امتاز بابتكاراته العلمية فى هذا الميدان ودعمه ابحاثه بالبراهين والحجج المنطقة . وينسب للبــيرونى تعيينه الكثافة النوعية لثمان عشرة نوع من أنواع الأحجار الكريمة ، ووضعه قانون الكثافة النوعية ، وهو اول من اعلن ان سرعة الضوء اعظم بكثير من سرعة الصــــوت .

وفى علم الصوت بحث علماء المسلمين فى الصوت ومنشأه وقوته ، وهداهم ذلك الى البحث فى الموسيقى وصنع الآلات الموسيقية والضرب عليها ومعرفة انواع الأنغام . وفى رسائل اخوان الصفا نجد تعليلا لحدوث الصوت الناتج عن حركة الأجسام فى الهواء . وقد قسم المسلمون الأصوات الى درجات فمنها : الجهير والخفيف ومنها الحاد والغليظ ، وشرحوا العلاقة بين طول الوتر وغلظه وقوة توتره وشدة النقر من جهة ونوع الصوت الذى يحدث من جهة اخرى ، وعللوا حدوث الصدى . وعلل القزوينى سبب رؤية البرق

---

(٢٤٦) عمر فروخ : تاريخ العلوم ، ص ٣٧٦ .

(٢٤٧) الرياضى الفيزيائى الشهير ، وهو من مواليد خوارزم سنة ٣٦٢ هـ . وقد تنقل بين خوارزم وغزنة والهند ، وقد عاش فى الهند ٤٠ سنة واخذ العلم فيها ونبغ فى الرياضيات والفلك والفيزياء .

قبل سماع الرعد . ويعد القزوينى والفارابى من اشهر من تحدثوا عن هــذا العلم بين علماء المسلمين .

٥ — عــلم الميكانيــكا :

وسماه العرب علم (الحيل) وقسموه قسمين : احدهما يبحث فى آلات الحركات وصناعة الأوانى العجيبة ، والآخر فى جر الأثقال بأقل مجهود . وقد درس المسلمون فى هذا العلم كثيرا من الأدوات الميكانيكية كالروافــع واللوالب وغيرها ، وكان اعتمادهم اول الأمر على ما ورد فى كتب اليــونان ثم بعد ذلك اخترعوا وتفننوا فى هذا العلم .

ولقد تخصص ابناء موسى بن شاكر (محمد واحمد وحسن) فى هــذا العلم فى عهد المأمون ، وقد الفوا كتابا فيه جمعوا فيه علم الميكانيكا القــديم وتجاربهم الخاصــة(٢٤٨) .

ومن علماء هذا العلم البيرونى والخازن والخوارزمى . ومن الأبحــاث الهامة التى توصل لها المسلمون فى هذا العلم معرفتهم حساب الوزن النوعى للاشياء وصنع آلات خاصة لعمل حساب الثقل النوعى للاشياء حسابا دقيقا . كذلك توصلوا الى قوانين سقوط الأشياء والضغط الجوى وقياسه والجاذبية الأرضــــية .

---

(٢٤٨) انور الرفاعى : الاسلام فى حضارته ونظمه ، ص ٦٣١ .

الفصل السادس

الفنون الاســلامية

أ — التصوير والرسم والزخرفة ·

ب — العمارة الاسلامية ·

ج — الموسيقى ·

جاءت الفنون الاسلامية لتعبر عن نظرة الانسان المسلم للكون والحياة ومدى ادراكه لابداع الله تعالى فى خلقه وعظيم صنعه . وقد استوعبت هذه الفنون جميع الجهود التى بذلها العالم الاسلامى خلال عشرة قرون ، على الأقل ، فى التعبير عن الجمال وصنع الأشياء الفنية(1) وتميزت هذه الفنون الاسلامية بشخصيتها المستقلة وطابعها الخاص المميز الواضح المعالم ، كذلك تميزت بوحدت اساليبها رغم تعدد نواحيها واشكالها واختلاف عناصر وامصار المساهمين فى صنعها والمنجزين لها وتداخل التأثيرات المحلية فيها . ولعل ذلك مرده الى الوحدة التى انتظم فيها العالم الاسلامى قرونا عديدة ، وكذلك يرجع الى تأثر هذه الفنون بروح الاسلام وانصباب أنواعه المختلفة ، فى المقام الأول ، على المواضيع الدينية وانبعاث أعمالها الفنية تحت تأثير البـــاعث الدينى . ولقد استهدفت الفنون الاسلامية أنواع الفنون المختلفة من تصوير ورسم وزخرفة وعمارة وموسيقى و~~شملت بذلك كل أنواع الفنون المختلفة من تصوير ورسم وزخرفة وعمارة وموسيقى~~ وشملت بذلك كل أنواع الفنون المعروفة ، ابتداء من بداية القرن الثانى الهجرى فصاعدا .

أ ــ التصوير والرسم والزخرفة :

وفى مجال التصوير والزخرفة ، ظهرت التصاوير والرسوم فى بلاد العالم الاسلامى منذ وقت بعيد ، وفى العصر الأموى بالتحديد . ذلك العصر الذى استقرت فيه الدولة واتسعت وامتزجت فيها شعوب البلاد المفتوحة .

ولم يدخل الرسم والتصوير ويستعمل لخدمة الدين عند المسلمين ، كما هو الحال فى المسيحية ، لذلك نجد المساجد قد خلت من الرســـومات والتصاوير حتى لا تتشابه مع الكنائس ، كذلك لم نجد هـــذه الرســـومات مستخدمة فى تجميل المصاحف والكتب الدينية او تزيينهـــا ، وذلـــك حتى

---

(1) أنور الرفاعى : الاسلام فى حضارته ، ص ٣٢٦ .

لا ينصرف الناس عما بها من كلام مقدس الى مثل تلك التصاوير . على اننـــا وجدنا بعض الكتب تحتوى على بعض الرسومات التى تمثل الموضـــوعات الدينية ، مثل موضوع المعراج ، لكن هذه الكتب جـــاءت فى وقت متـــأخر وكانت رسوماتها بيد فنانين مسلمين غير عرب .

ويرجع عهد اقدم الصور والرسومات ، التى جاءتنـــا على الآثـــار الاسلامية ، الى اوائل القرن الثانى الهجرى فى العصر الأموى ، وهى الصور والرسومات التى وجدت على قصر « عميرة » بشرق الأردن (والذى يقع على بعد ٥٠ ميلا شرقى عمان) وينسب الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك(٢) . كذلك ما وجد فى حمام هذا القصر من صور مرسومة على جدرانه على الجص لستة شخصيات ملكية يرتدون ثيابا جميلة بينهم صورة للخليفة نفسه . كذلك نجد صورة لمشهد صيد فيها أسد برى واثب على حمار وحشى ، ومشهد آخر يمثل بعض الراقصات يرقصن وبعض الموسيقيين وهم يعزفون .

وفى قصر الحير الغربى ، الذى يرجع للعهد الأموى نجد مثل هـــذه الصور(٣) ، كما وجد على واجهته الخارجية مجموعة تماثيل من بينها تمثال الخليفة الأموى(٤) حفظ لنا معظمه . وفى داخل القصر تمثال للخليفة ممتطيا جواده وعدد من الصور المختلفة تملأ جدرانه الداخلية ، منها صورة نصـــفية لامرأة تحمل سلة وقد التف حول عنقها ثعبان وقد زين العنق بعقد من اللؤلؤ .

وقد حوت جدران الجامع الأموى بدمشق وقبة الصخرة بالقـــدس والمسجد النبوى بالمدينة على زخارف بالفسيفساء ، وأكثرها زخارف نباتية غاية فى الجمال والدقة فى التصوير .

ولقد انتشر الرسم والتصوير وصناعة التماثيل فى العهد العباسى ، والشاهد على ذلك مخلفات قصور العباسيين المحفوظة الآن بمتاحف العالم ،

---

(٢) ابو صالح الالفى : الفن الاسلامى ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٣٨ .

(٣) نقلت بقايا هذا القصر الى متحف دمشق القومى .

(٤) من المحتمل ان يكون هو الخليفة هشام بن عبد الملك ، ويبـــدو ايضا انه بنى هذا القصر حوالى سنة ١٠٩ هـ ، على طراز القصور البيزنطية (طه حسين : من تاريخ الأدب ، ج ٢ ، ص ٥٤) .



تمثالان مصنوعان من العظم من العصر الفاطمى — مجموعة خاصة

وأوصاف هذه الرسوم والتماثيل التى وردت فى اشعار شعراء ذلك العصر الذين وصفوا قصور خلفاء العباسيين وما كان عليها من تماثيل ورسومات حيوانية وآدمية . ولقد ورد فى هذه الأشعار ما يفاد ان المنصور قد اقام فوق قبة قصره ببغداد تمثالا لفارس يمسك بيده رمحا . كذلك ورد ان الأمين كان قد انشأ على نهر دجلة تماثيل لأسود ونسور وحيتان . وابرز هذه التماثيل قد وردت فى وصف قصر الشجرة الذى بناه الخليفة المقتدر ، فقد ورد أن هذا الخليفة قد انشأ فى هذا القصر شجرة من فضة عليها عصافير تغرد واحاطها بتماثيل فرسان من الفضة .

واذا انتقلنا الى العهد الفاطمى والأيوبى وجدنا الرسم والتصوير قد تطور فى هذا العهد تطورا كبيرا ، والدليل على ذلك ما خلفه هذا العصر من بقايا صور ورسومات كثيرة لا زالت موجودة فى متاحف العالم المختلفة الآن وثبت بما يقطع الشك انها ترجع حقيقة الى ذلك العهد .

يقول جوستاف لوبون فى كتابه حضارة العرب ما نصه(٥) : « لا يمكن الاستدلال على معرفة العرب للتصوير بما ذكره مؤرخوهم الذين أنبأوا بوجود عدة مدارس عربية كثيرة للتصوير فيما مضى ، ومن هؤلاء المؤرخ المحقق المقريزى ، الذى ترجم مصورين من المسلمين وذكر انه وجد فى قصر الخليفة المستنصر ، حين نهب سنة ٤٦٠ هـ ، الف قطعة من المنسوجات مصور عليها حاشية الخلفاء مع مقاتلين ورجال مشهورين ، وان البسط المصنوعة من نسائج الذهب والحرير والمخبل مستورة بتصاوير ممثلة لرجال وحيوانات من كل نوع » . واضاف لوبون ان اجمل صور هذا العصر « كانت صورتين لمغنيتين تبدو احداهما وهى لابسة ثوبا أبيض على اساس اسود وكأنها داخلة فى الجدار المصورة عليه ؛ وتبدو الأخرى وهى لابسة ثوبا احمر على اساس اصفر كأنها خارجة منه نحو الناظر » (٦) .

وتحت عنوان « الرسم فى العهد الفاطمى » اورد D. S. Rice

---

(٥) لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٥٠٨ .

(٦) لوبون : حضارة العرب ، ص ٥٠٨ .

فى مقال له بمجلة معهد الدراسات الشرقية والافريقية(٧) ، بأن الرسم قــد ازدهر فى مصر الفاطمية وان هذه الرسوم كان بعضها قائما على حوائط بوابات القاهرة الضخمة ، وقد أفادنا بذلك الرحالة الذين زاروا مصر فى ذلك الوقت وكانوا قد شاهدوا حوائط هذه البوابات قبل انــدثار ما عليهــا من رسوم . كذلك ما وصل الى أيدينا من مخلفات هذا العهد المادية ويتمثل فى بقايا قطع السيراميك وبعض المقابض الخشبية والعاجية وبعض الابوسات والمصنوعات المعدنية ، وكلها حوت على رسوم رائعة تظهر مدى الحــرية فى التعبير التى كان يتمتع بها المصور المسلم آنذاك . وشملت هذه الرسوم صور وأشكال لآدميين وطيور وحيوانات مختلفة رسمت وصورت بشكل بديع .

واهم المخلفات الفنية التى وجدت وعليها رســومات ترجــع للعصر الفاطمى تلك التى وجدت فى الفيوم وهى الآن ضمن مجموعة الأرشيدوق رينر Rainer المحفوظة فى المكتبة القومية بفيينا . وجزء من واجهة مدخل محفوظة الآن بمتحف الفن الاسلامى فى القاهرة ، وأخرى موجودة ضــمن مجموعة شريف صبرى وهى ترجع للقرن الخامس الهجرى والســادس . ولوحة ، غير موجود شبيه لها ، موجودة فى المتحف البريطانى ومقاييســها ٢١×٥ر٣١سم ، وقد أخذت من الفسطاط ، وهى تمثل منظــر معــركة بين المسلمين والصليبيين امام واجهة احدى القلاع ويرجع تاريخ هذه اللوحة الى ســنة ١١٦٠ م .

واجمل هذه الصور والرسومات التى ترجــع للعصر الفــاطمى تلك الصورة التى توجد ضمن المجموعات الخاصــة والتى جاءت من الفســطاط واحجامها ٥ر٢٨×١٨ سم وهى تحتوى على رسم لامرأة عارية تماما قصيرة الأرجل تقبض فى يدها اليسرى على عود له ستة أوتار ، وتمسك فى يدها اليمنى كوبا مملوء بسائل قرمزى اللون . وفى الصورة تظهر صينية عليهــا زجاجة وابريق به نفس السائل ، وقريبا . من ذراع المرأة الأيمن توجــد زهرية طويــلة بهــا بعض الزهــور .

---

(7) D. S. Rice : A drawing of the Fatimid Period, BSOAS, v. 21, London 1958, pp. 31—35.



رسم المرأة العارية من العصر الفاطمى — مجموعة خاصة



رسم المراة العارية من العصر الفاطمى — مجموعة خاصة



طبق من الخزف عليه رسم صورة امرأة من العصر الفاطمى
(متحف الفن الاسلامى بالقاهرة)



صورة المرأة ذات الوشم

وتبدو هذه الصورة قريبة الشبه بتلك الصور المرسومة على أحد الأطباق الخزفية المحفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة تحت رقم (١٣٠٨٠) والذى يرجع عهد صنعه الى القرن الحادى عشر الميلادى او اوائل الثانى عشر ، اى الى العهد الفاطمى(٨) . أنظر الشكل المرفق .

كذلك وجدت فى الأندلس رسوم وتصاوير وتماثيل بقدر كبير من قصور خلفاء الأمويين بقرطبة ، وفى مدن الأندلس الأخرى وبخاصة غرناطة .

ولعل أهم ما وقع عليه الباحثون من آثار التصوير فى العصور المتأخرة وبخاصة عصر حكام المغول ، عدد كبير من المخطوطات العربية والفارسية المحلاة بالصور الجميلة(٩) .

وكان أكثر هذه المخطوطات التى حوت صورا ترجمات للقصص مثل كليلة ودمنة ، او ترجمات لمؤلفات يونانية فى العلوم العملية ، او كتب ادبية كمقامات الحريرى ، أو مؤلفات اسلامية مثل عجائب المخلوقات للقزوينى .

واقدم هذه المخطوطات المصورة : كتاب فى البيطرة ، كتب فى بغداد سنة ٦٠٥ هـ ، وهو ترجمة لكتاب : خواص العقاقير لديوسقوريدس وفيه صور لأطباء يحضرون الدواء وجراحين يجرون بعض العمليات الجراحية(١٠) .

وفى المكتبة الأهلية بباريس توجد اقدم نسخة من كتاب « مقامات الحريرى » ، ويرجع تاريخ نسخها الى سنة ٦١٩ هـ ، وهى تحتوى على مائة صورة ملونة تحكى مغامرات الحارث بن همام وأبى زيد السروجى . وفى نفس هذه المكتبة نسخة اخرى للمقامات ، كتبت سنة ٦٣٤ هـ ورسم صورها الفنان محمود الواسطى أشهر رسامى ذلك العهد . كذلك توجد نسختان من الكتابين بمكتبة المتحف البريطانى بلندن وتاريخ نسخهما احدث .

---

(8) Rice : op. cit., p. 35.

(٩) أورد المؤلف فى آخر هذا الكتاب بعض صور هذه الرسومات التى وجدت فى المخطوطات العربية والفارسية .

(١٠) هذا المخطوط محفوظ الآن بدار الكتب المصرية بالقاهرة .



رسم من مخطوطه عربية رقم Ms Arabe 2775 ورقة ٨٢
المكتبة الأهلية بباريس



من كتاب عجائب المخلوقات للقزويني

واقدم المخطوطات التى كتبت بالفارسية ، وحوت صورا ملونة ، كتاب منافع الحيوان لابن الطيب(١١) ، وكتاب جامع التواريخ لاوزير المؤرخ رشيد الدين ، وكتاب الشاهنامة ، وكليلة ودمنة . ولعل اجمل ما صور فى هذه المخطوطات المعارك الحربية(١٢) .

كذلك خلف لنا عصر حكم المغول عددا كبيرا من المخطوطات المصورة ، ترجع لعصر تيمورلنك وابنه شاه رخ . وقد كان هذان الحاكمان قد جمعا فى سمرقند اشهر الفنانين والرسامين ، وكان على راسهم الفنان غياث الدين خليل الذى اعتبر احد عجائب عصره فى الرسم(١٣) . كذلك اسس السلطان ميرزا بن شاه رخ معهدا جمع فيه اربعين فنانا لنسخ ورسم الكتب ، وقــد صوروا صورا كثيرة وبخاصة فى كتاب الشاهنامة . ومن اهم الصور المنسوبة لعصر المغول ، تلك الصورة التى تمثل وصول هماى الى امبراطور الصين(١٤) كذلك مخطوط « معراجنامة » الذى يحوى على صورة للرسول وهو يركب البراق وامامه جبريل .

وتحت عنوان : « الخيال والتقاليد فى التصوير الاسلامى » ، اقيم فى المتحف البريطانى بلندن (فبراير ١٩٧٩) معرض للصور الاسلامية . وقــد جاءت النماذج المعروضة من محتويات مكتبة المتحف ، وكان جزء منها يعرض لاول مرة ، اما الباقى فهو المعروض بداخلها بصفة مستمرة . وقد القى هــذا المعرض ضوء ساطعا على فن الرسم والتصوير الاسلامى ، الذى ازدهر فى اواخر القرن السادس الهجرى فصاعدا .

ومن لوحات المعرض التى نالت الاعجاب وتصدرت مطبوعات المتحف صورة للملك جبرائيل ، من مخطوطة عجائب المخلوقات للقزوينى ، كــذلك

---

(١١) هذه المخطوطة محفوظة باحدى مكتبات مدينة نيويورك بالولايات المتحــدة .

(١٢) ابو صالح الألفى : الفن الاسلامى ، ص ٢١٧ .

(١٣) ابو صالح الألفى : نفس المصدر السابق ، ص ٢١٩ .

(١٤) هذه الصورة يرجع رسمها الى سنة ١٤٣ م ، وهى موجودة الآن بمتحف الفنون الزخرفية بباريس .



● غلاف « كتالوج » المعرض



من كتاب « الخمسة » لنظامي الأمير بهرام يتغلب على أسدين ويستحوذ على التاج — من كليلة ودمنة

عرضت أعداد من المخطوطات المحلاة بالصور والرسومات ترمز لمشاهد دينية ، وبخاصة مشهد المعراج . وكانت ابرز صور المعراج تلك الصورة التى وردت فى المخطوطة « خمسة » للشاعر نظامى ، والتى رسمها المصور للشاه طاهماسب،من حكام المغول الصفويين فى الفترة ما بين ٩٤٦ — ٩٥٠هـ ١٥٣٩ — ١٥٤٣ م . وفى هذه اللوحة نشاهد شكلا غير محدد التفاصيل يتوسط الصورة كأنه هالة من ضياء تأخذ شكل آدمى يرتدى زيا أخضرا ، وذلك اشارة الى النبى صلى الله عليه وسلم على ظهر البراق يتقدمه جبريل محاطا بالملائكة من كل جانب ، وقد ازدانت الملائكة بملابسها الناصعة الألوان، ماضية وسط الغيوم البيضاء صاعدة الى السماء الداكنة الزرقة .

وشملت مخطوطات المعرض على رسومات لمواضيع فى الطب والفلك والجغرافيا والحكمة ومغامرات العشق ومواقع الفرسان(١٥) .

وفى المعرض عدد وفير من الصور الشخصية للملوك والأمراء ، فى بلاد فارس أو الهند او تركيا . وقد توسع الفنان المسلم فى رسم هذه الصور بعد القرن الثامن الهجرى . وكان لحكام المغول ، بصفة خاصة ، ولع شديد بالصور الشخصية ، فرسمت الصور العديدة لهم ولزوجاتهم فى مظاهر الترف والعظمة . ومن صور حكامهم التى عرضت فى المعرض صورة لسلطان « بابر » . وهو فى لحظة فكر وتأمل .

ومن أقدم الصور الشخصية التى وصلتنا صورة بدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل ، ويرجع تاريخها الى اوائل القرن السابع الهجرى (١٢١٩م)(١٦) . كذلك تكرر ظهور الصورة الشخصية للحاكم او السلطان او الوزير المهدى اليه المخطوط ، على الصفحة الأولى منه(١٧) .

---

(١٥) من المخطوطات المصورة المعروضة كتاب صور الكواكب الثابتة للفلكى عبد الرحمن الصوفى (ت ٩٦٥ م) ، ومخطوط منافع الحيوان ، لعبيد الله بن جبرائيل بن بختيشوع .

(١٦) وجدت هذه الصورة فى مخطوطة الأغانى للاصفهانى ، والتى عثر عليها فى استانبول .

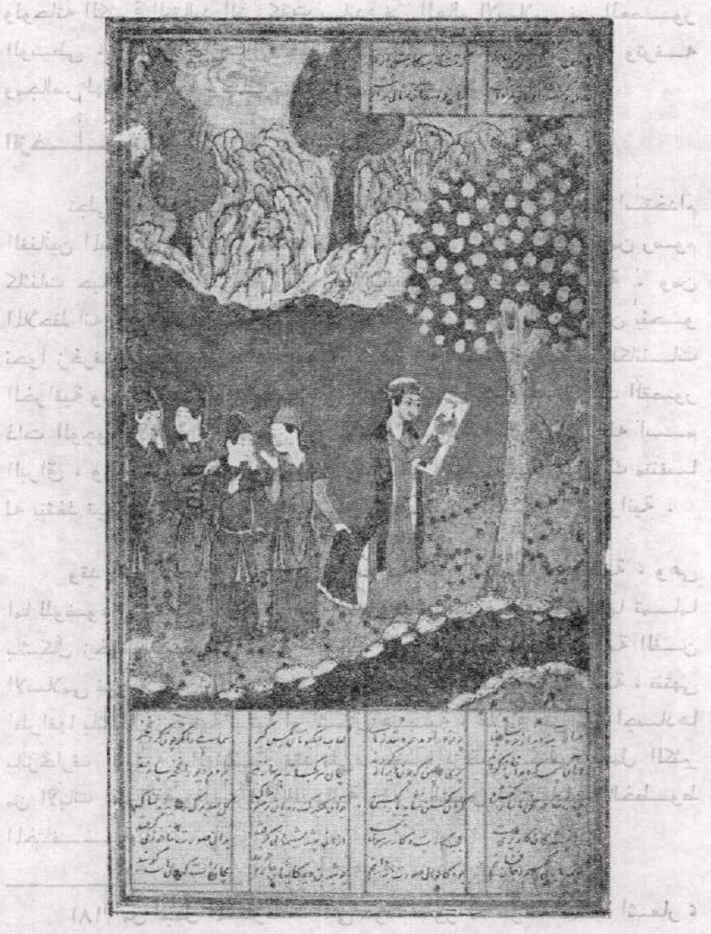
(١٧) مثال ذلك ما ورد فى مخطوطة جامع التواريخ للبيرونى ، وقد رسمت الصورة به سنة ١٣٠٧ م .



● السلطان بابر ... في لحظة تامل فكري (المدرسة المغولية ١٦٠٥)



استسلام شيراك للملك بابر



شيرين ترى صورة خسرو — من كتاب الخمسة نظامى

وقد عكست اعداد المخطوطات الكبيرة التى حوت رسومات من المعرض ولوحاته الكثيرة التقاليد التى كانت سائدة فى العالم الاسلامى فى العصـــور الوسطى ، وقدمت لنا صورة حية لعالم ذلك الوقت بأزيائه وأثاثه وترفـــه ومجالس لهوه وسمره ، كذلك بمعاركه ومغامرات أبطاله(١٨) .

الزخـــــرفة :

تجلى الطابع الزخرفى من الفن الاسلامى بشكل واضح فى استخدام الفنانين المسلمين فى تزويق منتجاتهم الفنية بشتى أنواع الزخارف من رسوم كائنات حية بطريقة زخرفية ومن زخارف هندسية ونباتية وكتابية . ومن الملاحظ أنه فى مجال استخدام الكائنات الحية ان الفنان المسلم كان ينحـــو نحوا زخرفيا بعيدا عن محاكاة الطبيعة ، كما انه استخدم رســـم الكائنـــات الخرافية وساعده خياله الخصب على ابتكار اشكال كثيرة ، مثل تلك القصور ذات الوجوه الآدمية او الفرس ذو الوجه الآدمى ، الذى اطلق عله اســـم البراق ، ورسم العنقاء وغيرها (١٩) وقد وجد الفنان المسلم فى ذلك متنفسا له يبتعد فيه عن محاكاة الطبيعة وتصوير المخلوقات البشرية والحيوانية .

وقد أنتج الصانع المسلم اوانى معدنية على اشـــكال حيوانية ، وهى اما للوضوء او مباخر ، والكثير من هذه الأوانى قد غطيت اسطحها تمـــاما بأشكال زخرفية يبدو فيها تكرار الوحدة الزخرفية تمشيا مع فلسفة الفـــن الاسلامى فى ملأ الفراغ . وكانت بعض الطيور او الحيونات المصنعة ، تنتهى اطرافها بأشكال زخرفية نباتية او اشكال هندسية ، علاوة على ملء اجسادها بالزخارف النباتية والهندسية فقد ملىء بعضها بزخارف كتابية تحمل الكثير من الآيات القرآنية والعبارات الدعائية وغير ذلك من الكتـــابات بالخطـــوط المختلفـــــة .

---

(١٨) من اجمل المخطوطات التى حوت صورا مخطوطة خمسة اشعار ، التى نظمها الشاعر نظامى لشاه الصفوى طهمـــاسب الأول فى تبـــريز (٩٤٦ — ٩٥٠ هـ) وهو يحتوى على ١٤ صورة رسمها أحسن رسامى العهد وعلى رأسهم محمد زمان .

(١٩) عبد الغنى محمد عبد الله : الزخرفة الاسلامية عناصر الكائنـــات الحية ، مقال بجريدة القبس الكويتية ، عدد الجمعة ١٩٨٠/٤/٤ .



● زخرفة كتابية في شكل حيواني وطيور

ومن حيث استخدام الزخارف النباتية ، فقد ابتكر الفنانون المســـلمون ما عرف فى العالم باسم فن الأرابيسك (الأرقشة) ، وهى زخرفة اسلامية اصيلة انفرد بها الفن الاسلامى .

وبلغ الفن الاسلامى فى الزخارف الهندسية مرتبة لا يدانيه فيها أى فن آخر ، وطور المسلمون زخارفهم ووضعوا لها أسس مدروسة وابتكروا انواعا تميز بها الفن الاسلامى وانفرد .

الخــط العــــربى :

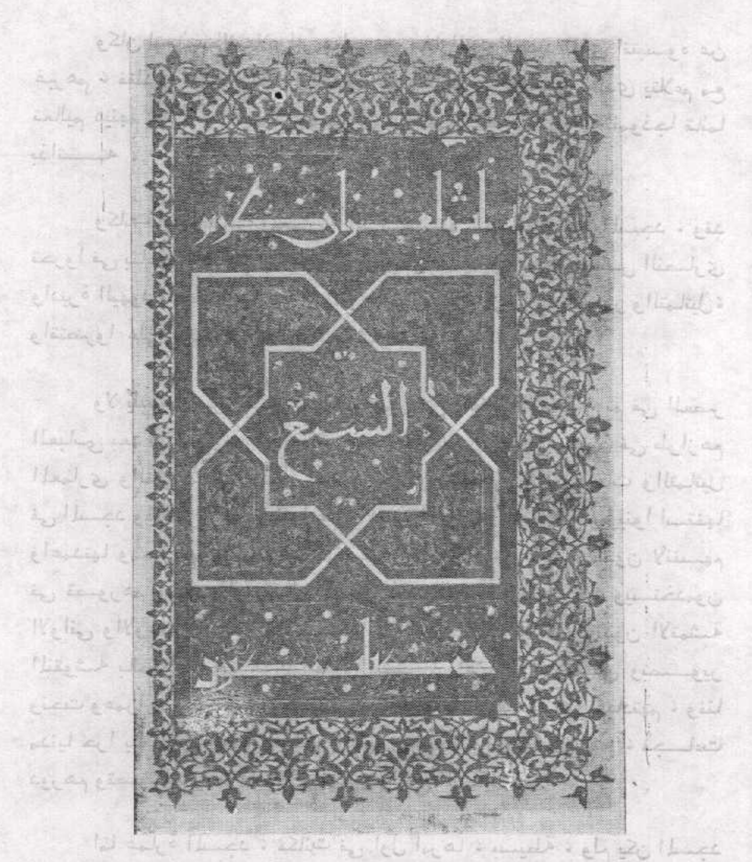
احتل الخط العربى مكان الصدارة بين الفنون الاسلامية ، ولم يقف دوره عند حد استخدامه كوسيلة للتعليم او للمكاتبات والتدوين ، بل استخدم ايضا كعنصر زخرفى اثرى وفى الكتابات التذكارية وزينت به العمائر وزوقت به منتجات الفنون التطبيقية واقبل المسلمون على اقتناء نماذجه الجميلة .

ولقد تفرع الخط العربى الى مجموعة من الخطوط تميز كل منهـــا بخصائصه المحددة ، وقد اندثر بعضها وبقى البعض الآخر . واهم هـــذه الخطوط نوعان رئيسيان هما : الخط الكوفى والخط النسخ . وبعد هـــذه الانواع يأتى : خط الثلث ، خط التوقيع (الاجازة) ، خط التعليق ، الخـــط الفارسى ، الخط الديوانى ، الخط الهمايونى ، خط الطغراء ، وخط الرقعة .

وقد غلب استعمال الخط الكوفى فى القرون الخمسة الأولى للهجرة ، فى المصاحف ، وفى الكتابات الأثرية ، وفى زخرفة الفنون التطبيقية ، فى حين غلب استعمال الخط النسخ فى المكاتبات اليومية وفى ديوان الانشـــاء وفى نسخ الكتب . الا أن الخط النسخ حقق انتصاره وصار له الشـــيوع فى الاستعمال بداية من عصر السلاجقة .

ب ــ العمـــــارة الاســـــلامية

كان لخروج عرب الجزيرة العربية الى خارجها ، فى صدر الاسلام ، وانتصارهم على الفرس والروم ، وتحقيقهم للسيادة وجمعهـــم للثـــروة ، واختلاطهم بشعوب البلاد المفتوحة واطلاعهم على فنونهم المعمارية ، كان لكل ذلك اثره فى ان اخذ العرب فى ترك حياة البداوة البسيطة وانغمسوا فى



صفحة العنوان لنسخة من القرآن كتبت لركن الدين بيبرس

حياة المدنية الجديدة ، فقلدوا الشعوب المفتوحة فى معمارهم ، مثلما قلدوهم فى باقى المجالات التى تتصل بالحياة المعيشية ، وشيدوا الدور والقصور من الحجارة والرخام وتركوا بيوت الطوب اللبن والخيام .

وكان لتعاليم الاسلام أثر عظيم فى هذا الفن الجديد الذى اقتبسوه عن غيرهم ، فقلدوه تقليدا باهرا وأدخلوا عليه الكثير من التطور الذى يتلاءم مع تعاليم دينهم حتى غدا لهم فن معمارى اسلامى خالص متميز له نموذجا قائما بذاتـــــه .

وكانت أول المبانى المعمارية التى اهتم بها المسلمون هى المسجد ، وقد تحروا فى بناء مساجدهم ان تكون فى معمارها مغايرة لمعمار كنائس النصارى وأديرة اليهود ومعابد الوثنيين ، فبنوها خالية من الرسوم والصور والتماثيل، واقتصروا على تزيينها بالآيات القرآنية .

ولا يُلبث ان نرى كثيرا من المسلمين فى العصر الأموى ، ثم فى العصر العباسى بعد ذلك ، وفى الدويلات المستقلة وبلاد الأندلس،ينحون فى طرازهم المعمارى والفنى منحى جديدا . فهم يحرمون الصور والرسومات والتماثيل فى المسجد ويقتصروا فى زينتها على الآيات القرآنية الخطية ، ويزينوا أسقفها وأعمدتها ومحاريبها بالزخارف الهندسية والثريات ، ولكنهم يبيحون لأنفسهم فى قصورهم ومدنهم استعمال الصور ذات الروح والتماثيل ، ويستخدمون الأوانى والأوعية الذهبية والفضية ذات الصور المختلفة ، ويرتدون الأقمشة المنقوشه بالصور ، ويرعون الفنون بشتى أنواعها من موسيقى وتصـــوير ونحت وعمران . فهم بذلك يخصصون فنا دينيا لمساجدهم ودور عبادتهم ، وفنا مدنيا حرا يتصل بما يمس حياتهم الدنيا وما تحمله فنونها من متع ، فجـــاءت دورهم وقصورهم زاخرة بأحلى الصور وأبدع التماثيل .

اما عمارة المسجد ، فكانت فى اول امرها ، بسيطة ، ولم يكن المسجد أكثر من بناء مربع يقوم سقفه على عمد من جذوع النخل اقتداءا بمســـجد الرسول بالمدينة . ثم تطورت عمارة المسجد على يد البنائين غير العرب وزادت فيه أجزاء ، ولم تلبث ان اخذت نظاما ثابتا لا تكاد تخرج عنه ، فكان معظمها يتكون من ساحة كبيرة مكشوفة فى الغالب ، تتوسطها بركة ماء ، ويحيط بها اربعة أروقة تسندها الأعمدة ، ويتجه احد هذه الأروقة نحو الكعبة

ويوجد فيه المحراب والمنبر . وقد اختلفت المساجد بعد ذلك فى اتساعها وفى فخامة بنائها مع العصور ووصلت الى قمة فخامتها فى العصر المملوكى .

ويلى المسجد فى المعمار ، من ناحية المكانة ، المدرسة ، وكانت المدرسة فى بادىء الأمر ملحقة بالمسجد ، ثم انفصلت عنه واستقلت ببناء خاص منذ القرن الرابع الهجرى . وكان تصميم المدارس فى الغالب ، يتكون من صحن مكشوف تحيط به ايوانات اربع فى شكل متعامد ، ويوجد فى احد هذه الايوانات مدخل المدرسة ، كذلك يوجد السلم الذى يؤدى الى الطابق العلوى .

ثم يأتى ، بعد ذلك ، الضريح او المسجد ، ويسمى كذلك « القبة » ، ويختلف تصميم الضريح باختلاف الاقطار الاسلامية ، لكنها فى معظمها لم تكن اكثر من غرفة تعلوها قبة .

وقد تأثر المسلمون فى بناء القباب بالمعمار البيزنطى ، ذلك لأن أقدم نماذج هذه القباب قامت فى الشام متأثرة بالفن البيزنطى . وتعتبر قبة الصخرة ، التى شيدها الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٧٢ هـ/٦٩١ م من اقدم نماذج القباب الاسلامية(٢٠) .

والرباط من الأبنية الاسلامية ، وهو نوع من الابنية العسكرية اخذت تسميته من مرابطة القوات الاسلامية به فى مناطق الثغور . وقد انتشرت بناء الأربطة فى صدر الاسلام ، وهى فى معظمها ابنية مستطيلة تعلوها ابراج محصنة للدفاع والمراقبة وتحيط غرفها بالصحن الداخلى دون أن تكون لها نوافذ . وقد زالت الصفة الحربية عن هذه الأربطة حين توقفت الحرب بين الدولة الاسلامية وجيرانها ، واقتصرت على أن تكون بيوتا لايواء المتصوفة .

---

(٢٠) يبلغ قطر هذه القبة ٢٠،٤٤ متر ، وهى مقامة على قاعدة مستديرة مكونة من اربع دعائم تحمل ستة عشر عقدا مدببا ويعلو العقود رقبة اسطوانية بها ١٦ نافذة . وقد صنعت هذه القبة من الخشب ثم غلفت بالرصاص .

وقد شيدت ، بعد ذلك ، بيوت خاصة لهؤلاء المتصوفة يتعبدون فيها ، عرفت باسم الخوانق ، ومفردها : خانقاه او خانكاه ، وعرفت أيضا باسم : التكايا والخـــلاوى .

ومن المنشآت الاجتماعية والتجارية العامة التى عرفها العالم الاسلامى الوكالات والقياسر والفنادق والخانات فى أســـواق المدن لايـــواء التجـــار المغتربين وتخزين بضائعهم وعرضها للبيع ، والأسبلة والحمـــامات لعـــامة الناس . كذلك البيمارستانات والمستشفيات العامة والمتخصصة .

اما القصور الاسلامية ، فلقد افادتنا كتب التاريخ والأدب عن اتساع نطاق بناء هذه القصور فى الدولة الاسلامية وبخاصة قصور الخلفاء والوزراء فى العصر العباسى(٢١) ، الا أن غالبية هذه القصور قد اندثرت للاسف ولم يبق الا بعض اطلالها ، مما لا يسمح لنا بمعرفة نظامها وأصول تصميمها .

وقد وجد فى هذه القصور ملاعب وساحات واسعة ، واتصلت بهـــا مخازن كبيرة عرفت باسم الخزائن . وقد تعددت انواع هذه الخزائن وتسمت بأسماء ما يحفظ بها مثل : خزائن الكتب ، وخزائن الكسوات ، وخزائن البنود (الأعلام) وغير ذلك . وقد تحدث المقريزى عن خزائن الفاطميين وافاض الحديث عنها فى كتابه الخطط . يضاف الى ذلك ما الحق بهذه المبانى وعرف باسم الحواصل ، وهى اصطبلات للخيل ومناخات للجمال واهـــراء لتخـــزين الغلال والتبن ومخازن للبضائع ، زيادة على الطـــواحين والمطابخ . وقـــد أحاطت بهذه القصور الحدائق الغناء والحقت بها البساتين الخضراء .

وقد تميز كل قطر من اقطار الدولة الاسلامية بعدد من الميزات المعمارية جعلتنا نقسم انماط العمارة الاسلامية الى خمسة انماط ، هى : النمـــــط السورى المصرى والنمط العراقى الفارسى ، والنمط الهنـــــدى ، والنمط الاندلسى ، والنمط العثمانى .

---

(٢١) روى النويرى أن الخليفة المتوكل العباسى قـــد بنى خمس عشرة قصرا فى بغداد وسامرا ، وانها كانت غاية فى الجمال والكمال ، وان لـــكل منها اسمه الخاص مثل : الكامل ، الجعفرى ، العروس ، البرج ، وقالوا ان البرج كان أفخمها وقد بلغت النفقة عليه مليون و ٧٠٠ الف دينار .
(النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ص ٤٠٦) .

النمط الســورى المصرى :

وقع البناء الاسلامى فى مصر والشام تحت تأثيرات محلية متشابهة منذ العصر الأموى ، اتصلت بالفن البيزنطى ، واستمر التشابه المعمارى قائما بين القطرين حتى العصر العثمانى .

ومساجد هذا النمط مستطيلة الشكل وسقوفها مسطحة ، وقد ظهرت القباب والمقرنصات فيها منذ العهد الفاطمى ، ومآذنها مضلعة . واهم ابنية هذا النمط : جامع عمرو بن العاص فى الفسطاط ، والجامع الأموى بدمشق، وقبة الصخرة بالقدس ، والجامع الأزهر بالقاهرة ، والمدرســـــة الظاهرية والعادلية فى دمشق ، وقلعة حلب(٢٢) .

النمط العراقى الفارسى :

فى هذا النمط ظهرت الزخرفة على الأبواب ، وصارت المآذن اسطوانية عامة ، وزخرفت القباب من الداخل والخارج . واشتهرت هذه المبـــــــانى العراقية الفارسية باستعمال القاشانى بزخارفه النباتية ، وقد ظهر هذا النمط واضحا فى بغداد وسامرا واصفهان . ولقد اندرست معظم مبانى هــذا النمط ، ولم يتبق منها الآن سوى « مسجدى شاه » بأصفهان ، وكان قد بناه الشاه عباس ، ويعتبر من المبانى الجميلة فى العالم بســبب جمال زخرفتــه الداخليـــة وغنـــاها .

النمــط الهنـــــدى :

وقد ظهر هذا النمط فى المعمار بشمال الهند منــذ القــرن السادس الهجرى فى الأبنية الاسلامية التى تأثرت بالمعمار الهندى القائم هناك . ولقد طور حكام المغول وسلاطينها هذا النوع من المعمار بأن ادخلوا عليه القوس والقبة واقتبسوها من النمط الفارسى العراقى ، وزادوا على ذلك بتوسعهم فى استخدام الرخام فى البناء . وتعد مدينة دهلى أشهر مراكز هــذا النمط

---

(٢٢) أنور الرفاعى : الاسلام فى حضارته ، ص ٣٧١ .

المعمارى الهندى الاسلامى بما تحتويه من قصر حكام المغول والجامع الأكبر . ويعتبر مبنى تاج محل أشهر آثار الهند الاسلامية(٢٣) .

النمط الاندلسى :

وقد ظل الطراز الأموى سائدا فى الأندلس حتى القرن الخـــامس الهجرى ، وقد برز خاصة فى جامع قرطبة . وقد شيد جامع قرطبة ، فى اول امره ، كجامع صغير غداة الفتح الاسلامى للاندلس ، وقد أعاد الأمــير عبد الرحمن الأول (الداخل) بناءه سنة ١٦٩ هـ/٧٨٥ م متأثرا فى بنــائه بالمسجد الأموى فى دمشق . وقام الأمير هشام الرضا بن عبد الرحمن الداخل بتوسعة الجامع سنة ١٧٥ هـ . وزاد الأمير عبد الرحمن الثانى (الأوسط) (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) فى هذا المسجد زيادة كبيرة من ناحية المحراب جنوبا . وجاء تاكبر الزيادات فى هذا الجامع على يد الخليفة عبد الرحمن (الناصر) الثالث (٣١٦ — ٣٢٢ هـ) ، كذلك تمت توسعة هذا الجامع فى عهد الخليفة الحكم الثانى (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) ، واجرى هذا الخليفة الماء العــذب الى سقاياته . وآخر الزيادات التى دخلت على هذا الجامع كانت فى عهد الحاجب المنصور بن ابى عامر سنة ٣٨٠ هـ ، واصبحت مساحة المسجد ، بعد هــذه الزيادات جميعا ، ٢١٨٧٥ متر مربع ، وصار طول مئــذنته ثلاثة وســبعين ذراعا .

واقد ازدهر الطراز الأندلسى فى عهد المرابطين والموحدين ، وبلغ أوجه فى قصر الحمراء بغرناطة وفى قصور مدينة الزهراء .

وبعد سقوط اسبانيا فى يد المسيحيين ، استمر الفن الأندلسى قائمــا بها مدة قرن من الزمان وتجاوزها الى الجزر الغربية ، وعرف باسم الفن المدجن . وقد جاءته هذه التسمية بسبب استمراره على يد المدجنين ، وهــم المسلمون الأندلسيون الذين استمروا تحت الحكم الاسبانى المسيحى . وقــد

---

(٢٣) هو ضريح تذكارى ازوجة الشاه جهان،التى توفيت سنة ١٦٣١م، وقد استغرق بناؤه اثنين وعشرين عاما ، وكان يعمل فى بنائه عشرين الف عامل (انور الرفاعى : الاسلام فى حضارته ، ص ٣٧٢) .

ظهر أثر هؤلاء المدجنين فى زخرفة الكنائس القوطية والرومية ، وفى القصور التى ابتناها الملوك الأسبان المسيحيون لأنفسهم(٢٤) .

النمــط العثمــانى :

تميزت مبانى هذا النمط المعمارى باستخدام القاشانى الأزرق فى البناء، والأحجار الملونة فى بعض الأحيان . وقد تميزت الجوامع العثمانية بتكوينها من قاعة مربعة ليس لها صحن خارجا تعلوها قبة منخفضة ، وعلى طرفى القاعة تبنى غرف نصف دائرية تعلوها قباب نصفية . أما مآذنها فهى مستديرة ورشيقة تسترق فى أعلاها ولها الشرفتان أو الثلاثة . وابرز ابنية هذا النمط جامع السلطان بايزيد بالقسطنطينية ، وجامع السليمانية .

جـ ــ الموســـــيقى

الموسيقى من الفنون الحسية التى كان للعرب اثر كبير فيها ، فقــد ترجم العرب بعض ابحاث اليونان فيها ، كما الفوا واضافوا الكثير من الكتابات والأنغام والآلات المبتكرة فيها مستفيدين بما كان عنــد الفراعنــة والبابليين والآشوريين من أصول هذا الفن .

ومن اهم علماء العرب الذين الفوا فى الموسيقى : الكندى ، يعقــوب ابن اسحق (ت ٢٧٥ هـ) ابو نصر الفارابى (ت ٥٩٠ هـ) وابن ســــينا الشيخ الرئيس (ت ٤٢٨ هـ) وعبد المؤمن (ت ١٢٩٤ م) .

أما الكندى ، فقد كتب عدة رسائل فى الموسيقى ، منها : رســالة فى ترتيب النغم ، ورسالة فى الايقاع ، ورسالة فى المدخل الى صــــنعة الموسيقى ، وللأسف لم يبق من كتاباته سوى أربع رسائل صغيرة(٢٥) .

---

(٢٤) أبو صالح الألفى : نفس المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

(من ابرز هذه المبانى ، ذلك القصر الذى بناه المدجنون فى اشبيلية سنة ١٣٥٤ ، ويعرف الآن باسم الكازار) .

(٢٥) من هذه الرسائل رسالة بعنوان : فى خبر تأليف الالحان ، وهى مخطوطة محفوظة بمكتبة المتحف البريطانى ، تحت رقم 823 Music

واما الفارابى ، فقد كان اعظمهم جميعا ، وقد اعترف بمهارته فى هذا الفن كل من كتاب الشرق والغرب جميعا . وكان سيف الدولة الحمدانى حاكم حلب ، قد استدعى الفارابى الى حلب حيث جذبت شهرته عشـــاق الموسيقى من كل مكان فأقبلوا عليه ليحاضرهم ويمتعهم بهذا الفن الرفيع .

وقد ألف الفارابى كثيرا فى الموسيقى ، ومن كتاباته فيها : كتـــاب « الموسيقى الكبير » ، وكتاب كلام فى الموسيقى ، وكتاب فى احصاء الايقاع » ، وللأسف أيضا فقد ضاعت جميع تآليف الفارابى فى الموسيقى ولم يصلنا منها سوى الجزء الأول من كتابه الموسيقى الكبير(٢٦) . وقد عـــرف الغـــرب الفارابى باسم « الفارابيوس » Alpharabius

كذلك اسهم الطبيب الشهير الشيخ الرئيس ابن سينا فى تقدم عـــلم الموسيقى ، وله ثلاث رسائل فيها اوردها فى كتاب « الشفاء » الذى ضـــاع أصله العربى وبقيت ترجمته اللاتينية . وكان ابن سينا يستخدم الموسيقى ، فى علاج بعض حالات مرضاه ، خاصة اولئك المـــرضى بأمراض نفســـية او عصـــبية .

أما صفى الدين عبد المؤمن (١٢١٦ — ١٢٩٤ م) ، فقد الف كتـــابا بعنوان : « بهجة العيون فى الموسيقى » ، ووضع السلم الموسيقى ، ويعتبر هذا السلم باعتراف باحثى الغرب اكمل سلم ظهر فى الموسيقى . ويعد من اعظم المؤلفين فى الموسيقى والحاذقين فيها بعد الفارابى .

هذا ولقد توصل الموسيقيون المسلمون الى وضع النوتة الموسيقية ، واخترعوا العديد من السلالم الموسيقية والمقامات ، وصنعوا آلات موسيقية جديدة وطوروا آلات عرفها من قبلهم . من الآلات الموسيقية التى اخترعوها : العود والطنبور والربابة والقيثارة .

ولقد تحدث أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه « الأغانى » عن كثـــير من الموسيقيين والملحنين الذين أثروا الموسيقى والغناء فى العصرين الأموى

---

(٢٦) عرف هذا الجزء باسم كتاب المدخل فى الموسيقى ، وهو مخطوط محفوظ بمكتبة المتحف البريطانى ، تحت رقم 823 Music

والعباسى مثل : اسحق الموصلى وابنه ابراهيم ، كـذلك تحـدث عن بعض الجوارى اللائى يعزفن الألحان ويقمن بتأليفها .

وقد ازدهرت الموسيقى العربية حين انتقلت الى الأندلس ، وكانت قرطبة مركز هذا الازدهار . وكانت الموسيقى العربية الشرقية قد أخذت تغزو الأندلس فى عهد الأمير الأموى عبد الرحمن (الأوسط) الثانى (٢٠٦ — ٢٣٨هـ ٨٢٢ — ٨٥٢ م) ، وكان هذا الأمير قد فتح بلاده لكل ما هو شرقى . وقـد ازدهرت الموسيقى فى الأندلس بوصول المغنى الموسيقى العراقى ، الفارسى الأصل ، ابو الحسن على بن نافع الشهير بزرياب(٢٧) . وقد انتقل زرياب ، فى عهد الأمير ، الى الأندلس ونقل معه الحياة العراقية بمظاهرها الفنيـة والاجتماعية المختلفة . ولقيت مدرسة زرياب . الممثلة فى شخصه وفى أبنائه وبناته وجواريه ، نجاحا كبيرا فى الأندلس طغى على مدرسة الحجاز الموسيقية القديمة . وقد علم زرياب الأندلسيين طرقا موسيقية جديدة ، واضاف وترا خامسـا على العـود .

والى مدرسة زرياب الموسيقية ، يرجع الفضل فى ظهور الموسـيقى الأندلسية والطرب الأسبانى الذى جاء نتيجة لامتزاج الموسيقى الشرقية مع موسيقى الغرب الأوربى(٢٨) . وما فتئت الموسيقى ، كالرقص الى يومنا هذا فى اسبانيا او فى البلاد التى تغلبت عليها اسبانيا فى سالف الدهر ، عربية شرقية لم يدخلها غير تعديل طفيف بحكم الزمن وطول العهد(٢٩) .

---

(٢٧) زرياب كلمة فارسية تطلق على طائر اسود حسن التغريد ، وقد اطلق هذا الاسم على ابى الحسن لجمال صوته وسواد لونه مما يجعـله يتشابه مع هذا الطائر المغرد المحبـوب .

(٢٨) عن الموشحات الأندلسية ، انظر مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٨٧ وما بعدها .

(٢٩) محمد كرد على : الاسلام والحضارة ، جـ ١ ، ص ٢٣٧ .

الفصل السابع

أثر الحضارة الاسلامية فى الغرب وفى العالم
ومجالات التأثير فى الآداب والعلوم والفنون

أثر الحضارة الاسلامية فى الغرب وفى العالم :

كانت أوربا تتلقى آثار الثقافة العربية الاسلامية من ثلاث جهات متلاحقة فى العصور الوسطى : اولاها جهة القوافل التجارية التى تغدو وتروح بين آسيا وأوربا الشرقية والشمالية عن طريق بحر الخزر او طريق القسطنطينية . والجهة الثانية هى جهة المستوطنات التى احتلها الصليبيون وعاشوا فيها زمنا طويلا فى بلاد الشام وفى بعض الأقطار الاسلامية(١) . والجهة الثالثة هى جهة الأندلس(٢) وصقلية(٣) وغيرهما من البلاد التى قامت فيها دول المسلمين وانتشرت فيها اللغة العربية .

ولم تكن بلاد الأندلس هى المجاز الوحيد بين القارة الأوربية والحضارة الاسلامية ، وذلك لأن القوافل التجارية التى كانت تنقل البضائع من آسيا الغربية الى اوربا الشرقية لم تكن لتنقطع فى اى وقت من الأوقات فى عصر من العصور ، كذلك فان شعوب اوربا عرفت الشيء الكثير عن شعوب الشرق من خلال الاحتكاك العسكرى والحضارى ابان الحروب الصليبية . على أن شبه الجزيرة الأيبيرية هى البقعة الوحيدة فى أوربا التى يقال ، على وجه التحقيق ، التى لم تعرف عصرا ذهبيا زاهرا فى تاريخها كله غير العصر الذهبى الذى عاشت فيه أيام الحكم الاسلامى لها .

---

(١) بدأت الحروب الصليبية سنة ١٠٩٩ م وسقطت آخر معاقل الصليبيين فى يد قوات المماليك الاسلامية سنة ١٢٩١ م فى عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون .

(٢) فتح العرب الأندلس على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير سنة ٩٢هـ/٧١١ م ، وظل الحكم الاسلامى هناك حتى سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م .

(٣) فتح العرب صقلية فى عهد الأغالبة على يد قائدهم أسد بن الفرات سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م وكانت قبل ذلك فى يد البيزنطيين ، وبقيت صقلية فى يد المسلمين حتى استولى عليها النورمانديون سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م .

ففى هذا العصر ، وبخاصة عصر الحكم الاموى ، كانت المدن الأندلسية، وبخاصة مدينة قرطبة اعمر المدن فى القارة الأوربية من أقصاها الى اقصاها . وكانت من مظاهر تقدم العلم فيها وازدهاره آنذاك أن ناسخا واحدا فى محل وراقة كان يستخدم مائة وسبعين جارية فى نقل المؤلفات المختلفة لطـــلاب الكتب النادرة . كذلك كانت فى خزانة قصر الخليفة ما يزيد عن الأربعمائة الف كتاب . وكان سادات اوربا يفاخرون بما يقتنونه من منسوجات الأندلس او مصنوعاتها المعدنية او آنياتها الفخارية التى لم يكن يعرف لها نظير فى بلد آخر . وكان عدد سكان قرطبة آنذاك مليون نسمة فى الوقت الذى لم يزد فيه عدد سكان أى مدينة فى اوربا عن الخمسين الفا على اكبر تقدير .

والى مدن الأندلس : قرطبة واخواتها : غرناطة ، اشبيلية ، مرسية ، مالقة ، وطليطلة كانت تتجه وفود الأوربيين فى طلب العلم والدواء وادوات الترف والزينة وفرق الموسيقى والغناء . ولم يكن الفتح الاسلامى للاندلس فى الواقع فتحا فرض على الناس بحد السيف ، ولكن كان فى حقيقة الأمـــر حضارة جديدة بسطت شعاعها على جميع مرافق الحياة فيها .

ولقد ثبت للعالم ، وأكد ذلك علماء الغرب المنصـــفون ان الأوربيين تناولوا مشعل العلم من ايدى المسلمين حين اتصـــلوا بهم واطلعـــوا على حضارتهم ، فاستضاءوا بعد ظلمة ، وبلغوا به بعد ذاك ما بلغوه من هـــذا التقدم العلمى العظيم الذين يعيشون فيه اليوم . ولولا هذا الاطلاع وهـــذا الاحتكاك لظلت اوربا ، ربما لقرون عديدة اخرى ، تعيش فى الظلام والجهالة التى رانت عليها فى العصور الوسطى . ويقول فى ذلك المستشرق ليترى(٤) « لو حذف العرب من التاريخ لتأخرت نهضة الاداب فى الغرب عدة قرون » ولقد أجمل المؤرخ الفرنسى المنصف جوستاف لوبون ، فى كتابه حضـــارة العـــرب(٥) ، تأثير حضارة الاسلام فى الغرب وارجع فضل حضارة اوربا الغربية اليها وقال ان تأثير هذه الحضارة « بتعاليمها العلميـــة والأدبيـــة

---

(٤) محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، جـ ١ ، القـــاهرة ١٩٣٤ ، ص ١٩٤ .

(٥) جوستاف لوبون : حضارة العرب ، تحقيق عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٢٦ ، ٥٦٦ ، — ٥٦٩ .

والأخلاقية عظيما » ، ولا يتأتى للمرء معرفة التأثير العظيم الذى اثره العرب فى الغرب الا اذا تصور حالة اوربا فى الزمن الـذى دخلت فيه الحضـارة « واضاف لوبون بأن عهد الجهالة قد طال فى أوربا العصور الوسطى وان بعض العقول المستنيرة فيها قليلا لما شعرت بالحاجة الى نفض الجهالة عنها » طرقت ابواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون اليه لأنهم كانوا وحدهم سـادة العلم فى ذاك العهد .

ويقرر لوبون ان العلم لم يدخل أوربا عن بلاد العرب فى الحـروب الصليبية كما هو شائع ، بل دخل فقط بواسطة الأندلس وصقلية وايطاليا . وانه فى سنة ١١٢٠ م انشئت مدرسة للترجمة فى طليطلة بالاندلس بعنـاية ريمولد رئيس الأساقفة ، وان هذه المدرسة اخذت تترجم الى اللاتينية اشهر مؤلفات المسلمين . ولم يقتصر هذا النقل على كتب الرازى وابن سينا وابن رشد فحسب بل نقلت اليها كتب اليونان التى كان العـرب قد نقلـوها الى لسانهم ، ويضيف لوبون ان عدد ما ترجم من كتب العرب الى اللاتينية يزيد على ثلثمائة كتاب .

ويؤكد لوبون فضل العرب على الغرب فى حفظ تراث اليـونان القديم بقوله : « فالى العرب ، والى العرب وحدهم ، لا الى رهبان القرون الوسطى ممن كانوا يجهلون حتى وجود اللغة اليونانية ، يرجع الفضل فى معـرفة علوم الأقدمين . والعالم مدين لهم على وجه الدهر لانقاذهم هذا الكنز الثمين وان جامعات الغرب لم تعرف لها ، مدة خمسة قرون ، موردا علميا سـوى مؤلفاتهم وانهم هم الذين مدنوا اوربا مادة وعقلا ، وأخلاقا ، وان التاريخ لم يعرف امة انتجت ما انتجوه فى وقت قصير ، وانه لم يفقهم قوم فى الابداع الفنى »(٦) .

واكد لوبون اثر الاسلام واثر حضارته فى كل بلد استظلت برايتـه قائلا : « كان تأثير العرب فى عامة الأقطار التى احتلوها عظيما جـدا فى الحضارة ، ولعل فرنسا كانت اقل حظا فى ذلك ، فقد رأينا البلاد تتبـدل صورتها حيثما خفق علم الرسول الذى اظلها بأسرع ما يمكن ، وازدهرت فيها العلوم والفنون والاداب والصناعة والزراعة أى ازدهار » .

---

(٦) لوبون : حضارة العرب ، ص ٢٦ ، ص ٥٦٨ .

وأشاد لوبون بفضل العرب فى نشر العلوم وفتح الجامعات فى البلاد التى استظلت برايتهم فيقول ما نصه : « ولم يقتصر شأن العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه ، فالعرب قد نشروها ، كذلك ، بما اقاموا من الجامعات وما الفوا من الكتب ، فكان اهم الأثر البالغ فى اوربا من هذه الناحية . ولقد كان العرب اساتذة للامم المسيحية عدة قرون ، واننا لم نطلع على علوم القدماء والرومان الا بفضل العرب وان التعليم فى جامعاتنا لم يستغن عما نقل الى لغاتنا من مؤلفات العرب إلا فى الأزمنة الحاضرة(٧) .

مجالات التأثير فى الآداب والعلوم والفنون :

لقد كان تأثير الحضارة الاسلامية على أوربا تأثيرا شاملا فى شتى نواحى الحياة ، فيما يتصل بالمعارف والعلوم والفنون والتعامل اليومى .

وفى مجال الآداب ، لو نظرنا الى لغات الأوربيين نجد كلمات لها دلالة على أثر المعيشة العربية فى المعيشة الأوربية بالمعاشرة او الاتباع فى الحكم أو تبادل التجارة . وقد انعكس هذا التأثير فى اللغة اذ دخلت كلمات عربية الى اللغات الأوربية ظلت بها كما هى حتى الآن او بإدخال تعديل وتغيير طفيف عليها .

والكلمات العربية التى دخلت فى اللغات الأوربية كثيرة العدد ، ونحن نورد فى هذا المقام قائمة منها على سبيل المثال لا الحصر .

من هذه الكلمات : كلمة : قطن Coton ، حرير موصلى Muslin
حرير دمشقى ، Damas ، الجبه Jupe ، المسك Musk
زعفران Suffron ، شراب Syrup ، جرة Jar **أرز Rice**
نارنج وبرتقال Orange ، ليمون Lemon ، سكر Sugar ، Sucre
قهوة Coffee .

ولقد شاعت هذه المفردات وغيرها فى الانجليزية والفرنسية وبعض اللغات الأوربية الأخرى .

---

(٧) لوبون : نفس المصدر السابق ، ص ٤٣٧ .

أما الكلمات العربية التى دخلت الأسبانية والبرتغالية فهى كلمات لا تعد ولا تحصى ومنها على سبيل المثال : القباء : Gaban ، البناء : Albanil
المخزن : Almacen ، القطران : Alquitran الفندق : Fonda
الطاحون : Tahone ، القبة Alcoba ، الساقية : Assaquiya
الرطـــل : Arratel

غير ألفاظ كثيرة من اسماء الحاجيات المتداولة او الاعلام على المواقع والبلاد(٨) . وقد بلغت المفردات العربية التى أضافها الأسبان واهل البرتغال عموما الى لغتهم ما يملأ معجم غير صغير ، لأن هذه المفردات دخلت فى احوال المعيشة ونوازع الاحساس والتفكير .

٢ — فى الأدب :

ثبتت الصلة بين طائفة من عباقرة الشعر فى أوربا بأسرها ، خلال القرن الرابع عشر الميلادى وما بعده ، وموضوعات الأدب العربى والثقافة العربية على وجه لا يقبل التشكيك ولا يسمح بالأفكار . ونخص بالذكر من هؤلاء : بوكاشيو وبترارك ودانتى وهم من اعلام النهضة الايطالية ، وشسر الكاتب الانجليزى الشهير وسرفانتيز الأسبانى ، والى هؤلاء يرجع الأثـــر والتأثير البارز فى عملية نهضة الأدب بأوربا .

ففى عام ١٣٤٩ كتب بوكاشيو(٩) حكاياته التى سماها « الليـــــالى العشرة » وحذا فيها حذو ليالى الف ليلة وليلة التى كانت منتشرة حكاياتها فى مصر والشام ، وقد ضمن حكاياته مائة حــكاية على غـــرار الف ليلة وليلة واسندها الى سبع من السيدات وثلاثة من الرجال الذين اعتزلوا فى بعض

---

(٨) لمعرفة اكبر عدد من هذه الألفاظ والأسماء انظر : دوزى ، ر : معجم الكلمات الأسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية ، طبعة بيروت ١٩٧٤ ، وغيرها من الطبعـــات .

(٩) هوجوفانى بوكاشيو (١٣١٣ — ١٣٧٥) ، يمثل فى النثر الأدبى الايطالى ما يمثله دانتى فى الشعر ، وهو احد خالقى الحركة الانسانية فى الأدب الأوربى الذى بشر به عصر النهضة .

ضواحى مدينة فرارا من مرض الطاعون ، وفرضوا على كل منهم حكاية يقصها على اصحابه فى كل صباح لقضاء وقت الفراغ وقتل الملل .

وقد ملأت هذه الحكايات اقطار أوربا واقتبس منها الكاتب الانجليزى الشهير « وليم شكسبير » موضوع مسرحية « العبرة بالخواتيم » «All is well that ends well» كذلك اقتبس منها « ليسينج » الالمانى مسرحية « ناتان الحكيم » وكان شوسر امام الشعر الحديث فى اللغة الانجليزية من اكبر المقتبسين من بوكاشيو فى زمانه ، لأنه التقى به حين زار ايطاليا ونظم بعد ذلك قصصه المشهورة باسم « قصص كانتربرى ، وأدارها على محور يشبه المحور الذى اختاره بوكاشيو لقصص « الديكاميرون » II Decamerone (١٠) .

وكانت صلة دانتى(١١) بالثقافة الاسلامية أوضح من صلة بوكاشيو وشوسر ، ذلك لأن دانتى اقام فى صقلية فى عهد الملك فردريك الثانى ، الذى كان مدمنا لدراسة الثقافة الاسلامية فى مصادرها العربية الأصيلة . وقد لاحظ احد المستشرقين ان الشبه قريب جدا بين وصف الجنة فى كلام الصوفى الكبير محيى الدين بن عربى المرسى (١١٦٤ — ١٢٤٠ م) فى مؤلفه الكبير الفتوحات المكية واوصاف دانتى لها فى الكوميديا الالهية . وقد كان دانتى يعرف شيئا غير قليل عن سيرة نبى الاسلام محمد عليه الصلاة والسلام ، فاطلع على الأرجح ، من هذا الباب على قصة الاسراء والمعراج ومراتب السماء ، ولعله اطلع على رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، واقتبس من كل هذه المصادر معلوماته عن العالم الآخر التى أوردها فى الكوميديا الالهية . والدليل الذى يؤكد تأثر دانتى بقصة الاسراء والمعراج الاسلامية هو وجود ثلاث مخطوطات لهذه القصة بالقشتالية (الأسبانية) ، واللاتينية ، والفرنسية ، عثر عليها الباحث الأسبانى خوسيه مونيوث سنديتو . وكان الملك الفونسو الحكيم قد أمر بترجمتها الى هذه اللغات عن الأصل العربى ،

---

(١٠) تعتبر هذه القصص صورا واقعية صادقة للمجتمع الايطالى فى القرن ١٤ .

(١١) هو دانتى الليجيرى (١٢٦٥ — ١٣٢١) وهو من مفاخر عصر النهضة ، وهو صاحب الكوميديا الالهية .

وقد تم نشر هذه النصوص الثلاثة فى مدريد سنة ١٩٤٩ ، تحت عنوان « معراج محمد » La Escala de Mahoma (١٢) . وقد قام الباحث الايطالى انريكو تشيرولى Enrico Cerulli بترجمة ايطالية للنصين الجديدين مع بحث واف للمسألة من وجهة النظر الجديدة ، وذلك تحت عنوان : « كتاب المعراج ومسألة الأصول العربية للكوميديا الالهية » Il libro della Scala ela Questione della Fonti Arabo espagnde della Divina Comedia. (١٣)

ولقد أيد هذا البحث الجديد المستشرق الايطالى ليفى دلافيدا Levi dela Vida (١٤)

وقد عاش بترارك فى عصر الثقافة العربية بايطاليا وفرنسا ، ودرس العلم بجامعتى مونبلييه وباريس بفرنسا وكلتاهما قامتا على تلاميذ علماء المسلمين فى الجامعات الأندلسية .

أما سرفانتيس ، فقد عاش فى الجزائر بضع سنين ، والف كتابه « دون كيشوت » ، بأسلوب لا يشك من يقرأه فى اكتشاف ان كاتبه اطلع على الأمثال العربية — وعرف العبارات العربية وفهمها . ولقد جاءت الروح الفكاهية التى اسبغها سرفانتيس على دون كيشوت من واقع الفكاهة الشرقية الأندلسية .

أما عن الشعر ، فلقد قال دانتى ان الشعر الايطالى ولد فى صقلية بفضل الشعر العربى وبتأثير منه . ولقد شاع نظم الشعر بالعامية فى اقليم بروفانس فى جنوب فرنسا ، وانتشر الشعر من ذلك الاقليم على يد الشعراء الجوالين الذين عرفوا باسم « التروبادور » . وواضح أن الأوربيين اشتقوا هذا الاسم من كلمة طرب او طروب العربية . ولقد وجدت فى أشعار الأوربيين بشمال الأندلس كلمات عربية واشارات لعادات اسلامية .

---

(١٢) سهير القلماوى : أثر العرب والاسلام فى النهضة الأوربية ، دراسة منظمة اليونسكو ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١١٧ .

(١٣) نشر فى الفاتيكان سنة ١٩٤٩ .

(١٤) سهير القلماوى : نفس المصدر السابق ، ص ١١٨ قام بترجمة الكوميديا الالهية الى العربية الباحث المؤرخ الراحل دكتور حسن عثمان .

أما فى مجال القصة الأوربية فنجد ان هذه القصة تأثرت فى نشـــأتها بما كان عند العرب من فنون القصص فى العصور الوسطى وهى : المقامات ، وأخبار الفروسية ، وامجاد الفرسان ومغامراتهم لاحراز المجد او فى سبيل العشق . وترى طائفة من النقاد الأوربيين ان « رحلات جاليفر » التى ألفها سويفت ، ورحلة « روبنسون كروزو التى ألفها ديفوى ، تدين لقصـــص الف ليلة وليلة ، ولرسالة حى بن يقظان التى ألفها الفيلسوف الأندلسى المسلم ابن الطفيل . وقد وضح انه كان لترجمة الف ليلة وليلة الى اللغات الأوربية أول القرن الثانى عشر اثرا عظيما وبالغ الخطورة على الأدب الأوربى .

هذا ولم تنقطع الصلة بين الأدب الاسلامى والآداب الأوربية الحديثـــة حتى اليوم . ويكفى لبيان الأثر الذى أبقاه الأدب الاسلامى فى آداب الأوربيين اننا لا نجد اديبا واحدا من نوابغ الأدباء عندهم قد خلا شـــعره أو نثره من الاشارة الى بطل اسلامى ، او نادرة اسلامية . ومن هؤلاء : شكسبير ، أديسون ، بايرون ، سوذى ، كولردج ، شيلى من ادباء الانجليز . ومن ادباء الألمان : جيتى ، هردر ، وليسينج . ومن ادباء فرنسا : فولتير ، لافونتين . ولقد صرح لافونتين باقتدائه فى أساطيره التى الفها بكتاب كليلة ودمنة الذى عرفه الأوربيون عن طريق المسلمين .

٣ — فى الفلســـفة :

كان أثر المسلمين فى التفكير الفلسفى لأوربا عظيما ، وكانت اســـبانيا هى مركز تأثير الفلسفة الاسلامية على الفكر الأوربى الغربى لأن اوربا لم تعرف فلاسفة الشرق الا عن طريق الأندلس حيث أشرف ريموند اســـقف طليطلة على ترجمة اعمال الفارابى وابن سينا والغزالى وغيرهم .

والعرب هم الذين حفظوا فلسفة كبار فلاسفة اليونان وعلى ما سطروه فى كتبهم وبخاصة أرسطو واوصلوا هذا التراث الى الغرب . فاتصال العقلية الأوربية الغربية بالفكر العربى هو الذى اثار حكمة الأوربيين لدراســـــة الفلسفة اليونانيـــة .

ولقد قرر روجر بيكون ان معظم فلسفة أرسطو ظلت عديمة الأثر فى الغرب لضياع المخطوطات التى حوت هذه الفلسفة او لندرتها وصـــعوبة تذوقها حتى ظهر فلاسفة المسلمن الذين قاموا بنقل فلسفة أرسطو وشرحها وعرضها على الناس عرضا شاملا .

ويأتى من فلاسفة الأندلس الذين كان لهم أعمق الأثر فى الفكر الأوربى: ابن ماجه وابن الطفيل وابن رشد ، وهؤلاء جميعا كان تأثيرهم فى غــرب أوربا أكثر منه فى العالم الاسلامى .

ويعد ابن رشد الشارح الأعظم لفلسفة أرسطو ، واستمرت فلسفته تدرس فى الجامعات الأوربية منذ القرن الثالث عشر الميلادى حتى القــرن السادس عشر وبخاصة فى ايطاليا .

ويبدو أثر ابن رشد واضحا فى خروج كثير من الغربيين على تعــاليم الكنيسة وتمسكهم بمبدأ الفكر الحر وتحكيم العقل على أساس المشــاهدة والتجربة وقد ظهر أثر آراء ابن رشـــد واضـــحا فى فلسفة القديس توما الأكوينى (١٢٢٥ — ١٢٧٤) حتى أن الفصول التى كتبها توما فى العقــل والعقيدة وعجز العقل عن ادراك الأسرار الالهية ليست الا مقابلا لمــا كتبــه ابن رشد فى باب « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة » . هذا وقد سلك كل منهما طريقا واحدا فى معالجة وجود الله ووحدته وقد بلغ من تأثر توما بفلسفة ابن رشد ان كتاب الخلاصة لتوما يحوى بعض أفكار اسلامية الأصل مما يثبت ان الأثر الذى تركه ابن رشد فى عقلية الغرب لم يكن مجرد شروح لكتاب أرسطو وانما كان أبعد وأعمق من ذلك بكثير .

ويعد الفيلسوف الألمانى المعاصر كانت Kant من أكبر تلاميذ فلسفة الفيلسوف الاسلامى العظيم ابن رشـــد . وقال لوبون عن ابن رشـــد انه « كان الحجة البالغة للفلسفة فى جامعاتنا منذ أوائل القرن الثالث عشر من الميلاد ، ولما حاول لويس الحادى عشر تنظيم أمور التعليم فى سنة ١٤٧٣ م أمر بتدريس مذهب هذا الفيلسوف العربى ومذهب أرسطو »(١٥) .

٤ — فى الطـــب :

كان رجال الكنيسة فى أوربا يعتبرون المرض ابتــلاء من الله لا يجب علاجه أو منعه ورده ، ولذلك كانوا يتركون المريض بمرضه حتى يموت . كذلك كان رجال الكنيسة يحرمون تشريح جسم الانسان . وكان أطبــاؤهم يخضعون للخرافات والخزعبلات ، وكانوا من ضمن علاجهــم ، أنهــم كانوا

(١٥) لوبون : حضارة العرب ، ص ٥٦٩ .

يعالجون المجانين بالضرب اعتقادا منهم بدخول الأرواح الشريرة والشياطين فى اجسادهم ، وكانوا يسمونه بالمرض الشيطانى .

ويعد الطب ، الى جانب الفلك والرياضيات والكيمياء ، من اهم العلوم التى اهتم علماء الغرب بترجمتها ونقلها عن علماء المسلمين . فقد ترجمت مؤلفاتهم فى هذه العلوم الى لغات أوربية عديدة غطت جميع انحاء دول اوربا بدون استثناء . واول هذه التراجم كانت الى اللغة اللاتينية الأم لكتب الطب لكل من الرازى وابن سينا . ولقد ترجم كتاب الحاوى للرازى الى اللاتينية سنة ١٢٧٩ و سنة ١٥٢٨ ، و ١٧٤٨ ، ولم تكتف الترجمة لما كتبه الرازى نفسه ، ولكن شمل ايضا ما كتبه تلامذته من بعده ، ذلك لأن تلامذة الرازى كانوا قد اكملوا كتاب الحاوى بعد موته لأنه عمل لا يضطلع به الأفراد(١٦) . كذلك ترجم كتاب القانون لابن سينا ابتداء من القرن الثانى عشر ووجد فيه الأوربيون خلاصة ما وصل اليه الطب عند المسلمين والاغريق والهنود والسريان والأنباط . وقد ظل كتاب القانون مرجعا عاما للطب فى أوربا مدة ستة قرون . كذلك بقيت سائر كتب ابن سينا اساسا للمباحث الطبية فى جميع جامعات فرنسا وايطاليا ولم ينقطع تفسيرها فى جامعة مونبليه الا منذ قرن(١٧) كذلك فان كتب الرازى وابن سينا الطبية ظلت هى المرجع الذى اعتمد عليه اساتذة جامعة لوفان حتى اوائل القرن السابع عشر .

وفى مجال الجراحة جاء المدد لأوربا من الأندلس الاسلامية ، وذلك حين أمدوا اوربا بمرجعهم الأكبر فى الجراحة وتجبير العظام وهو كتاب « التعريف لمن عجز عن التصريف » لأبى القاسم الزهراوى ، الذى طبع الى اللاتينية فى القرن الخامس عشر (١٤٩٧) واقد ذكر لوبون(١٨) ان كتاب ابى القاسم

---

(١٦) عباس العقاد : أثر العرب فى الحضارة الأوربية ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٣٥ .

(١٧) عند مدخل كلية الطب بباريس وضع تمثالان كبيران لعملاقى الطب الاسلامى الرازى وابن سينا ، وهذا اعتراف صريح وواضح بفضل هذين العلمين الجليلين على علم الطب فى العالم .

(١٨) حضارة العرب ، ص ٤٩٠ .

كان مرجع الجراحين جميعا فى اوربا بعد القرن الرابع عشر(١٩) .

واخذ الأوربيون عن المسلمين تشخيص الأمراض ووصف الدواء لها ، كذلك اخذوا عنهم علمهم بالعقاقير والأدوية المركبة والمفردة ، وكان كتاب ابن البيطار مرجعا لهم حتى أواخر القرن الثامن عشر .

٥ — فى الكيميـــاء :

استفاد الأوربيون كثيرا من بحوث العرب فى الكيمياء . فنقلت اليهم القلويات باسمها العربى Alkali وماء الفضة وهو من اهم الحوامض المستخدمة فى التجارب الكيميائية لم يظهر وصفه فى كتاب قبل كتاب جابر بن حيان . وهو صاحب الفضل فيما عرفه الأوربيون عن ملح النوشـــادر وماء الذهب والبوتاس وزيت الزاج وبعض السموم .

وقد ترجم له كتابه السبعون وكتاب تركيب الكيمياء الى اللغة اللاتينية فى اوائل القرن الثانى عشر .

وظلت كتبه عمدة فى هذا العلم بين الأوربيين الى اواخر القرن ١٧ فترجم كتابه الاستتمام الى اللغة الفرنسية ١٦٧٢(٢٠) . ونقلت كتب الرازى كما نقلت كتب جابر بن حيان ومنها تلقى الأوربيون تقسيم المواد الكيميائية الى نباتية وحيوانية ومعدنية وتقسيم المواد المعدنية ادق تقسيم عرف فى العصور الوسطى . ولعل التاريخ الأوربى لم يتـــأثر بشىء من كشـــوف العـــرب فى المعدنيات كما تأثر بكشف البارود واستخدامه فى قذائف الحصار واســـلحة القتـــــال(٢١) .

ولقد قال جوستاف لوبون مشيدا بفضل العرب على الغرب فى هـــذا العلم انه لولا ما وصل اليه العرب من نتائج واكتشـــافات فيه لما اســـتطاع لافوازيه — ابو الكيمياء الحديثة — أن ينتهى الى اكتشافاته .

---

(١٩) آخر طبعة ظهرت لهذا الكتاب مترجمة الى اللاتينية ظهرت حديثا جدا ، فى عام ١٨٦١ .

(٢٠) لوبون : حضارة العرب ، ص ٤٧٥ .

(٢١) العقاد : نفس المصدر ، ص ٣٩ .

ويتضح فضل العرب على علم الكيمياء من كثرة الأسماء العربية التى اقتبستها اللغات الأوربية فى ذلك العلم ، فالكيمياء اصبحت Alchimie بالفرنسية ، وبالانجليزية Chemistry والكحول Alcohol بالانجليزية ، بالفرنسية Alcahol والقلويات Alcali

ولقد اخذ الأوربيون عن العرب استخدامهم البارود فى الحـــرب عن طريق بلاد الأندلس . وكان قد عزى الى روجر بيكون اختراع البارود ، مـــع أن بيكون لم يفعل غير ما فعله البرت الكبير من اقتباس المركبات القديمة ، ولا سيما ما وصفه منها ماركوس جراكوس فى مخطوط كتب فى سنة ١٢٣٠ م بعنوان « كتاب النار لاحراق الأعداء » والحق ان كثيرا من هذه المركبـــات يشابه تركيب البارود ، ولكنهكان يستعمل فى الأسهم النارية فقط ، وهـــو مقتبس من العرب ، شأنه فى ذلك شأن المركبات الكيماوية فى العصـــور الوسطى . ولقد قرر لوبون ان العرب قد عرفوا الأساحة النـــارية قبـــل النصارى بزمن طويل(٢٢) .

٦ — فى الطبيعيـــــات :

ترجمت كتب الخازن البصرى الى اللاتينية ثم الى الايطالية فى وقت مبكر واستعان بها رجال العلم فى أوربا . ولقد استقى روبرت جروستست Grosseteste (١١٧٥ — ١٢٥٣) اسقف لنكولن الذى يعتبر أول مثل بارز لعلماء الطبيعة فى غرب أوربا فى اوائل القرن ١٣ معلوماته من ترجمة لاتينية لكتاب الخـــازن البصرى . كـــذلك اخـــذ عنـــه بول وتـــولو Pole witolo (ت ١٢٧٠) وعن هذين الأخيرين أخذ روجر بيكون .

ولقد ساعدت افكار البيرونى وابن سينا فى الجاذبية الأرضية نيـــوتن ومهدت له سبيل الكشف لقانون الجاذبية وتعليل الثقل على الأساس العلمى الحـــــديث(٢٣) .

---

(٢٢) لوبون : حضارة العرب ، ص ٤٧٨ .

(٢٣) العقاد : نفس المصدر ، ص ٤٠ .

ويعد كتاب الحيل لأبناء موسى بن شاكر أصلا من اصـــول الميـــكانيكا قبل تطورها الأخير فى عصر الآلات(٢٤) .

ولقد نقل كتاب الحسن بن الهيثم فى البصريات الى اللغة اللاتينيـــة واللغة الايطالية فاستعان كيبلر به كثيرا فى كتابه عن البصريات . ولقـــد عد مسيو شال ، الحجة فى علم البصريات ، كتاب الحسن بن الهيثم مصدر معارف الغرب للبصريات(٢٥) .

٧ — فى الجغرافيـــا :

اشتهر فى الشرق الاسلامى جغرافيون مبرزون أضافوا الى العـــلم احسن التحقيقات من طريق الأرصاد الفلكية ومشاهد الرحـــلات وتمحيص الروايات ، ولكن الأندلس هى التى جمعت صفوة هذه المعلومات وأشاعتها فى الأقطار الأوربية التى تجاورها . وكان للشريف الادريسى خاصة أعظم الفضل فى جمع هذا العلم وتجديده واحياء العناية به بين ذوى الشـــأن فى زمانه .

ويقول جوتيه ان الشريف الادريسى الجغرافى كان استاذ الجغرافيـــا الذى علم اوربا هذا العلم لا بطليموس(٢٦) .

ولما اراد روجر الثانى ملك صقلية النورمانى (فى القـــرن ١٢) أن يستوفى معلومات عصره الجغرافية لم يجد من يعتمد عليـــه فى ذلك غـــير الشريف الادريسى الذى ولد فى سبته ودرس فى قرطبة(٢٧) وتطايرت شهرته فى بلاد الحضارة الاسلامية والمسيحية فوضع كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » . ووضع له الملك كرة فضية — تمثل كرة الأرض — زنتها ٤٠٠ رطل رومى ليتخذها مثالا لما يثبته من معالم الكرة الأرضية ولا يعـــرف ان احدا سبق الادريسى الى بيان الحقيقة عن منابع النيل العليا .

---

(٢٤) العقاد : نفس المصدر ، ص ٤٠ .
(٢٥) لوبون : حضارة العرب ، ص ٤٧٣ .
(٢٦) محمد كرد على : الاسلام والحضارة ، ج ١ ص ٢١١ .
(٢٧) العقاد : اثر العرب ، ص ٤٦ .

كما حفظت هى الخرائط التى بقيت فى بعض المتاحف الأوربية ومنهـــا خريطة محفوظة بمتحف سان مرتين الفرنسى ترسم النيل آتيا من بحـــيرات : جنوب خط الاستواء بعد ان تخبط الجغرافيون فى وصف منابعه وتعليـــــل فيضانه منذ ايام هيرودوت الملقب بأبى التاريخ .

ومن الخرائط المرسومة والآراء النظرية التى نقلت عن العـــرب تلقى كولمبس صورته عن الكرة الأرضية وتمثيل الأرض كثمرة الكمثرى المستطيلة . وكانت الخريطة التى اوحت اليه هذه الفكرة مباشرة خريطة الكردينال بطرس الايلى التى سماها صورة الدنيا واعتمد فيها على المصادر العربية ونشرها فى أوائل القرن ١٥ قبل رحلة كولمبس بنحو ٨٠ سنة وهو فضل يحسب للعرب فى كشـــف العــالم الجــديد .

ولقد كانت آراء البيرونى الجغرافية والفلكية شــائعة بين الأوربيـــين المثقفين . وقد تحدث الجغرافيون العرب عن تكوير الأرض وكانت الكنيســـة تنكر ذلك وتقول بتسطيحها ، وكتب عن ذلك ابن خرداذبة (ت ٨٨٥ م) وابن رسته (٩٠٣) والمسعودى (ت ٩٦٥ م) .

ولقد قام رواد من العرب بمحاولة استطلاع بحر الظلمات (المحيــــط الأطلسى) فلم يصلوا منه الى نهاية . وهذا دليل على سبق العـــرب الى ارتياد العالم الجديد . ودليل على هذا السبق ايضا اشتمال لغات الهنـــود الحمر على كلمات عربية تخللتها مع بعض التصحيف والتحريف . كذلك عاد كولمبس من امريكا بذهب مخلوط بالنحاس على النحو الذى يخلط به اهل غانة الافريقية . وكانت الرحلات قد توالت بعد كشف امريكا بين الشواطىء الافريقية والشواطىء الأمريكية فى ايام رواج النخاسة واختلاط النخاسين والعبيد بمن يتكلمون العربية فى افريقية الغربية(٢٨) .

والدليل على اثر المسلمين فى الملاحة تلك الكلمات التى لا تزال محفوظة فى لغات الأوربيين بما يشبه حروفها العربية Felouque وامير ال Admiral امير البحر ، ارسينال Arsenal دار الصناعة ، risk بمعنى المغامرة

---

(٢٨) العقاد : نفس المصدر ، ص ٥٣ .

فى طلب المعاش من كلمة « رزق » وغير ذلك من كلام اهل الاندلس والبرتغال .

كذلك فان العرب نقلوا البوصلة الى أوربا وعلموا الأوربيين استعمالها، واحتفظت باسمها العربى فى كثير من اللغات الأوربية ، فهى بالايطالية Bossala والفرنسية Boussole

٨ — فى علم الفلك والرياضيات :

ما زالت الأسماء العربية باقية بلفظها فى المعجمات الفلكية الاوربية ، سواء فى اسماء الكواكب او اسماء المدارات والمصطلحات ، مما يقر بفضل العرب والمسلمين فى هذا العلم على الأمم الأوربية . ومن مئات هذه المفردات نكتفى بالقليل الدلالة على الكثير مثل : الكف Caph ، الأرنب Arnab ، العرقوب Arkab ، السمت Azimuth ، البطين Botein ، الوزن Wezn السيف Saif ، سعد السعود Sadalsud ، الزورق Zaurek ، الثور Tauri ، الراعى Errai ، والذنب Denob وأمثال هذه الأسماء المحفوظة بألفاظها وذلك غير ما ترجموه بالمعانى دون الألفاظ(٢٩) .

وقد سبق المسلمون كبلر وكوبرنيق فى اكتشاف حركة الكواكب السيارة على شكل بيضاوى ، كذلك سبقوهم فى كشف نظرية دوران الأرض . وكان لكتاب أصول الفلك للفرغانى كبير الأثر فى جامعة بولونا فى ايطاليا فى عصر النهضة . وترجم كتاب الهيئة للبطروجى الى اللاتينية فى طليطلة سنة ١٢١٧ م ترجمه ميشيل سكوت(٣٠) . ومن الترجمة اللاتينية لكتاب جوامع علم النجوم وأصول الحركات السماوية التى تمت سنة ١٤٩٣ ، اخذ كوبرنيق اهم معلوماته الفلكية .

وبالنسبة للازياج العربية فلقد ترجم الأوربيون بعض هذه الأزياج الى اللاتينية ، ومنها كتاب « الزيج » للصابى الذى ترجم الى اللاتينية اكثر من

---

(٢٩) العقاد : أثر العرب ، ص ٥٧ .
(٣٠) طوقان : تراث العرب ، ص ٢٠٠ .

مرة فى القرن الثانى عشر ، كذلك أمر الفونسو العاشر ملك قشتاله،بترجمته من العربية الى الاسبانية فى القرن الثالث عشر ، ثم نشر فى اوربا عدة مرات فى القرنين ١٦ ، ١٧ وما بعدهما(٣١) . ولقد اتضح أن ازياج الأذفونش العاشر القشتالى المعروفة . بالازياج الأذفونشية مأخوذة عن علماء الفلك المسلمين(٣٢) .

ذكر لوبون أن الأوربيين يدينون للعرب بتعلم الرياضيات ، وقال انه بفضل ترجمة ما الفه الخوارزمى اقتبس الأوربيون معارفهم الأولى فى الجبر بعد زمن طويل(٣٣) كذلك قال نقلا عن مسيو شال فى كتابه « خلاصة تاريخ اصول الهندسة » ان ثورة علماء العرب فى الهندسة وابحاثهم المستحدثة لم تؤثر فى علماء اوربا الا بعد مرور خمسمائة عام وان كوبرنيق كان يجهل هذه المعلومات .

١٠ — فى الفنون والمعارف الصناعية :

المعمار : اقتبس الغرب اصول فن عمارته من العرب ، ويتجلى فى اسبانيا على الخصوص تاثير العرب المعمارى العظيم(٣٤) ، وفى فرنسا فى مدينة واست Wast. en Boulonnais فى شمال فرنسا بوابة نقلت زخرفة عقودها نقلا عن بوابة الفتوح بالقاهرة . وكان مرجع ذلك ان ساهم فى بناء هذه الكنيسة احد رجال الحاشية فى السفارة التى اوفدها الملك الصليبى امورى الى القاهرة سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) لمقابلة الخليفة الفاطمى العاضد ووزيره شاور فانطبقت صورة هذه البوابة فى مخيلة ذلك الرجل وعبر عن اعجابه بها فى بناء كنيسته .

---

(٣١) قدرى طوقان : تراث العرب ، ص ٦٨ .

(٣٢) لوبون : حضارة العرب ، ص ٤٦٢ .

(٣٣) لوبون : نفس المصدر السابق ، ص ٤٥٥ .
نقل هذا الكتاب الى اللاتينية روبرت اف شستر Robert of Chester الذى اعترف انه مدين للعرب بمعلوماته الرياضية ، وكذلك ترجمة كردان ولوقا Tartaglia, Cardan, Luca Pacioli وغيرهم (طوقان : تراث العرب ، ٨٥)

(٣٤) لوبون : حضارة العرب ، ص ٥٧٢ ، ٥٧٤ .

وكذلك الحال فى بوابتى كنيسة باريه له مونيال Paray - Le - Monial وشارليو Charlieu فى اواسط فرنسا فان الناظر اليهما يهيىء اليه انه امام بوابة فى المدن المغربية الاسلامية .

وقد تاثرت العمارة الاوربية فى العصور الوسطى تاثرا بالغا بالتقاليد المعمارية والاسلامية العربية . وكانت اولى المناطق التى ظهرت فيها قوة هذا التاثير هى شمال اسبانيا منذ اوائل القرن الرابع الهجرى فى مقاطعات ليون وقشتالة وجليقية من جهة وفى بلاد قطالونيا من جهة اخرى . واقيمت فى ذلك العصر وفى تلك المناطق جملة من الكنائس اقامها المستعربون مثل كنائس : سان ميجل دى اسكالادا San Miguel de Escalada وسنتياجو دى بنيالبا Santiago de Penalba وسان ميلان دىلاكوجيا San Millan de la Cogolla وسان ثبريان دى ماثوى San Cebrian de Mazote وسان باوديل دى برلانجا San Baudel de Berlanga وغيرها .

وبالرغم من أن المستعربين قد حاولوا التخلص فى عمارتهم من التقاليد الاسلامية العربية الا انهم لم يستطيعوا اتمام اعمالهم بدونها اذ كانت هذه التقاليد من القوة بحيث فرضت عناصرها على عناصر العمارة المسيحية وكان من اهم مظاهرها تلك العناصر المعمارية والزخرفة التى كانت العمارة الاسلامية قد ابتكرتها وطبقتها فى عمائرها ونشرتها شرقا وغربا مثل النوافذ المزدوجة والعقود المنسوخة والعقود الثلاثية الفتحات والعقود المفصصة أو المقصوصة والعقود الصماء ومثل الشرفات او الكوابيل والابراج ومثل القباب المضلعة والقبوات الوترية ومثل الزخارف المتعددة الالوان وغير ذلك من العناصر والأشكال .

واحتل الخط الكوفى مكانة ممتازة بين الموضوعات الزخرفية العربية وقد بهر مظهره البديع وجماله الفنى انظار العرب والمسلمين وشاركهم الأوربيون فى ذلك مشاركة لا تقتصر على امتاع النظر بل فى متابعة تطوره واقتباس مايوجبه هذا التطور من روح فنية ترتكز على التناسق فى التكرار والاتزان فى التماثل .

وكانت الفكرة الزخرفية هى وحدها التى أوحت الى الفنان الأوربى منذ القرن الرابع الهجرى فكرة الاقتباس من حروف العربية وتسجيلها بالحفر على تيجان الأعمدة فى الكنائس وعلى عقود بواباتهــا او بالتصــوير على صفحات الانجيل ولوحات القديسيين .

والأمثلة على ذلك عديدة نجدها فى اليونان على لوحة رخامية من احدى الآثار البيزنطية فى اثينا . وفى بلدة كالماتا باليونان توجد كنيسة وهبت للقديس خرالبوس وبها زخارف كوفية بديعة .

وفى ايطاليا توجد زخرفة جميلة بالخط الكوفى المورق على باب مقبرة مدينــة كانوســا .

أما فى اسبانيا فقد تعددت الأشكال وتنوعت فعلى افريز مذبــح من كنيسة اوفيدو Oviedo حاول النحات أن ينقل عليه البسملة كاملة . وفى فرنسا نجد الكتابة الكوفية مسجلة فى كنائس عدة من بينها كاتدرائية بوردو وكنيسة القديس بطرس فى ريد Reddes وكاتدرائية البوى Le Puy فى وسط فرنسا وهى بنيت فى الربع الثانى من القرن السادس الهجرى ، وتظهر هذه الكاتدرائية بمجموعة قبابها وتصميم مقر نصاتها كأنها بناء اسلامى عربى المظهر والتكوين وهى تنفرد فى ذلك بين جميع المبانى المسـيحية فى العالم الأوربى . وفى اطار باب العذراء بهذه الكاتدرائية نقرا جملة عربيــة واضحة المعنى بالخط الكوفى وهى « الملك لله » مكررة أكثر من مرة حول اطار البــاب .

اما عن التحف الفنية من خزف وفخار وزجاج وخشب وعاج ومعدن فوجدت الأباريق والصحون والمشــكاوات والابواب والمقاصــير والمنــابر والصناديق والمسارج والمباخر والأقمشة الثمينة والسجاد الفاخر المــزخرفة أجمــل الزخارف . وجدت كل هذه الأشياء وانتشرت فى اســواق اوروبا العصور الوسطى ولقيت بها رواجا كبيرا واقبل على شرائها الملوك والأمــراء والأثرياء حتى رجال الدين فأثارت الغيرة عند الصناع الأوربيين وحفزتهم على محاولة محاكاتهاسواء من حيث اساليب الصناعة او طرز الزخرفة . والذى لا شك فيه أن وفرة استيراد اوربا للتحف الاسلامية من مختلف المواد ومنــذ بداية الحروب الصليبية قد فتح الطريق امام تطور الفنون والصناعات الأوربية

تطورا كان من نتيجة نموها نموا باهرا بحيث أصبح انتاج التحف الفنية ضرورة من مقتضيات عصر النهضة الأوربية . ومن التحف العاجية الاسلامية المحفور عليها يوجد فى متحف اللوفر صندوق عاجى صغير صنع لأحد ملوك اشبيلية فى القرن الخامس الهجرى يعرف بصندوق سان ايزيدوراللیونى ، وصندوق بايو العاجى الذى صنع فى القرن السادس الهجرى واتى به من مصر ايام الحروب الصليبية .

ولقد اشتهرت مدينة بلنسية بصناعة الخزف ذا البريق المعدنى الذى امتازت به صناعة الخزف العربى ، كذلك اشتهرت به مالقة . وكانت شهرة خزف مدينة بلنسية قد جعلت كبار الأمراء فى ايطاليا وفرنسا يوصون مصانع هذه المدينة بصنع اوان خاصة بهم تحمل اسماءهم وشعاراتهم ، واشهر نموذج لصناعة الخزف المطلى بالمينا الاسلامية هو الاناء الذى وجد فى قصر الحمراء والذى يبلغ ارتفاعه متر و ٣٥ سم ويظهر فيه الابداع الاسلامى(٣٦) .

ومن اسبانيا اقتبس الايطاليون اسلوب الخزف المعدنى البراق ونشأت فى مدينة جوبيو Gubbio مصانع نهضت بهذه الصناعة نهوضا كبيرا . كذلك قلد الخزافون الايطاليون صناعة الخزف الاسلامى المعروف بطريقة الرسم بالحفر وكانت هذه بداية لاشتقاقات أخرى من اساليب صناعة الخزف عند المسلمين عاونت معاونة كبيرة على ازدهار هذه الصناعة فى عصر النهضة الأوربى .

اما التحف الزجاجية — فقد كانت تستجلب من مصر ودمشق لقصور الملوك والأمراء فى اوربا بل كانت تصنع خصيصا لهم . وبدأ رجال الفن الايطالى منذ القرن السابع وخاصة فى مدينة البندقية التى كانت وما زالت مشهورة بصناعة الزجاج متأثرون بالأساليب المصرية والشامية . وسرعان ما أتقن هؤلاء الصناع صناعة الزجاج المطلى بالمينا فلم تعد تلك الصناعة وقفا على المصانع الاسلامية . ومن البندقية انتشرت طريقة الصناعة الفنية هذه الى مراكز أوربية اخرى فأخذت تنتج الأوانى الزجاجية التى يظهر اثر الفن

---

(٣٥) لوبون : حضارة العرب ، ص ٥١٤ .

(٣٦) لوبون : نفس المصدر ، ص ٥١٧ .

الاسلامى عليها واضحا . وهنالك ابريق بللورى صنع فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) محفوظ فى متحف اللوفر فى باريس تتجلى فيه روح ابداع الصانع المسلم الفنان(٣٧) . ويرى كثير من المؤلفين ان مدينتى مورانو والبندقية مدينتان لصانعى الزجاج من العرب بطرقهما التى اكتسبتا بها شهرة كبيرة فى صناعة الزجاج ، ونحن نعلم انهما كانتا على اتصال تجارى مستمر بعـــالم الاســــلام(٣٨) .

أما عن التحف الاسلامية المعدنية فلقد كانت اولى الاقتباسات الأوربية منها اشكال الاباريق البرنزية او النحاسية واستخدامها لسكب الماء والخمــر فى القداس والكنائس . وكانت التحف الاسلامية المعدنيـــة . تلقى رواجا كبيرا فى بلاطات الملوك والأمراء الأوربيين ، وكان من نتائج انتشـــارها ان ظهرت بمدينة البندقية مصانع للتحف النحاسية فى القرن التاسع اتخـــذ صناعها من التحف الاسلامية نماذج استوحوا منها اساليب صناعتهم واشكالها وقد تخلفت لنا تحف عديدة من انتاج هذه المصانع من بينها صينية مشـــهورة من النحاس المكفت بالفضة نقشت عليها رسوم متشـــابكة على الأســـلوب العـــربى وازدان وســـطها بحلقـــة تحيـــط بشـــعار اسرة اوشى دى كانى Ochi di Cane من مدينـــة فـــيرونا .

الرنـــوك (الشارات) :

وكثيرا ما كان ملوك المسلمين وامراؤهم يتخذون شعارات او شارات وهى المعروفة بالرنوك . وكانوا يرسمونها على املاكهم واوانيهم واثاثهم ، وشكل هذه الرنوك جاء على هيئة مناطق دائرية او بيضاوية تحفر داخلهـــا صورة زهرة او طائر او حيوان او كأس او سيف او غير ذلك من العلامات والادوات التى ترمز الى شخصية الملك او يستدل منها على وظيفة الأمير . وكانت هذه الرنوك تكون عادة بألوان زاهية براقة . وعن المسلمين أخذ امراء اوربا ونبلائها عادة الرنوك واصبح لكل اسرة نبيلة شارة خاصة بها بل ان صورة النسر ذى الراسين التى كانت شعارا للامراء فى العصر السلجوقى

---

(٣٧) لوبون : نفس المصدر : ص ٥١٢ .

(٣٨) لوبون : نفس المصدر ، ص ٥١٦ .

اصبحت فى القرن الثامن الهجرى شعارا للدولة البيزنطية . وشاع استعمال الرنوك فى أوربا منذ ذلك التاريخ واصبح لكل اسرة شعار يتوارثه ابناؤها .

النسيج والسجاد :

ذاعت فى اوربا العصور الوسطى شهرة المنسوجات الاسلامية ودور الطراز التى كانت منتشرة فى البلاد الاسلامية العربية والتى كانت تنتج من المنسوجات انواعا فاخرة متموجة الالوان او منقوشة بخيوط الذهب والفضة .

واخذت مصانع النسيج فى اوربا تعمل على تقليد المنسوجات الحريرية الفاخرة وكان هذا التقليد نتيجة مصادر ثلاثة : اولها مصدر مباشر نتيجة استيراد الملوك والأمراء للاقمشة الفاخرة من بلاد الشرق الاسلامى ، وثانيها ناشىء عن استمرار المراكز الصناعية الاسلامية فى انتاجها فترة طويلة من الزمن وفقا للتقاليد الاسلامية بعد خضوعها للحكم المسيحى فى الاندلس وخاصة فى صقلية التى كان تأثيرها كبيرا على المدن الايطالية ومصانع النسيج فيها ، وثالثها مصدر غير مباشر استتبع تأثر المصانع البيزنطية بالأساليب الاسلامية وانتاجها اقمشة تحمل الطابع العربى راجت رواجا كبيرا فى اوربا .

ومن الأمثلة البارزة على التأثيرات العربية فى مجال النسيج تلك العبارة التى نسجت في صقلية للملك روجر الثانى فى سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٤ م) ، اى بعد انقطاع الحكم الاسلامى فى الجزيرة . وقد نسجت هذه العباءة خصيصا لكى يرتديها الملك فى حفل تتويجه ، وهى محفوظة حاليا فى متحف فينا ، وزخارفها مشتقة من الزخارف العربية ، فضلا عن أنه نسجت عليها كتابة باللغة العربية سجل فيها تاريخها الهجرى وعبارات التبجيل والدعاء للملك وفقا للتقاليد الاسلامية .

١١ — فى الموسيقى :

اعترف علماء الغرب بتأثر شعوبهم بالموسيقى العربية والتأليف فيها على ايديهم فى العصور الوسطى ، واقروا بأن الغرب لم يعرف اى نوع من انواع الموسيقى فى العصور الوسطى حتى زمن الحروب الصليبية عندما قويت الصلات بين أوربا والبلاد الاسلامية .

ومنذ ذلك الوقت اخذ يظهر في موسيقى الغرب نـوع من التـوزيع الموسيقى وانسجام الالحان ، فضلا عن بداية تعلمهـم لفن كتـابة النـوتة الموسيقية المعروفة عند المسلمين .

ولا شك فى أن التطور الذى اصاب الموسيقى الغربية منذ القرن الثانى عشر الميلادى يرجع مرده للموسيقيين المسلمين الذين علموهم التوزيع الغنائى والهارمونى (الانسجام الموسيقى) .

كذلك عرف الغرب الموسيقى العربية فى بلاد الأندلس ، ووفـد الى الأندلس الطلاب الأوربيون العاشقون لتعلم الموسيقى العربية وبخاصـة الى مدينة قرطبة ، التى كانت قد قامت بها مدرسة زرياب الموسيقية منذ القـرن الثالث الهجرى .

وعندما عاد هؤلاء الطلاب الى بلادهم نقلوا معهم ما تعلمـوه من فن الموسيقى العربية ، كذلك ترجموا كتابات العرب فى هذا الفن الى اللاتينيـة والقشـتالية .

وان كثيرا من الآلات الموسيقية الحديثة التى عرفها الأوربيون لترجـع اصولها الى هذه الآلات القديمة التى ابتكرها الموسيقيون المسلمون . ولقـد نقلت بعض هذه الآلات الموسيقية الاسلامية كما هى الى الغرب واحتفظت باسمها العربى مع ادخال بعض التحريف عليه . ومن هذه الأسماء نجـد كلمة عود التى تطلق على هذه الآلة تدخل فى جميع اللغات الأوربية كما هى مع تحريف بسيط فيها فهى :

فى الأسبانية :	Laud	، فى البرتغالية :	Alaude
فى الفرنسية :	Luth	، فى الألمانية :	Laute
فى الروسية :	Ljutnja	، فى الفنلندية :	Luuto
فى السويدية :	Luito	، فى الانجليزية :	Lute
فى الايطالية :	Luito	، فى الدانمركية :	Lut
فى البولونية :	Lutnia	، فى المجرية :	Laut

كذلك نجد لفظ Guitar مأخوذ من القيثـارة العربيـة ، ولفـظ Tabel و Trombate مأخوذ من الطبل ، ولفظ Naker هى النقـارة العربية ، ولفظ Adufe هو الدف ، ولفظ Sonajas هو الصنوج ، ولفظ Anafil هو النفير ، ولفظ Horn, Corno هـو القـرن ، ولـفظ Rubella هو الربابة ، ولفظ تروبادور مشتق من الطـرب او طـروب وهـكذا .

ويؤكد لوبون أن الرقص والموسيقى فى اسبانيا ما زالا عربيين ، وذلك حين يقول : « ان تأثير العرب فى اسبانيا ، برغم انه قد زال تماما الآن ، الا ان بعض المدن الاسبانية ، ولا سيما أشبيلية ، ما زالت حافـلة بذكـريات العرب ، ولا تزال بيوتها تبنى على الطراز الاسلامى ، وهى لا تختلف عن نماذجها الا بفقر زخارفها ، ولا يزال الرقص والموسيقى فيها على الطريقـة العربيـة(٣٩) .

واذا كان لنا من خاتمة لهذا الفصل ، الذى يأتى فى خاتمـة هـذا الكتاب ، فانى لا أجد هنالك خاتمة اعظم مما اختتم بها لوبون فصل كتـابه حضارة العرب ، الذى جعله بعنوان « تمدين العرب لأوربا » فهو يقول بما نصه :(٤٠) « نختتم هذا الفصل بقولنا انه كان للحضارة الاسلامية تأثير عظيم فى العالم . وان المسلمين هم الذين فتحوا لأوربا ما كانت تجهـله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية ، بتأثيرهم الثقـافى ، فكانوا بالفعـل ، ممدنين لنا وأئمـة لنا طيلة ستة قرون » .

تـم بحمـد الله تعـالى

---

(٣٩) لوبون : حضارة العرب ، ص ٥٧٥ .

(٤٠) لوبون : نفس المصدر السابق ، ص ٥٧٩ .

مصادر الكتاب



المصـــادر والمـــراجع

- ابن ابى اصيبعة : « عيون الأبناء فى طبقات الأطباء » ، جزءان ، بيروت ١٩٦٥ .
- ابن الأثير : « الكامل » ، ج ٧ ، القاهرة ١٣٠٣ هـ .
- ابن الأنبارى : « نزهة الألباء فى طبقات الأدباء » ، بغداد ١٩٧٠ .
- ابن تيمية : « الحسبة فى الاسلام » ، القاهرة ١٩٧٦ .
- ابن خلدون : « المقـدمة » ، القاهرة ١٣٢٠، هـ .
- ابن خلكان : « وفيات الأعيان » ، ج ١ ، القاهرة ١٩٤٨ .
- ابن عبد البر : « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب » ، القسم الرابع ، القاهرة ١٩٣٠ .
- ابن عبد البر : « العقد الفريد » ، ج ٣ ، القاهرة ١٣٢١هـ.
- ابن النديم « الفهرست » ، بيروت ١٩٦٤ .
- ابو صالح الالفى : « الفن الاسلامى ، أصوله وفلسفة مدارســـه » ، القاهرة ١٩٦٦ .
- أبو الحسن على البغدادى : « الأحكام السلطانية »،القاهرة ١٢٩٨هـ.
- أبو الفرج الأصفهانى : « الأغانى » ، القاهرة ١٩٥٦ .
- أبو يوسف : « كتاب الخراج » ، القاهرة ١٣٩٦ هـ .
- أحمد امين : « فجر الاسلام » ، ج ١ ، القاهرة ١٩٢٨ .
- أحمد امين : « ضحى الاسلام » ، ج ١ ، ٢ ، القاهرة١٩٣٨.
- احمد امين : « ظهر الاسلام » ، ج ٣ ، بيروت ١٩٦٩ .
- احمد الشطى : « مجموعة ابحاث فى الحضارة الاسلامية » ،دمشـــق ١٩١٣ .

- أحمد شلبى : « التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية » ، القاهرة ١٩٦٦ .
- آدم متز : « الحضارة الاسلامية » ، ترجمة ابو ريدة ، القاهرة ١٩٤١ .
- انور الرفاعى : « الاسلام فى حضارته ونظمه » ، بيروت ١٩٧٧ .
- الثعالبى (ابو منصور عبد الملك بن محمد اسماعيل : «تحفة الوزراء » بغداد ١٩٧٧ .
- جورجى زيدان : « تاريخ التمدن الاسلامى » ، ج ٣ ، القاهرة ١٩٥٨ .
- جوستاف لوبون : « حضارة العرب » ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٦ .
- حسن ابراهيم حسن : « النظم الاسلامية » ، القاهرة ١٩٦٢ .
- زكى محمد حسن : « كنوز الفاطميين » ، القاهرة ١٩٣٧ .
- سهير القلماوى : « أثر العرب والاسلام فى النهضة الأوربية » ، القاهرة ١٩٧٠ .
- الشيزرى : « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » ، القاهرة ١٩٤٦ .
- صبحى الصالح : « النظم الاسلامية ، نشأتها وتطورها » ، بيروت ١٩٧٨ .
- طه حسين : « من تاريخ الادب العربى ، العصر العباسى الأول » ، ج ٢ بيروت ١٩٧١ .
- عباس محمود العقاد : « أثر العرب فى الحضارة الأوربية » ، القاهرة ١٩٤٦ .
- عبد المنعم ماجد : « تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى » القاهرة ١٩٦٣ .
- عفت الشرقاوى : « فى فلسفة الحضارة الاسلامية » ، بيروت ١٩٧٨ .
- عطية القوصى : « تجارة مصر فى البحر الأحمر » ، القاهرة ١٩٧٦ .
- عطية القوصى : « علم التاريخ ومناهج البحث » ، القاهرة ١٩٨٤ .

- عطية القوصى : «اليهود فى ظل الحضارة الاسلامية»،القاهرة١٩٧٨ .
- عمر رضا كحالة : « دراسات اجتماعية فى العصور الاسلامية » ، القاهرة ١٩٣٦ .
- عمر فروخ : « تاريخ العلوم عند العرب » ، بيروت ١٩٧٠ .
- قدرى حافظ طوقان : « تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك » ، القاهرة ١٩٤١ .
- المبرد : « الكامل » ، جزءان ، القاهرة ١٣٤٧ هـ .
- محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ، القاهرة ١٩٦٥ .
- محمد كرد على : «الاسلام والحضارة العربية » ، دمشق ١٩٦١ .
- المسعودى : « التنبيه والاشراف » ، بغداد ١٩٣٨ .
- المسعودى : « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، بيروت ١٩٥٨ .
- مصطفى الشكعة : « معالم الحضارة الاسلامية » ، بيروت ١٩٧٥ .
- المقريزى : « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ،القاهرة ١٢٧٠هـ
- ناجى معروف : « المدخل فى تاريخ الحضارة العربية »،بغداد ١٩٦٠ .
- ناجى معروف : « نشأة المدارس المستقلة فى الاسلام ، بغداد ١٩٦٦ .
- ناصر خسرو : « سفر نامة » ، ترجمة يحيى الخشاب،القاهرة١٩٤٥ .
- النويرى : « نهاية الأرب فى فنون الأدب » ، ج ٤ ، القاهرة١٩٥٦ .

المراجـــع الأجنبيـــة :

— Arnold, T. W : Arab Travellers and Merchants, A. D. 1000—1500, London 1926.

— Ashtor, E : Histoire des Prix et des Salaires dans L' Orient Medieval, Paris 1969.

— Cahen, G : Economy, society, Institutions, The Cambridge History of «Islam» Cambridge 1970.

— Goitein, S : Studies n Islamic History and Institutions, Leiden 1968.

— Goitein, S : «A Mediterranean Society of the High Middle Ages» V. I, New York 1967.

— Heyd, w : Histoire du Commerce de Levant au Moyen Age, T. II, Leipzig 1923.

— Navdi, R : Industry and Commerce under the Abbassids, JPUHS, V. I, London 1963.

— Pirenne, H : Histoire economie et social du Moyen Age, Paris1969.

— Rice, D.S : A drawing of the Fatimid Period, BSOAS, v. 21, London 1958.

— Rosental, F : A History of Muslim Historiography, Leiden 1968.

— Wiet, G : Un nouveau tissu Fatimide, Orientalia, V. V, Rome 1936.



قصر الحير الشرقى فى بادية الشـــام ، واجهة القصر

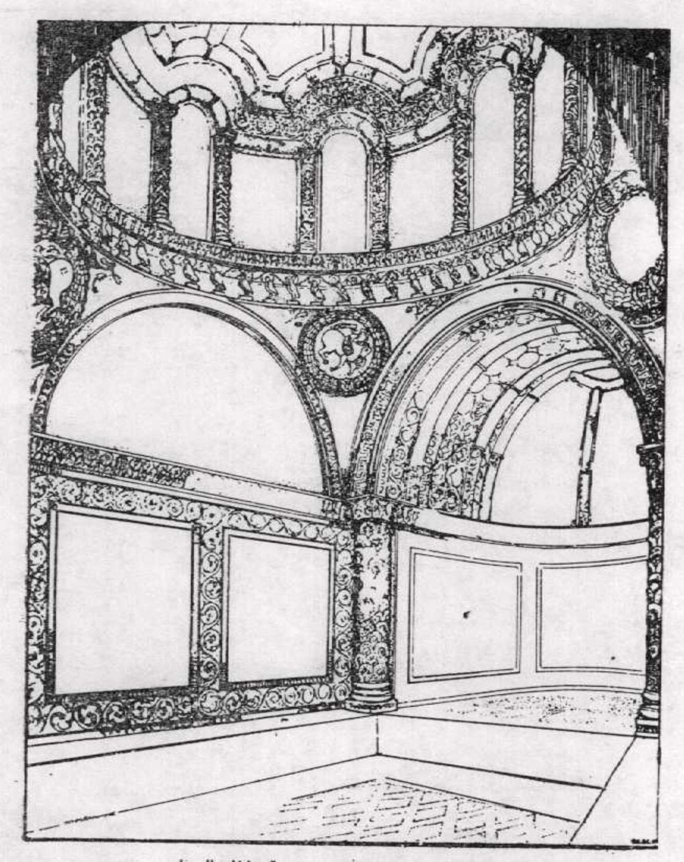


داخل المسجد الجامع فى قرطبة من تصوير أركسيف ماس



ابريق من النحاس المكفت بالفضة — الموصل — مؤرخ سنة ١٢٣٢
بالمتحف البريطانى



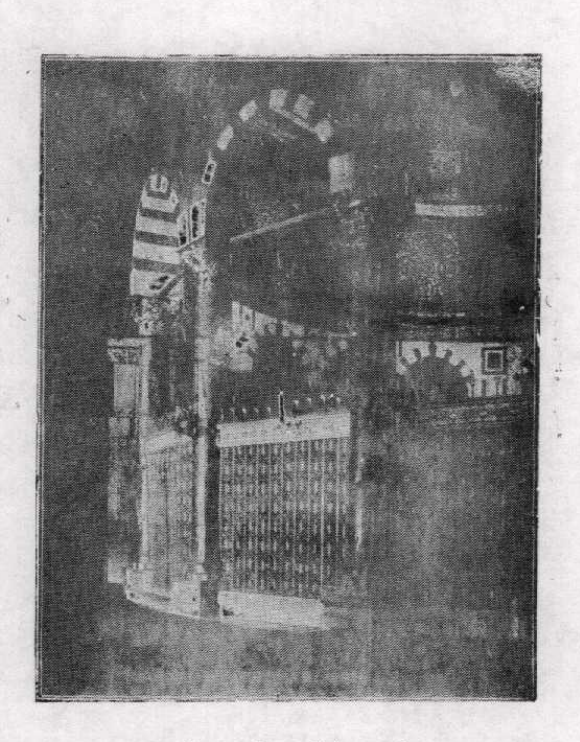


خربة المفجر ، اعادة أنشاء غرفة داخل الحمام.



ابريق من البللور . فاطمى من القرن العاشر
بكاتدرائية سان مارك بالبندقية





داخل قبة الصخرة بيت المقدس

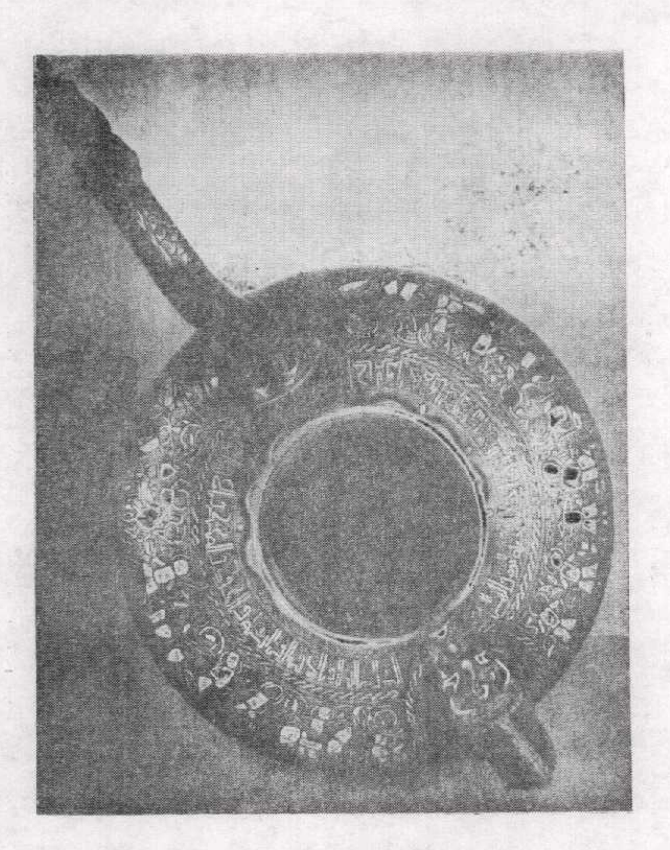


فى جامع ابن طولون بالقاهرة





ابريق من المعـدن يرجع للعصر الفاطمى



رسـم وكتابة على آنيـة نحاسية



الملك ديشليم والحكيم بـــدباى
من رسم أبى الحسن – مخطوطة انوار السهلي



كنوز الملك هيلار ملك الهند من كتاب أنوار السهيلى



صوفى وزوجتـــه من كتاب أنوار السهيلى





الملك يصطاد — رسم محمد رضـــا
من كتاب أنوار السهيلى



فهرس الكتاب

صفحة

مقــــــــدمة . . . . ٥ —

الفصـــل الأول — مفهوم الحضــارة العـــام ومفهوم الحضارة الاسلامية . . . . . . ٧ — ١٤

الفصـــل الثانى — نظم الحضارة الاسلامية
النظـــام السياسى — النظـــام الادارى — النظام القضـــائى — النظام المـــالى — النظام الحربى . . . . ١٥ — ٧٨

الفصـــل الثالث — الحيـــاة الاجتماعية فى الاسلام
طبقات المجتمع الاسلامى وتطورها — اهل الذمة فى الاسلام — حياة المدن الاسلامية — حالة الترف . . . . ٧٩ — ١٠٦

الفصـــل الرابع — الحياة الاقتصاديةفى الدولة الاسلامية
الزراعة — الحرف والصناعات — التجارة ١٠٧ — ١٤٠

الفصل الخامس — الحياة الفكرية وتكوين الفكر العربى الاســـلامى
العلم فى الاســـلام وطرق نقله — العلوم النقليـــة — العلوم العقليـــة . . . ١٤١ — ٢٦٠

الفصل السادس — الفنون الاســـلامية
التصوير والرسم والزخرفـــة — العمارة الاســـلامية — الموسيقى . . . . ٢٦١ — ٢٩٣

الفصل السابع — اثر الحضارة الاســـلامية فى الغرب وفى العـــالم ومجالات التأثير فى الآداب والعلوم والفنون . . . . . . ٢٩٥ — ٣١٩

مصـــادر الـــكتاب . . . . ٣٢١ — ٣٢٦

مطبعة الجبلاوى
٢٠٢ ش الترعة البولاقية — شبرا — القاهرة

رقم الايداع بدار الكتب ٥٦٥٥/١٩٨٥